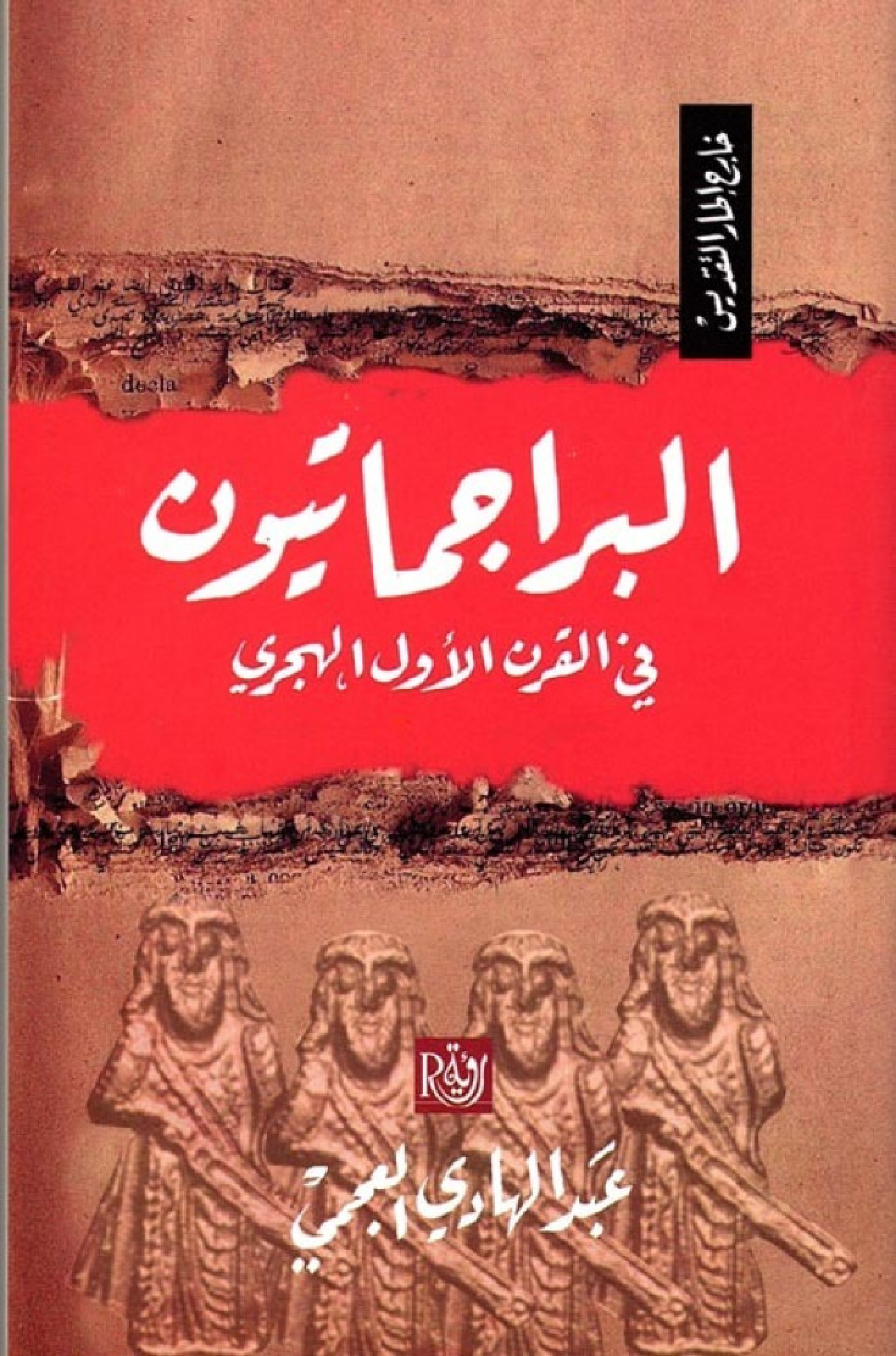

خارج إطار التقديس
البراجماتيون
في القرن الأول الهجري
رؤية
عبد الهادي العجمي

خارج إطار التقديس

البراجماتيون

«في القرن الأول الهجري»



عبدالهادي ناصر العجمي

خارج إطار التقديس

البراجماتيون

«في القرن الأول الهجري»



خارج إطار التقديس البراجماتيون في القرن الأول الهجري

عبدالهادي ناصر العجمي

الطبعة الثانية: 2021

الردمك: ISBN 978-977-499-204-9



المحتويات

الموضـــــوع	**الصفحة**

الموضـــــوع **الصفحة**

الموضـــــوع **الصفحة**

الموضـــــوع **الصفحة**

الموضـــــوع **الصفحة**

مدخـــل

توجيه التاريخ سلطة أم أيديولوجيا؟

من المحقق أن الكتابة التاريخية الإسلامية وركامها الهائل في عصورها المتقدمة فرضت - إلا في حالات نادرة - توجيه التاريخ وتشكيل حركته، وأن يوضع غالبية تراث الإسلام في سياقات موظفة (أيديولوجيًّا[1]) غايتها خدمة الدين وتاريخ الأمة، ورجالات الإسلام ومعجزات المسلمين وبطولاتهم، لا سيما أن المشهد النهائي المتصور من قبل القارئ سيرتبط

---

(1) مصطلح الأيديولوجيا في رأي البعض يتكون من مقطعين يونانيين هما (Idea - Logy) أي علم الأفكار وعلم المثاليات، وعمومًا المصطلح - شأنه شأن كثير من مصطلحات العلوم الاجتماعية - تم التصدي له بتعريفات مختلفة، لكن في الغالب لم تستقر تلك التعريفات على تعريف واحد محدد، وربما يعود ذلك بسبب تطور المعاني الخاصة بها عبر الحقب الزمنية المتنوعة مما جعل كل حقبة تذهب مذهبًا مختلفًا عن سابقتها ولاحقتها تبعًا لما يتوافق معها من أدبيات وفلسفات معينة لكل فريق أو مذهب. انظر: المدخل في الأيديولوجيا والحضارة، عبد الرحمن خليفة؛ فضل الله محمد إسماعيل، مكتبة بستان المعرفة، الإسكندرية، 2006، ص 21 حتى 27.

هـو الآخـر وبشـكل مبـاشر بالمفهومـين الأكثـر جدليـة (الخـير والـشر) ووفـق معايـير تعكـس أدبيـات ورمزيـات وقِيـم الإيـمان والكفـر، وتجسـد أدبيـات (الحـق والباطـل) اللذيـن لطالمـا تنقـلا بـين النصـوص والروايـات ليرسـما (مشـهدي) بدايـة ونهايـة الأحـداث[1].

لكـن، وفي واقـع الحـال مـع تلطـخ بعـض الشـخصيات بمطامـح ومنافـع دنيويـة في مشـاهد موسـعة، طالـت الكثـير مـن الزعامـات المحسـوبة عـلى تيـارات وفـرق وأحـزاب[2] بـل وحتـى

(1) استـدعت رمزيـة مضامـين ودلالات الخـير والـشر (ولا زالـت) في الكتابـة التاريخيـة أن تقـدم للقـارئ أهـداف نبيلـة توائـم القيـم الأخلاقيـة والدينيـة للإسـلام ومبادئـه

(2) في بعـض المعاجـم العربيـة يـأتي (الحـزب) أيضًـا بمعنـى (الشـيعة). والشـيعة تعنـي الفرقـة مـن النـاس. ابـن منظـور، لسـان العـرب دار صـادر، 8/ 189. كذلـك عـروسي لسـمر، العنـف والمقـدس في الإسـلام (كتـاب المحـن) لأبي العـرب التميمـي ت 333 أنموذجًـا، الدار التونسـية للكتـاب، 2012، ص 264.

رموزًا دينية، أصبحت أجزاءً موسعة من المشاهد التي قدمها المؤرخون والرواة والإخباريون - ولأسباب سنرصدها لاحقًا - غير قادرة على الإقناع[1] أو استمرارية ما أُريد تسويقه لها، ولاسيما المشاهد والمضامين التي تبدو بعيدة عن الديني والمقدس، كما هي بعيدة عن الحق والخير وغيرهما من مثل تلك المضامين؛ إذْ أصبح الأصل في المشهد مجرد غطاء شكلي لفكر تقليدي يرى التاريخ حقائق مطلقة لا تسمح بتجاوزه ولا تقبل بنقده[2].

ترافق ذلك مع شحن مقولات تم إلباسها لبوس الديني

---

(1) يتساءل (عبد الله العروي) في كتابه (مفهوم الدولة) عن الذي يجعل (السلطة) ممثلة في الدولة تصبح تجسيدًا للمثل الأعلى" الإسلام، الحق" إذْ يرى أن ذلك اتجاه مثالي وأيديولوجي (بآن)، لكنه لا ينفع في مجال الدراسة، فالمثالية المطلقة ربما تفيد في البحث عن الدولة كما يجب أن تكون، لكنها لا تفيد في البحث عنها كما هي في (الواقع)، انظر عبدالله العروي، مفهوم الدولة، بيروت، المركز الثقافي، 1980، ص 89.

(2) ذلك أنه بمرور الوقت تتراكم الشروح والتأويلات على هذه الروايات والنصوص، حتى يصبح نقدها أمرًا صعبًا، وغير مقبول، بل غالبًا ما يمسي الاقتراب من النص أو الرواية بتفسير أو تحليل جديد أمرًا مفعمًا بخطورة، ومعرضًا صاحبه لسهام الانتقاد والتشكيك، وبذلك يصبح النص مقدسًا تاريخيًّا لا يخضع للمساءلة، ويستعصي على النقد، بل يمسي مؤرخ النص هو الآخر محميًّا من خلال سلطة هذه النصوص نفسها التي نقلها أو صاغها.

والأيديولوجي[1] وغيرها من نصوص وقيم مصطنعة لا تريد منا تجاوز رؤية مَن قال بها، وفسرها من فقهاء وعلماء، لكل منهم مذهبه وفرقته وجماعته وحزبه.

أن محاولة نقد أو تصحيح تراثنا الإسلامي، وفرز ما علق به من مشاهد ومظاهر بعيدة عن الواقعية والمنطق أو حتى (المعقولية) هو اليوم معني بالتاريخ قبل كل شيء، بل معني بدرجة أكبر باستكمال مشاهد وأسئلة مازالت صُورها وإجاباتها ناقصة!! فباستثناء القرآني منها والمتفق عليه من أقوال النبي ﷺ، يصح القول إن النصوص والروايات لا تحمل معنى دائمًا أو مثاليًّا؛ هناك فقط معنى يجعل الحدث أو المضمون أو المشهد المقدم يأخذ الشكل الذي يُراد تقديمه للقارئ من قِبل مَن قَدمه.

(1)مثل: "تلك دماء طهر الله منها أيدينا، فلا نلوث بها ألسنتنا" أو "والإمساك عما شجر بين الصحابة".

إجابات

أم رغبة في تجاوز النص؟

يأخذ الطابع الرمزي (للسلطة) أهمية متزايدة في مجال التاريخ الإسلامي بالنسبة لأحداث القرون الأولى، ونعني هنا تحديدًا القرن الأول منه الذي يُعَدُّ رحم التمفصلات الكبرى في عمر الأمة وملحمة الحضارة الإسلامية العربية الأولى، لكن تبدو المفارقة في "هل مَن قاد الفعل التاريخي وصنع التغيير في هذه الفترة[1]... هم فقط معسكر الحق أو فريق الخير المتمثل في... الرموز والزعامات الدينية وقادة الفتوح والولاة والخلفاء، والعلماء والفقهاء"؟ أم أن هناك شخصيات (فاعلة) أخرى أسهمت وبشدة في عملية التغيير ودفع الأحداث. وكانت مع غيرها مصدرًا للمبادرة وصورة من صور الفعل السياسي (الواقعي) ومنابع التغيير التي جرت، علمًا أن هذه الشخصيات صُنِّفت في بعض المواقف والمشاهد في المعسكر المضاد لمعسكر الخير والحق، والمتصادم معه.

لقد كان جزءًا كبيرًا لحملي على اختيار الشخصيات (المدروسة) في هذا الكتاب، وتقديمها يعود لما كنت أواجهه من تحديات أسئلة مؤرِّقة.

---

(1) (ونعني القرن الأول الهجري منه).

أسئلة تتناول إشكاليات حول قضايا التاريخ[1]، والنص، والرواية، وتطورهما، علاقة النص بالتقليد وبالموروث والمتغيرات والاحتياجات التي حتمت وضعه على الشكل المنقول[2].

- ما حدود الشخصية والنص؟
- ما مدى أثر النص والرواية المدونة على المشهد المنتج في كتب التاريخ؟
- ما مدى واقعية الفعل والتغيير الذي جرى مع تسلسل الأحداث، وما آلت إليه في النهاية؟
- ما أسباب تعدد الروايات لحدث واحد واختلافها؟
- أين يقع الخط الفاصل بين النص والمؤرخ الذي دونه وكتبه وبين الشخصية أو الحدث المرصود؟

---

(1) يقول رضوان السيد، في معرض كتابه "الجماعة والمجتمع والدولة"، ص 9: "تتجدد الدعوة لدى المؤرخين لإعادة كتابة التاريخ العربي، لكن دعوتهم لا تتصل بأسباب منهجية، بل بدأت في الخمسينيات استجابة لمنازع وطموحات معينة، غير أنها تتجدد اليوم حاملة هم الهوية والأصالة وخصوصية الإسلام" - انظر: رضوان، "السيد الجماعة والمجتمع والدولة"، سلطة الأيديولوجيا في المجال السياسي العربي الإسلامي، دار الكتاب العربي، ط2، 2007

(2) في السياق انظر حياة عمامو (ماهية المصادر الإسلامية المبكرة واختلاف آراء الباحثين في أهميتها التاريخية)، كذلك انظر وداد القاضي، "نحو منهج سليم في قضية موثوقية الرسائل العربية الإسلامية المبكرة في موافقات تونس" الدار التونسية للنشر، 1989م.

- هـل ارتبـاط النـص أو الحـدث أو الشـخصية بحقبـة زمنيـة مخصوصـة مرتهنـة بتصـورات المـؤرخ لتلـك الحقبـة ومتطلباتهـا؟
- هـل التاريـخ مرتهـن بالنـص المـدون، ومـن ثَـمَّ يصبـح الحـدث معتمـدًا عـلى التصاقـه بـه. ومـن ثَـمَّ بـما يريـده المـؤرخ أو الـراوي أو بمعنـى آخـر (سـلطة الأوصيـاء) عـلى النـص؟
- وأخيرًا ما حدود التاريخ نفسه؟

هـذه الأسـئلة كان لابـد لهـا مـن إجابـات... إجابـات هـي الأخـرى يجـب أن تكـون بعيـدة عـن التبريـر والتسـويغ والدفـاع والاتهـام والتشـكيك... إجابـات تراعـي الواقعيـة، وتكـون في إطـار المقبـول والمعقـول. إجابـات تقـدم تصـورات مـن شـأنها أن تسـاعد في الكشـف عـن مكمـن الخلـل بعيـدًا عـن التمـترس خلـف نصـوص وروايـات باتـت لا تحتمـل النقـاش ولا الاستفسـار، إجابـات تسـلِّط الضـوء لإنقـاذٍ مـا تبقَّـى مـن قـدرة عـلى قـراءة أكثـر منطقيـة.

فعـلى المسـتوى التاريخـي- قديمـه وحديثـه- هنـاك دون شـك نصـوص وروايـات عـبرت عـن مرحلـة زمنيـة معينـة، لكـن ولأسـباب خاصـة تـم اسـتخدام وتوسـيع وشـد هـذه النصـوص والروايـات إلى خلفيـات تُمـازج بـين أصيـل نابـع مـن خصوصيتهـا الدينيـة والاجتماعيـة والسياسـية، وبـين دخيـل أملتـه عليهـا ظـروف الواقـع، والرغبـة في تجـاوز حاضرهـا ونقـده.

التاريخ
والمكون الأزلي/ (الدين)

إن شخصيات[1] هذا الكتاب ليست أسطرة[2] أو تابوهات دينية، إنها شخصيات إسلامية أصيلة، عاشت ومارست دورها، وكانت جزءًا من نسيج القرن الأول الإسلامي، وانعكاسًا لمشاهده التاريخية، ولاسيما مشاهد الصراع السياسي والقبلي المتجذرة فيه، شخصيات ابتعدت نصوصها ورواياتها عن نهج المثالية السياسية المُقيدة بالديني والتزاماته، متجهة نحو ما تفرضه المتغيرات[3] (المنطقية)؛ فبدت هذه النصوص والروايات التي تتناول هذه الشخصيات الأكثر قدرة ومرونة من مثيلتها على تفسير هذا الزخم والتشابك المعقد للقضايا

(1) شبث بن ربعي، أبو الأعور السلمي، عبد الله بن خازم، المهلب بن أبي صفرة. شخصيات كانت الأقدر على الحراك وصنع عمليات التغيير، وتحمل مسؤولية النتائج الأخيرة لقراراتها وممارستها، تلك القرارات والممارسات التي ليس فيها ما يدينها، بقدر ما فيها من انعكاس لكيفية صناعة عمليات التغيير والحراك التي جرت في الفترة التي عاشت بها هذه الشخصيات من القرن الأول الهجري.

(2) أيًّا كانت الأسطورة ومنشؤها ونوعها إلا أنها تظل تدور بشكل موسع في فلك الموروث أو المعتقد، سواء أكان هذا الموروث أو المعتقد دينيًّا أم اجتماعيًّا أم ثقافيًّا. شكري محمد عياد، البطل في الأدب والأساطير، دار المعرفة، القاهرة، 1959م.

(3) سواء السياسية أم القبلية أم الاجتماعية.

الجدليـة التـي لا تـزال مرهونـة اليـوم بقـدرة المؤرخـين[1] عـلى فك وتشـابك تعقيدهـا، واسـتنطاق مـا تحملـه مـن مضامـين ودلالات سُـخر بعضهـا لترجيـح كفـة طـرف ضـد آخـر، وتـرك بعضهـا ليتقـرر وفـق موضوعيـة المـؤرخ أو وفـق مضامـين الاحتيـاج والـضرورة التاريخيـة (إن دعـت الحاجـة لذلـك).

امتلـك التاريـخ لهـذه الشـخصيات مشـاهد متضـادة ومتباينـة فيـما بـين التلميـح والاتهـام والتقزيـم والتشـكيك تـارة، إلى التبريـر والتحيـز والانتصـار تـارة أخـرى، حيـث بقيـت أدوراهـا في كتـب الـتراث الإسـلامي رهـــن هـــذه الـدلالات وتلـك المضـــامين، لكـن بشـكل لا يمكـن اختزالـه ولا تقليـص مسـاحته، أو حتـى اسـتبعاده مـن محـركات الفعـل الأصليـة للقـرن الأول الهجـري، بـل عـلى العكـس.

وإن اسـتطاعت النصـوص والروايـات المنقولـة عـن هـذه الشـخصيات، تكثيـف عمليـة الربـط بـين الديـن والممارسـات المرتبطـة بـه، لكـن ذلـك لا ينفـي أنهـا شـخصيات امتلكـت القـدرة عـلى خلـق تصـور مختلـف، تصـور يثبـت اسـتحقاقها فـرض حضورهـا بشـكل بـدا وكأنـه يتعـارض مـع الديـن نفسـه ومرتكزاتـه الأخلاقيـة والقيميـة في بعـض المشـاهد والأحـداث.

هنـا لم نكتـف، باسـتعراض ممارسـات تلـك الشـخصيات عـلى المسـتوى النظـري، والتـي ربـما تثـير بعـض الاعتراضـات

(1) كلّما تعلّق الأمر بالرواية التأريخية.

حـول حقائـق تاريخيـة واردة باعتبارهـا غـير دقيقـة، بـل حاولنـا أن نعتمـد مقاربـة تفسـيريّة، تعمـل عـلى توضيـح إدراكات الفعـل التاريخـي، بـين ثنايـا النصـوص والروايـات التـي قُدمـت عنهـا.

مقاربـة تُفهـم في سـياق تحليلي يعتمـد المسـاءلة لفهـم المعقولية التـي كانـت تجـرى بهـا الأحـداث، ولا سـيما أن قـوّة النصـوص الدينيـة، وطـرق الانتقـال مـن النفـي إلى الإثبـات، ومـن المكـوِّن الأزلي للدينـي والرمـزي والمقـدس، داخـل نصـوص وروايـات التاريـخ التـي اكتنـزت عـلى مجـالات تأثـير واسـعة، لا متناهيـة، جعلـت الكثـير مـن الأفعـال التـي مارسـتها هـذه الشـخصيات ينظـر لهـا مـن منظـور ضيـق محصـور بـين زاويتـي (الحـق أو الباطـل)، (الخـير أو الـشر)، (العدالـة أو الظلـم)، (مـع أو ضـد).

ديني أم قبلي؟

قبل الوحي: الصراع بين الفُرس[1]، الروم[2]، وبكل توازناته كان يتخذ طابعًا سياسيًا[3] أكثر منه ديني، أما (الجزيرة العربية) بما تحمله من مدارات ثقل متشابك[4] فكان (في الغالب) الصراع قبليًا بشكل أنشط منه سياسيًّا... حتى هبط الوحي بأرض العرب[5].

---

(1) الحضارة الفارسية تنسب إلى آل ساسان الذين حكموها بعد البارثينيين في القرن الثالث الميلادي، اشتهرت فارس بالمجوسية والزرادشتية قبل أن يدخلها الإسلام فيما بعد.

(2) روما سنة 753 ق.م في (321م) نقل كرسي الملك إلى بيزنطة، وانتقل إليها قسطنطين الكبير، وهي استانبول اليوم.

(3) المتفحص للصراع الطويل الذي دار بين فارس والروم يدرك أنه كانت له آثاره السلبية الكبيرة على النسيج الاجتماعي والسياسي والاقتصادي والعسكري لهاتين القوتين اللتين كانتا تشرفان بحدودهما على الجزيرة العربية، راجع علا عبد العزيز أبو زيد، الدولة الأموية دولة الفتوحات (14هـ - 132هـ / 661-750م)، ط1، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة، 1417هـ - 1996م، ص 7.

(4) لثلاث ديانات (اليهودية، المسيحية، الوثنية).

(5) يفرض هنا العرب الغساسنة حضورًا ما، حيث استوطنت في الشمال الغربي للجزيرة العربية - الأردن وجنوب سوريا أشهر مَن ينتمي لها قبائل "الأزد" اليمنية التي هاجرت من اليمن (بعد انهيار سد مأرب) جنوب سوريا، دخل الغساسنة في المسيحية في "القرن الرابع" الميلادي، وتحالفوا مع "الروم"؛ إذْ كانت أشهر مدنهم "بصري"، كذلك المناذرة هاجرت بعض القبائل العربية من اليمن، واستوطنت في شمال شرقي الجزيرة العربية متخذين من الحيرة =

جاء الإسلام

التطور الطويل والمعقد للقرن الأول الهجري لم يُصور تصويرًا يعكس طبيعة تطوره بشكله المنطقي، لا سيما أن هذا التطور لم يكن مثاليًا على طول الخط، فبظهور الإسلام[1] ونزول الوحي دخل العرب[2] في لحظة "صفرية"، أو "غيبية"، لحظة غادرت مخلفةً وراءها صعيدًا جديدًا، صعيدًا بدأ يلوح منه مولد دين ودولة، بدءً بالمدينة المقدسة مكة التي احتضنت أول نزول للوحي وانتهاءً بالعاصمة الدينية

= عاصمة، وأشهر ملوكها النعمان بن المنذر (لذلك أطلقوا عليها "دولة المناذرة").

(1) أحدث ظهور الإسلام تحولاً جذريًا في حياة الأمة العربية، ونقلها من طور التجزئة القبلية إلى طور التوحد في إطار أمة واحدة تدين بالإسلام، وتتخذ القرآن الكريم مثلًا أعلى، كما لا يمكن لأحد أن ينكر ما شهدته الأوضاع من تغيرات جوهرية ولا سيما على أصعدة الأوضاع الدينية والاجتماعية والثقافية والسياسية.

(2) يرى هشام جعيط أن العرب ولولا نزول الوحي على الرسول وقيام الدولة الإسلامية ما كان لهم أن يتوحدوا أو ينتظموا، ومن ثم ما كان يمكنهم الدخول في التاريخ، هشام جعيط، (الفتنة)، جدلية الدين والسياسة في الإسلام المبكر، ترجمة خليل أحمد خليل، بيروت دار الطليعة 1991م، ص13، ولا يخفي أن جعيط (مثله مثل أركون) اتكأ بشدة على التفاصيل ذات المشاهد عالية الارتفاع في الصراع بين المسلمين بعضهم البعض أو مع غيرهم، والتلميح أو الترميز والمقابلة بأن ذلك ربما كان امتداد لممارسات عتيقة قديمة مستمدة من التجذر القبلي والبنى القبلية لما قبل الإسلام.

الأولى لدولــة الإســلام (المدينــة المنــورة). هــذه الأيقونــة وبــما حوتــه مــن أماكــن وشــخصيات ورمــوز كانــت الحاضنــة للعهــد النبــوي وللخلافــة الراشــدة بعــده.

وبـكل الهـدوء النسـبي للصراعـات الداخليـة في عهـد أبي بكر[1] (11-13هــ/ 632 623-م) هـ الخليفة الأول، وبكل التوسـع الذي شـهدته الفتوحـات في عهـد عمر بـن الخطـاب (13-23هــ/ 634-644م) الخليفـة الثـاني. لم يظهـر الخـلاف والتشـظي مجـددًا سـوى في أواخـر عهـد الخليفـة الثالـث عثـمان بـن عفـان (23-35هــ/ 644-656م) عـلى الرغـم ممـا شـهدته السـنوات الأولى لحكمـه مـن إعـادة تثبيـت مراكـز الفتوحـات وتوسيـع رقعتهـا. لكــن، بمقتــل عثمان بـن عفــان[2] تدخـل الأمـة في نفـق الفتنــة[3]، ليجــد الخليفــة

(1)وإن لم نسـتثنِ مـن هـذه الفـترة حـروب الـردة ومـا آلـت إليـه الأوضـاع في ظـل هـذه الصدمـة المفاجئـة لدولـة الإسـلام.

(2)ربـما الطريقـة التـي قتـل بهـا الخليفـة الثالـث عثـمان بـن عفـان، ولا سـيما الغلـو مـن قبـل مَـن قامـوا بقتلـه خلقـت حالـة مـن التعاطـف التاريخـي فيـما بعـد مـع المطالبـين بالقصـاص لـه.

(3)يظـل صراع (الفتنـة) لاشـك البدايـة الحقيقيـة لمعظـم التحزبـات والفـرق المذهبيــة الرئيســية ذات التوجهــات السياســية المتباينــة والتفريغــات العقيديـة المختلفـة التـي عرفهـا الفكـر السـياسي الإسـلامي فيـما بعـد، انظـر عـلا عبـد العزيز أبـو زيـد، الدولـة الأمويـة دولـة الفتوحـات،ط1، المعهـد العالمـي للفكـر الإسـلامي،1996م، ص 8.

على[1] (35-40هـ/ 656-661م) نفسه في مواجهة بالسيوف[2] ضد الصحابيان طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام[3]، بالإضافة إلى أم المؤمنين عائشة، وذلك في معركة الجمل (36 هـ/ 656 م). تلك المعركة التي يمكن القول أن الأمة خرجت منها أكثر انقسامًا وتفسخًا[4]، حيث الخلافات كانت تتسع بشكل سريع بين الجميع، سواء طرفا النزاع الأصليين (علي ومعاوية) أو بقية أطراف النزاع الآخرين.

وعليه انتقل الصراع وبسرعة من وعاء (الديني والسياسي) إلى وعاءٍ جديد، وعاء تم فيه استدعاء صورة الصراعات القديمة قبل الإسلام. وعاء كان من أبرز صوره بناء التحالفات وتنشيط العصبيات والزعامات وإحياء المصالح القبيلة وغيرها من محركات الفعل السياسي التي

(1)ولا سيما أن بيعة علي لم يتوافر لها ما توافر لأسلافه (الثلاثة) من إجماع سياسي موسع.

(2)خاض عليٌّ ثلاثة صراعات مُهلِكة ضد خصومه ومعارضيه، كان أولها (الجمل)، تلتها (صفين) - ومن ثم صراعه مع الخوارج في (النهروان)، ثلاث معارك كبرى تمت فقط في النصف الأول من القرن الأول الهجري، راح في ساحاتها آلافُ المسلمين.

(3)وكانا قد طلبا من عليٍّ أن يعينهما واليين؛ ليجمعا له الجند، لكن لاحقًا انسحبا إلى مكة للمطالبة بدم عثمان.

(4)سميت بالجمل نسبة للجمل الذي تم حمل أم المؤمنين عائشة وهودجها عليه، انظر محمد الحسيني، تاريخ الصراع على السلطة، ص 60.

تستمد زخمها من ماضي العرب وأيامهم، خصوصًا أن الصراع لم ينحصر بين الخصمين القرشيين فقط... بل تعداهما، وتمدد إلى العالم القبلي القديم، فحضرت القبلية بثقلها في (المشهد) لاسيما رموزها وزعماتها.

تتسارع الأحداث بالنسبة للصراع لمستوى أشد مأساوية من الجمل، فتحت ظل حضور قبلي طاغ، وفي ضوء الانقسام الحاصل، لم يكن غريبًا أن ترتفع السيوف للمرة الثانية في حلقةً جديدةً، أشدَّ قسوةً وأكثرَ دمويةً[1]، حلقة تغلبت فيها وبسرعة شديدة حتمية المواجهة، فالتقي المسلمون ضد بعضهم بعضًا في "صفين 36-37هـ"، (صفين) الأزمة التاريخية ومعركة اللبوسات الايديولوجية التي أثارت أهم الانقسامات الكبرى في تاريخ الإسلام[2]. الحرب التي تم تحويل الصراع فيها من سياسي إلى ديني، حق وباطل، خير وشر.

---

(1) من الوقائع الدموية أيضًا في تاريخ الإسلام وقعة (الحرة) تلك التي قتل فيها ما يقارب من ثمانين من أصحاب النبي ﷺ، حتى إن أبا العرب التميمي ت333هـ يورد القول "لم يبقَ بعدها بدري" انظر: أبو العرب التميمي، المحن، تحقيق عمر سليمان العقيلي، ج1، دار العلوم، الرياض، 1984م، ص 185.

(2) صفين (الفتنة الكبرى) المعركة التي سيظل التوصُّل إلى الحقيقة يقينيّة فيما يخصّها في تاريخ الإسلام أمرًا محفوفًا بالمخاطر؟

(صفين) المواجهة التي تم الالتجاء فيها إلى النصوص والروايات والأقوال، سواء (الصحيحة أم الضعيفة أم الموضوعة) التي ترجح كفة طرف دون الآخر، انتهاءً بتحكيم النص المقدَّس (القرآن) بعد رفع المصاحف.

(صفين) هذا القتال الذي بدأ بحضور قوي، ومن ثَمَّ توقف توقفًا دراماتيكيًّا، دون نصر ودون هزيمة، ليبقي بعده علي منكسرًا في الكوفة يلملم شتات جيشه يطارد مع من بقي معه (من المقاتلين) الفرقة الجديدة المارقة (الخوارج)[1] بعد تمترسها خلف (لا حكم إلا لله)[2]. أما معاوية، فراح بدوره يحاول لململة أنصاره في دمشق وما حولها، ويحشد

---

(1) أحد أقدم الفرق الإسلامية التي ظهرت مبكرًا في النصف الأول من القرن الأول الهجري، والتي كان من أهم ما عرف عنها دعوتها إلى الخروج على الحاكم في حالات معينة. علمًا بأن الخوارج كانت من شيعة على الذين ناصروه في صراعه مع معاوية، ثم فارقوه وخرجوا عليه وقاتلوه واعتبروه رافضًا للعمل بأحكام الدين. كذلك أهم ما قيل عن أصل الخوارج هو أن حركتهم قد ارتبطت ارتباطًا وثيقًا بجماعات القراء، وهم الجماعات التي وصفت بالأشد شغفًا بالقرآن والإقبال على التعبد والزهد والمثالية إلى حدٍّ وصل في بعض الأحيان إلى تكفير بعض من انحرف عن مبادئ الإسلام وأحكام القرآن- انظر: رياض عيسى الحزبية السياسية منذ قيام الإسلام حتى سقوط الدولة الأموية، ص76، رفيق المهايني، تاريخ الدولة الأموية والعباسية والدول الإسلامية والعصور الوسطى في أوروبا، دار اليقظة العربية، دمشق، 1946م، ص 3.

(2) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج6، ص 31.

المزيـد مـن القيـادات والزعامـات القبليـة[1].

تحـت هـذه الظـروف (تفاجـئ) الأمـة بغيـاب الخليفـة عـلي (مغتـالًا) عـلى يـد أحـد الخـوارج[2]، في الوقـت الـذي كان ينتـشر أمـر شـيعته[3] لتصبـح بعـد ذلـك أحـد أهـم الفـرق الإسـلامية.

عـلى الجهـة المقابلـة يسـتطيع معاويـة[4] أن يحيـد أغلـب خصومـه (الأقويـاء). يسـاعده في ذلـك تكتـل القـوى (الأرسـتقراطية) بحضـور قَـوي خلفـه، ولم يكـن غريبًـا أن بعـض هـذه القـوى والزعامـات القبليـة نفسـها كانـت إلى جانـب عـلى في صفـين إذن في السياسـة والحـرب "لا صداقـة دائمـة ولا عـداوة دائمـة".

هنـا وبعـد أن جـرى تأمـين السـيطرة بالنسـبة لمعاويـة يفاجـأ المشـهد السـياسي الإسـلامي بتشـكل وخلـق إطـار سـلطوي

(1) في هـذا السـياق انظـر: عبـد الهـادي العجمـي "صفـين والتحكيـم بـين الأيديولوجيـة المذهبيـة والواقعيـة التاريخيـة"، حوليـة التاريـخ الإسـلامي الوسـيط، المجلـد العـاشر 2015-2016 دار الفكـر العـربي.
(2) عبد الرحمن بن ملجم.
(3) بعد تبينهم أن عليًّا هو وحده صاحب الحق الشرعي في الخلافة.
(4) سياسـيًّا مثلـت ظاهـرة تـولي معاويـة الخلافـة نقلـة نوعيـة، في طبيعـة الفعـل السـياسي الإسـلامي ولاسـيما بعـد أن اتخـذ منهجـه الحفـاظ عـلى الشـعرة التـي بينـه وبـين الرعيـة.

جديـد[1] (لمؤسسـة الخلافـة)، إذْ تأسـس للأمويـين أول الأسر الحاكمـة في تاريـخ دولـة الإسـلام، كل ذلـك في فـترة زمنيـة (ربـع قـرن) مـن مقتـل عثـمان بـن عفـان.

إذن لا يمكـن للـدارس أن يُسـلِّم بـأن كل هـذا الزخـم التاريخـي المتسـارع والانقـلاب الشـامل، الـذي حـدث في فـترة زمنيـة وجيـزة، حـدث، كـما تصـور لنـا كتـب التاريـخ فقـط بإيعـاز الرمـوز الدينيـة، أو التمحـور حـول شـخصيات بعينهـا (أبـو بكـر، عمـر، عائشـة، طلحـة، الزبـير، عثـمان، عـلى، معاويـة، عمـرو بـن العـاص، الحسـن والحسـين، وغيرهـم).

فلاشـك أن منابـع الفعـل والتغيـير السـياسي في عمـر دولـة الإسـلام كانـت تحركهـا دوافـع وعوامـل أخـرى، شـخصيات وقيـادات كانـت مدفوعـة بمرتكـزات وأبعـاد تتحـرك داخـل إطارهـا، وتخـدم تطلعاتهـا، قيـادات وشـخصيات تحركـت مـن منطـق واقعـي وليـس مثاليًّـا، شـخصيات وقيـادات حرصـت الرمـوز (الدينيـة) نفسـها عـلى الاسـتعانة بهـا، واسـتخدمتها،

---

(1) يعـرف البعـض السـلطة "بأنهـا القـدرة عـلى التأثـير، وهـي تأخـذ طابعًـا شرعيًّـا في إطـار الحيـاة الاجتماعيـة، والسـلطة هـي القـوة الطبيعيـة، أو الحـق الشرعـي في التـصرف، أو إصـدار الأوامـر في مجتمـع معـين، ويرتبط هـذا الشـكل مـن القـوة بمركـز اجتماعـي يقبلـه أعضـاء المجتمـع بوصفـه شرعيًّـا، ومـن ثَـمَّ يخضعـون لتوجيهاتـه وأوامـره وقراراتـه - راجـع أحمـد زكـي بـدوي: معجـم مصطلحـات العلـوم الاجتماعيـة، مكتبـة لبنـان، بـيروت، 1978.

بل إن كثيرًا من تلك الشخصيات والقيادات، وفي كثير من الأحيان عملت بوصفها مُمثّلًا ومبعوثًا شخصيًّا لهذه الرموز (الدينية) التي ظلت ولا تزال لليوم تحظى بأعلى درجة من درجات الحماية - بسلطة الديني والمقدس - التي وفرها لها التاريخ وبتلقائية عالية لا تخلو هي أيضًا من عوامل ودوافع أيديولوجية تتكئ على مرتكزات ثقافية مستمدة من الحضور القبلي لتراث ما قبل الإسلام وامتداداته، إضافة للحضور والقداسة الدينية التي حازتها بعد الإسلام، وما أحدثه من تحولات شمولية شكلت بدورها صورة هذا التاريخ، (تاريخ) القرن الأول الهجري.

إدانة أم متطلبات للسرد التاريخي؟

هـدف التاريـخ: " هـو معرفـة مـا حـدث كـما حـدث بالفعـل "(1)

مَثَّل ظهـور الإسـلام منعطفًـا مهـمًّا في وعـي التاريـخ عنـد العـرب، فبعـد حيـاة شَّـتات كانـوا يعيشـونَها في ظـل عصبيـات قبليـة، فرضـت أن يكـون النمـط الثقـافي السَّـائد (ومـع نُـدرة التَّدويـن) معتمـدًا عـلى "الذَّاكـرة والحِفْـظ"، وجعلهـما بمثابـة الوعـاء الثقـافي السـائد، كـما جعلـت مـن "الشـعر"، و"الأيـام" و"الأنسـاب" و"الخـبر" و"القصـص الشـفاهي" موضوعـات متجـددة، ونمطًـا مخـبرًا للثقافـة الجاهليـة، ورتقًـا لفراغـات التاريـخ غـير المـدون لفـترة مـا قبـل الإسـلام عنـد العـرب، فمـع ظهـور الإسـلام أصبـح هنـاك طابعًـا جديـدًا غـير الأنـماط السـابقة، طابعًـا وجـه المضامـين نحـو واقـع التحـول الإسـلامي الحاصـل؛ إذْ أصبـح الحضـور التاريخـي منجذبًـا بصـورة مـا لـضرورة المقاربـة مـع النـص القـرآني والسـيرة النبويَّـة النموذجـين "الأهـم" بهـذا الوقـت في الكتابـة التَّاريخيَّـة الإسـلامية، وربـما يدفعنـا وجـود المؤثـرات التراثيـة بـما فيهـا مـن نصـوص وروايـات ومنقـولات للقـول بـأن عمليـة تدويـن التاريـخ الإسـلامي الجديـد في الظاهـر حدثـت بعـد سـقوط الدولـة الأمويـة عـام (132 هـ 750-م)، لكـن يقودنـا الفحـص الدقيـق ورصـد التطـور إلى أن العـصر العبـاسي

(1)ليوبولد فون رانكه - Leopold.von.Ranke (1795-886).

(132 – 656هـ/ 750 – 1258م)[1]، هو عصر الإنتاج المكثف والموسع للتاريخ الإسلامي وليس بدايته. ففي هذا العصر نضجت الرواية التاريخية بشكلها الغزير، كما ظهر فيها تركيز على حقيقة مُعطى الإسلام وأنه المنبع لأصل التجربة السياسية الإسلامية والمحرك الرئيسي للتغيرات الحضارية التي جرت.

اعتبر القائمون على تدوين التاريخ ورصده أن ما جرى في القرن الأول الهجري، وتحديدًا- منذ نزول الوحي، وحتى نهاية فترة الخلافة الراشدة – بمثابة تغير حاد في المفاهيم والمضامين والموروثات والأعراف التقليدية التي كانت سائدة، وأن ما استتبعه كان نتيجة مباشرة لتغير الوعي والهوية العربية بأثر الإسلام وتشريعاته وأعمال الرسول ﷺ وأقواله، وعليه بما أن التحول قد تحقق، إذن تولدت ضرورة دفعت هي الأخرى نحو ترسيخ الاعتقاد أن هذا التغير يعود للدين، الدين (وحده) بكل أبعاده ودلالاته، وجعله السائد المتخيَّل والجمعي لتصوُّر الإسلام الأول.

وربما كان ذلك ضرورة وحتمية – نفهم مسبباتها – ضرورة ولدتها متطلبات السرد التاريخي العام لهذا العصر، وولدت بدورها إقرارًا بأن الفعل التاريخي الإسلامي لم يتحقق إلا في

(1) وهذا لا يعني أنه لم يكن هناك مجهود لجمع المادة وتدوينها في العصر الأموي، فلا يمكن أن نستثني العهد الأموي وما فيه من إخباريين ورواة من عمليات التدوين في مؤلفات تاريخية كبرى.

إطـار التجربـة الدينيـة الحاصلـة وطبيعتهـا، ومـا رافقهـا مـن تغيير جوهـري اقـترن بالتغـيرات الاجتماعيـة والثقافيـة والأخلاقيـة، بل والاقتصاديـة أيضًـا، كذلـك جـزء مـن متطلبـات الـسرد التاريخـي في العـصر العبـاسي نفسـها كانـت تسـتدعي توظيـف الدينـي في خدمـة السـياسي، وتفـرض خلـق واقـع أيديولوجـي - معـين - واقـع يتـم فيـه الحديـث عـن سـياقات المـاضي بطريقـة تتوافـق مـع تاريـخ دولـة الأمـة الجديـدة، وبمعنـى أدق التوسـع في عمليـات (التنصيـص السـياسي)[1].

مـن هـذه الزاويـة، قـد يكـون مـن البديهـي فهـم الكثافـة في النصـوص والروايـات التـي تسـتمد وتسـتوحى معظـم السـياقات الموجـودة مـن القـرآن وقصـص السـيرة والفتوحـات والغـزوات التـي لم يعـد الإخبـار عنهـا في سـياق سردي تاريخـي محايـدًا بقـدر مـا كان مرتبطًـا بشـكل مبـاشر بتجربـة الأمـة وثقافتهـا الدينيـة.

ومـن الُملـح وقبـل اسـتعراض الصفحـات القادمـة مـن الكتـاب - القـول: "إن مـا بـين دفتيـه مبنـي عـلى فرضيـات فكريـة - تاريخيـة" فرضيـات تتلمـس حقيقتهـا مبـاشرة مـن خـلال "النصـوص"، وفي "الأبعـاد التاريخيـة لهـا" - ومـا يُـرَى فيهـما[2].

---

(1) انظـر: عبـد الجـواد ياسـين، السـلطة في الإسـلام العقـل الفقهـي السـلفي بـين النـص والتاريـخ، المركـز الثقـافي العـربي، ط2، سـنة 2000، ص 259.

(2) لم يغـب - ونحـن نعلـم مـا قـد يثـيره هـذا المنحنـى مـن اعتراضـات =

لـذا فـإن ثمـة عـددًا مـن الأفـكار المثـارة، قـد لا يستسـيغها كثـيرون، والسَّـببُ أن القـراءة التـي نقدمهـا حـول أصـول النـص التاريخـي ومحـركات الفعـل ومنابـع التغيـير التـي جـرت في القـرن الأول الهجـري، ليسـت تلـك التـي يقبـل بهـا العقـل الجمعـي للأمـة، بـما يتبعـه مـن مثاليـة التجربـة الإنسـانية الإسـلامية، واختلاطهـا بسـلم القيـم والمثـل التـي رصدتهـا، أيضًـا لا لأنهـا تولـد تسـاؤلات تغـذي صـورة مختلفـة للـدور التاريخـي لأبطـال أدوا أدوارًا مؤثـرة في هـذا القـرن، سـواء كانـت أدوار عقائديـة أم أخلاقيـة أم سياسـية، بـل السـبب أن إعـادة قـراءة تلـك المشـاهد

=مقبولـة - حضـور وتماهـي بعـض المـواد مـن الـتراث اليهـودي والمسـيحي - عـلى اختـلاف أشـكالها في تـراث الجاهليـة، ومـا شـاع مـن تـراث قديـم لهـذه الأمـم، وتسربهـا - في حـالات بسـيطة - بداخـل الكتابـات الإسـلامية، تمازجـت هـذه المكونـات فيـما بينهـا، وتـم صهـر عناصرهـا في نسـيج احتياجـات الدولـة العباسـية التـي وجـد مدونوهـا أنفسـهم أمـام كـمٍّ هائـل مـن النصـوص والروايـات مرتبطـة بأحـداث القـرن الأول ووقائعـه، وذلـك عـلى يـد مـا عـرف بطبقـة المؤرخـين والـرواة والإخباريـين، أيضًـا كان تفسـير الوقائـع والأحـداث والمتغيرات التـي طـرأت تسـتلزم أن تخـدم المنحنـى الدينـي بـكل مـا له مـن دلالات، وأن تتـم قراءتهـا كمصـدر أو ممـر تنبـع منـه أحـداث وتحـولات الفعـل السـياسي التـي قادتـه العديـد مـن الشـخصيات والقيـادات الإسـلامية، وكانـت أهـم ركائـز ومنابـع التغيـير فيـه (ونقصـد بالإسـلامية هنـا كل السـياقات التـي شـكلت الفعـل السـياسي مـن خـلال كل الطبيعـة الإسـلامية وعلاقتهـا بالآخريـن (الفتوحـات، أهـل الذمـة، المـوالي) وغيرهـا مـن مشـاهد الامتـداد الدينـي والسـياسي للإسـلام).

التاريخية تقدمهم في دور يختلف عن ذاك الدور الذي أعطاه لهم المؤرخون والإخباريون الأوائل، دور يختلف عن صورتهم في المشهد الذي رُسم لهم في الزمن الجمعي الافتراضي للأمة، دور يكشف عن حقائق مخالفة لما ترسَّب في المخيال الديني أو إسلام الأصول.

فمن المحقق أننا اعتمدنا على ما كان يجب أن يظهر في جملة المشاهد والأدوار التي كانت تجري على أرض الواقع، متجاوزين التصورات والثوابت النظرية التي تدعمها القيم والأخلاق والمثاليات التقليدية ، بل حتى كثير من التفاسير والتعليقات - التي جرت لتحليل هذه المشاهد والأحداث - ربما يراها البعض غير مقبولة، لكن وفي الوقت نفسه سيجد الرافضون لها صعوبة في تقبل عدم معقوليتها...لأنها ببساطة وبعيدًا عن الاختلاف والاختلاق والجدل، تمثل التصور المنطقي لما كان يجري من أحداث، التصور المنطقي بعيدًا عن أيديولوجيا التقديس والمقدس ودلالاتهما، تلك الدلالات التي مورست، بل وربما تكون قد طغت على الكتابة التاريخية الإسلامية في القرنين الثاني والثالث الهجري بدرجة موسعة وشاملة إن صح التعبير.

كذلك لا تحاول صفحات الكتاب إدانة طبقة الإخباريين ولا المؤرخين الذين تعاملوا مع كمٍّ تراثي وروائي ضخم مما قدمه الرواة والمحدثون لهم، سواء مسندة أم غير مسندة، توزعت على قرنين كاملين (ليست تلك مهمة المؤرخ)، كما

لا ندعـي أنهـا محاولـة لكشـف مـا لُفِّـقَ مـن روايـاتٍ أو نصـوص تاريخيَّـةٍ حُسِـبَتْ عـلى الديـن والتاريـخ الإسـلامي.

لذلـك إن بـدا في أحـد زوايـا الكتـاب مـا يوحـي بمضامـين "هـذه الإدانـة" للمعطـى التاريخـي المتكـون والمنتـج أو تَزيِّـى بزيهـا، فـإن موقفنـا الحقيقـي هـو موقـف تفهمـي لدوافـع ودلالات وأسـباب هـذه المشـاهد. ففـي هـذه المرحلـة المبكـرة لم يتـأتَّ للمـؤرخ أن يكتـب التاريـخ دون أن يقـدم للمتلقـي فهـمًا يأخـذ بعـين الاعتبـار إطـار المنظـور الدينـي والمقـدس، ولم يتـح للمـؤرخ القـدرة عـلى كـسر حاجـز الديناميكيـة التاريخيـة المتعلقـة بطبيعـة هـذه الفـترة، أو بعيـدًا عـن دلالات ومضامـين الخـير والـشر، وقصـة الأمـة، وانتصـارات العـرب ودولـة الإسـلام، فهـذه المضامـين والـدلالات كانـت جـزءًا لا يتجـزأ مـن سرد (مثـالي)، سرد لـن يُتـاح للكتَّـاب المتأخريـن في عصـور مـا بعـد الـرواة إلا أن تقـرأ مـن خلالـه.

القرن الأول الهجري (بين هامش الحرية وزحزحة الأسطرة التاريخية)

كثير من المشاهد التاريخية الإسلامية في القرن الأول والبعيدة عن الواقعية أو المحتكرة لأنواع معينة من الشحن الديني والسياسي لشخصيات وزعامات وقيادات تُركت أخبارها دون تقرير من قبل المؤرخين[1] ، وربما كان تدخل المؤرخين والرواة والإخباريين التي جاءت في فترة متأخرة تحملنا على الاعتقاد أن مثل هذه الشخصيات كانت تمثل تجاوزًا للخطاب الإيديولوجي الملتفّ حول النص وتشكل متنفسًا وهامشًا للحرية (التاريخية) تلقت سهام النقد والانتقاد، هامشًا تم تحميله مساقات الفعل غير الديني، أو الفعل الذي لا يستند لأسس أخلاقية، أو تلك التي يكون "فك الارتباط" فيها أمرا متعذّرًا.

(1) محاولة تحديد واستيضاح أثر صنعة المؤرخين وتدخلهم في طبيعة المشهد المعطى والصورة المنتجة لهم، هو سبيل لكشف الصورة للفعل السياسي وطبيعة ممارساته الواقعية والمعقولة، وربما نذهب هنا للاتفاق في نقاط محددة مع رؤية البعض في "أن تصور موضوع ما، ما هو إلا تصور لما قد ينتج عن هذا الموضوع من آثار عملية، بل لربما يمكن اعتبار التاريخ نفسه وقدرة المؤرخين على استخلاص العظة والمبادئ والقيم الأخلاقية هي عملية براجماتية بالأساس؛ إذْ إن هذه الكتابة تقدم في النهاية – وبعيدًا عن الاعتبارات الأخرى – المنفعة المطلوبة من التدوين". ممن تبنو هذا التصور، وبشكل موسع تشارلز ساندرز بيرس (1839-1914)".

ولسنا في حاجة للقول إن النظر من المنظور الديني أو المثالي أو النموذجي (لحدث أو شخصية) لا يفيدا في استمرار المقاربات، ولا إدراك الحقائق، وأنه يحتاج إلى إعادة تقييم؛ لأنه واقع ولد أو على الأقل أسهم من خلال إسقاطاته ورواياته ونصوصه (الواسعة التداول اليوم) في جعل صورة التاريخ الإسلامي تاريخًا ممجدًا، تاريخًا طقوسيًّا، غير قابل للتحقق ولا الاستعادة.. تاريخ هو في الغالب امتداد للميتا – تاريخ النبوي، وتعبير عن الفترة الاستثنائية (فترة الخلافة الراشدة)، ولا سيما نموذجيها الأكثر مثالية (الخليفة أبو بكر، والخليفة عمر)، مرورًا بمرحلة (الحق الشرعي) ومعسكر الحق والباطل المتمثلة في فترة الصراع بين (علي ومعاوية)، وصولًا إلى الامتدادات الأخرى المتمثلة في محورة التاريخ وتوزيعه على خطأ وصواب الفرق والمذاهب والأحزاب، والحكم في أحقية السلالات (الأموية والعباسية) في السلطة من عدمها، حيث كانت صناعة الكتابة التاريخية الإسلامية، ولاتزال (في جزء موسع منها) منجذبة في إطار هذا الخط الدراماتيكي، بحيث كان على النص والرواية أن يكونا هما أيضًا بمثابة خطوط تدعم هذا النسق وتسير عليه.

إنها معضلة، مُعضِلة نشأة هذه الصورة الكلية، هذا المشهد المعقد والمتعدد التفاصيل والفسيفسائي بدرجة حادة، معضلة زحزحة الأسطرة عن شخصيات أخذت الجانب المقدس، وأفرغت الوقائع التاريخية من معقوليتها، وأنتجت أوديسا دينية مصطنعة، أوديسا ما زلنا نبحث عن أبطالها، أو ننتظر بعثهم من جديد.

البراجماتيون

فاعلية الحراك التاريخي

أم إسلام التاريخ؟

يَعُدُّ البعض البراجماتية بمثابة امتداد للفلسفات والمذاهب الوضعية والمادية، ومن ثَمَّ تتولد درجة عالية من الريبة حين يتم إطلاقها على أحد الشخصيات أو الزعامات الإسلامية لا سيما المبكرة منها، وربما يكون السؤال المنطقي، لماذا اختيار مصطلح البراجماتية (Pragmatism)؟ كتعبير عن سمة هذه الشخصيات التي أدارت عملية التغيير السياسي في هذه الفترة، فترة الإسلام المبكر أو فترة (إسلام الأصول)؟

إن الإجابة على هذا التساؤل يمكن أن يستجمعها القارئ على نحوٍ أو آخر في تطور طبيعة الأفعال والسياسات وعمليات التغيير التي كانت تجرى على يد هذه الشخصيات (المختارة)، فحينما نقول: "هذا الفعل براجماتي"، بالنسبة للشخصية فإننا نقصد أنه فعل لم يتقيد صاحبه بمنظومة أفكار ومبادئ أخلاقية أو سياسية ثابتة، أو بمعنى آخر لم تتقيد الشخصية بمنظومة أفكار (أيديولوجية) معينة، بل فقط التصرف وفق اللحظة، ووفق الظرف وطبيعة الواقع السياسي في تناقضاته المتعددة، وفق تصور واقعي تقوده خلفية المصالح المتحققة، أو وفق ما ينفع وما يضر الشخصية نفسها، أو ما ينفع ويضر المنظومة التي تعمل لأجلها سواء أكانت منظومة السلطة أم القبيلة أو الجماعة أم حتى منظومة المعارضة.

فالبرجماتيــة، بالنســبة لهــذه الشــخصيات، مثلــت منطلقًــا شــخصيًّا وليســت وحــدة قيــاس أو مصــدرًا ثابتًــا لإنتــاج المواقـف مـن الأحـداث، منطلـق يهـدف عمومًـا إلى العمـل الناجح بالنسـبة لتصوراتهــم ويخــدم مصالحهــم.

براجماتيــة هــذه الشــخصيات هــي (توصيــف) لاختيــار نــوع الفعــل أو" العمــل النافــع، أو المزاولــة المجديــة التــي مــن خلالهــا تخــدم الشــخصية نفســها ومنظومتهــا". ولا نســتثني مــن ذلــك أيــة منظومــة أو حــراك تاريخــي بــما في ذلــك الجهــاد / الفتوحــات / الســلطة / القبيلــة / المعارضــة، ومــا يدخــل في إطارهــم.

وعــلى الرغــم مــن أننــا لا نمتلــك أدلــة حاســمة عــلى أنــه يمكــن توقــع دوافــع أخــرى ومحــركات فعــل (خفيــة) لهــذه الشــخصيات؛ لــذا فليــس مــن المســتغرب القــول إن هــذا المصطلــح " Pragmatism " اســتخدمه البراجماتيــون أنفســهم في كتاباتهــم بشــكل حــذر، حتــى إن أحــد روادهــم[1] كتــب يقــول "عــليَّ أن أعــترف أن مصطلــح البراجماتيــة بــكل مــا يقترحــه مــن أفعــال كان اختيــارًا ســيئًا"[2]. مضيفًــا[3] أن نظريتــه التــي ســماها

(1)وليم جيمس William James.

(2)انظر رواد الفلسفة البراجماتية، تشارلز موريس، ص 28–29

(3)تشــارلز ســاندرس بــيرس كاتــب أمريكــي مــن أوائــل مَــن أدرجــوا المصطلــح Pragmatism في الفلســفة المعــاصرة، وأول مَــن اســتخدم هــذا اللفـظ عـام 1878 وذلـك في مقـال نـشره – في مجلـة Popular Science Monthly عـدد ينايـر تحـت عنـوان "كيـف نوضـح أفكارنـا أو كيـف نجعـل أفكارنـا واضحـة". انظـر "رواد الفلسـفة البراجماتيـة" تشـارلز موريـس، ص 5.

باسم Pragmaticism تعني "تحرر التصرف[1]".

إذن نتلمس من هذه العبارات أن الشخص الذي يتصرف وفق منطقية وواقعية يكون محور اهتمام بشكل خاص أكثر من غيره.

(1) ونتلمس هذا المعنى وبشكل واضح في أحد الصيغ التي وضعها تعريفًا للبراجماتية، والتي تدور حول أنه لكي يمكن التحقق من معنى التصور للتجربة، فيجب أن يتم تأمل النتائج العملية التي تنتج- إذْ إن هناك علاقة بين الفعل والخبرة.

نفس الوجوه

فأين الاختلاف؟!!!

ورد عن الطبري أن خالد بن الوليد قال: "لو لم يلزمنا الجهاد في الله والدعاء إليه، ولو لم يكن إلا المعاش، لكان الرأي أن نقارع عليه[1]".

المستغرب عند النظر للنص التاريخي عمومًا في أغلب مصادر وكتب التراث الإسلامي أنه حين يتحول الصراع ليكون بين أفراد الأمة أو أقطابها ورموزها الدينية والسياسية، كما حدث في (الفتنة - الجمل - صفين- كربلاء - الحرة) مثلًا، يتحتم على المشهد التاريخي أن يتحول هو الأخر ليعطي صورة من مشاهد الصراع لمصلحة الأمة، أو صراع المخطئ والمصيب - صراع من له أجر ومن له أجران - وبذلك فلن يكون مستغربًا بالنسبة للشخصيات المشاركة في الأحداث ظهور نصوص ومشاهد حادة ومشحونة، يختفي وراء ضبابيتها وتماهيها وارتباك تركيباتها التاريخ نفسه الذي صنعها.

على أنه وحينما كان يتحول الصراع مع غير أفراد الأمة كما هو الحال في حروب الفتوحات والغزوات، التوسع وضم

(1) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج4، ص9، راجع أيضًا: عبد الحكيم الكعبي، الدولة العربية في صدر الإسلام 12 قبل الهجرة - 40 هـ / 610 - 660 م، ص 117.

مزيد من الأرض للدولة الإسلامية والدفاع عن المقدسات والقيم والأخلاق الإسلامية حينها يتحول النص أو الرواية لرسم مشهد مغاير، مشهد مرتبط هو الأخر بالمخيال الجمعي للإسلام نفسه، إذْ يتحول الجميع (شخصيات، قيادات عسكرية، زعامات قبلية، أو حتى الأفراد العاديون المشاركون)، إلى أفراد تحميهم سلطتهم الدينية، وسلطة المقدس، أفراد تغطيهم قداسة انخراطهم في مشروع الأمة وأهدافه الأخلاقية، بل لربما تم إلباس هذه الشخصيات سَمْتَ الخيال المفرط، الذي يتداخل فيه الذاتي بالموضوعي، بل وفي حالات كثيرة الغيبي والأسطوري.

بالمقابل ، كان استحضار التاريخ للشخصيات والرموز البراجماتية في أجزاء ومشاهد منتقاة يتم فقط - لتحميل المسؤولية والإعداد لتلقي سهام الانتقاد أو التجريح، من خلال التركيز على دورهم في السعي نحو المغانم والمصالح، وإعادة التمترس القبلي وإنتاج الزعامات والعصبيات القديمة... إذن هي نفس الوجوه ونفس الشخصيات، بل وفي نفس الصراعات، فما الذي اختلف!!!

خارج إطار التقديس

شبث بن ربعي التميمي

أبو الأعـور السلمـي

عبـد الله بن خـازم

المهلب بن أبي صفـرة

صناعـة الصـورة المثاليـة عـن الإسـلام والمسـلمين الأوائـل بـما تتطلبـه مـن عـرض القيـم الدينيـة، والأخلاقيـة، والزهـد، والـورع، ومغالبـة الأهـواء، والإيثـار، وغيرهـا لهـذه الشـخصيات التـي تصنـع عمليـة التغيـير السـياسي وتقـوده. هـل غيـب الجانـب المـادي لتاريـخ الأمـة وخلـق لنـا فيـما بعـد أزمـة (المثاليـة) بـما يصحبهـا مـن وهـم تحققهـا، الوضـع الـذي أضـاع علينـا فرصـة التقييـم والمقارنـة والقـدرة عـلى التمييـز بـين الواقعـي والموضوعي والمنطقـي والمثـالي والأخلاقـي والنموذجـي، وأتـاح (في مرحلـة لاحقـة) توجيـه مزيـدٍ مـن الانتقـاد والاتهـام والتشـكيك في التاريـخ الإسـلامي، بـل وجعلنـا نحـن المؤرخـين العـرب وفي ظل تواجـد أسـئلة مثـارة حـول مصـادر التاريـخ الإسـلامي ومـدى مصداقيتهـا وسـلامة نقولاتهـا، نتوقـف فقـط للدفـاع ومحاولـة البحـث عـن مزيـد مـن المـبررات التاريخيـة لتقديمهـا للآخـر، سـواء تبريـرات مـا التصـق ببعـض المشـاهد مـن عـدم المعقوليـة والمنطقيـة والواقعيـة، بـل وربـما في حـالات كثـيرة نتوقـف لإثبـات صحـة وقوعهـا، وإثباتـه مـن الأسـاس.

إذن هــل يقودنــا الحفــر التاريخــي وراء هــذه الشــخصيات (الميتاتاريخيــة)[1] مــن القــرن الأول الهجــري - للكشــف عــن سوسـيولوجيا الحـراك السـياسي المنطقـي الـذي كان يحـدث وفـق تشـابك شـموليته وتلونـه بأبعـاد (القبـلي والسـياسي والدينـي) وأطيافـه، أم يكـون اسـتحضارهم بمثابـة تكريـس لهـذا الانفصـال وزيـادة في تعميـق هـوة الأزمـة بـين المثـالي والواقعـي!

هــل برجماتيتهــم هــذه قــادرة عــلى إزالــة ضبابيــة كثــير مــن المشــاهد الكامنــة في مصــادر التاريــخ الإســلامي، والإقنــاع أنهــم كانــوا منبــع أصيــلًا مــن منابــع الفاعليــة والتغيــير الســياسي المنطقــي لدولــة الإســلام ومحــركًا للأحــداث وصناعتهــا؟

وفيــما يتصــل بهــذه المســألة، تُعــدُّ المقاربــة التــي نحــاول توســيع فضاءهــا مــن خــلال القــراءة اللاحقــة للشــخصيات المذكــورة، هــي محاولــة - لا تخلــو مــن الاجتهــاد - لكنهــا في نفــس الآن ضروريــة؛ لأنهــا تســهم في فعــل اســترجاع حيــوي مــن الإبســتمولوجيات[2] الإســلامية وتحليــل متغــيرات المشــهد لمكونــات التطــور التاريخــي والقــراءة المنطقيــة لشــخصيات

---

(1) Metahistory / Meta بادئـة معناهـا أعـلى، مصطلح اسـتخدمه هنـري كوربان للتعبـير عـن مجموعـة مـن الأحـداث التاريخيّـة المُخْتَزَلَـة، التـي لا تأخـذ بعـين الاعتبـار تاريـخ الشـعوب؛ إذْ يخضـع التاريـخ لحتميـة لا تاريخيـة، وللتدخـل الغيبـي، هـذا التدخـل الـذي يرفـع بعـض الشـخصيات ليجعلهـا في مكانـه مقدسـة.

(2) الإبسـتمولوجيا L'épistémologie علـم يُعنـى بشـكل دقيـق بدراسـة مبـادئ العلـوم وفرضياتهـا دراسـة نقديـة تهـدف إلى تبـيِّن بناهـا ومنطقهـا.

وأحـداث هـذا القـرن (القـرن الأول الهجـري)- فإعـادة قـراءة مثـل هـذه النـماذج بشـكل بعيـد عـن السـياج وعـن السـياقات والمناهـج التقليديـة يسـهم في فتـح آفـاق جديـدة لفهـم حقيقـة ودوافـع السـيرورة التاريخيـة للمشـهد النهائـي الـذي سـجلته مصـادر التاريـخ المختلفـة منـذ القـرن الأول، وحتـى فـترات تاريخيـة قريبـة، لاسـيما أن الاعتـماد عـلى الرؤيـة الكلاسـيكية القديمـة أصبحـت قـاصرة عـن تقديـم تفسـيرات واقعيـة لأحـداث ومشـاهد مؤثـرة في تاريخنـا وتراثنـا الإسـلامي عمومًـا، وزخـم وتشـابك أحـداث القـرن الأول خصوصًـا، فالـرضى والقبـول بتقديـم تاريـخ الأمـة وتراثهـا وخاصـة مـا يتعلـق منـه بالدينـي والأخلاقـي وجعلـه وكأنـه تجربـة إنسـانية (مسـتثناة) مـن التجربـة البشريـة لباقـي الحضـارات والأمـم أصبـح جدليـة فاقـدة لحيويـة الحـراك، وتكريسًـا للانغـلاق[1]، جدليـة لـن تخلـق سـوى قطيعـة وعـدم قـدرة عـلى التواصـل مـع الأخـر، ففهـم مـا جـرى مـن عميـق التحـولات السياسـية الإسـلامية في القـرن الأول لـن يكـون فقـط مـن خـلال تصديـر مشـاهد الحـق والخـير، وحاكميـة النـص الدينـي وهالـة المقـدس والقداسـة والعصمـة، بـل يجـب فهمهـا مـن خـلال منطقيتهـا التاريخيـة، منطقيـة تدفـع للبحـث عـن مقاربـة يمكـن أن تُطـرح وتُناقـش في سياق الجـدل التاريخـي بـين "طبيعـة حـدود النـص الدينـي أو المثـالي ودوافـع، وأسـباب تشـكله وتأويلـه، وإعـادة بنـاء المشـهد الواقعـي والمنطقـي المقبـول، وطبيعـة التناقـض بينهـما".

(1) فضلًا عن العيش في عوالم الغيبيات والمعجزات، والخوارق.

الفصل

الأول

1

شبث بن ربعي التميمي

أم سلمة[1].. يا شبث... أيسب رسول الله ﷺ في ناديكم؟

شبث "إنا نقول شيئًا نريد عرض هذه الحياة الدنيا"[2].

(1) أم المؤمنين زوج النبي ﷺ.

(2) الرواية كما جاءت عند ابن عساكر في تاريخ دمشق، عن أبي إسحاق السبيعي قال: حججت أنا وغلام، فمررت بالمدينة، فرأيت الناس عنقًا واحدًا، فاتبعتهم فأتوا أم سلمة زوج النبي ﷺ، فسمعتها وهي تقول: يا شبث بن ربعي، فأجابها رجل جلف جاف لبيك يا أمة، فقالت: أيسب رسول الله ﷺ في ناديكم؟ فقال: إنا نقول شيئًا نريد عرض هذه الحياة الدنيا فقالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "مَن سب عليا فقد سبني ومَن سبني سب الله"، ج 42، ص 533.

شبث التميمي

حالة تاريخية مستقرة ... أم مشهد مصنوع؟

إلى جانب التدوين الانتقائيِّ لبعض الحوادث التاريخية، ظهرت وتشكلت في التراث التاريخي العربي الإسلامي شخصيات[1] اتسع بمرور الوقت إطارها لاستيعاب المواقف السياسية والدينية التي تأرجحت ما بين التبرير تارة، والشحن تارة أخرى؛ إذْ أصبح نقد المرويات الأصلية لمثل هذه النماذج وتفكيك بعض النصوص والمرويات التي علقت بها من ركام الخلط والانحياز تُشَكِّلُ ضرورة لفهم كيف كانت تتحرك وأسباب هذه الدوافع والتحركات، لا من منطلق التحول أو عدم الثقة... بل من أجل مزيدٍ من الفهم والخروج من دائرة التقديس والمثالية.

(1)وفي أحيان أخرى أضحت بعض النصوص المتعلقة بها بمرور الزمن (نصوص) راسخة يصعب خرقها.

تبرز شخصية "شبث بن ربعي التميمي"، في كتب التاريخ الإسلامي في فترة أعقَبت البدايات الأولى للعهد النبوي؛ لذلك ارتبطت هذه الشخصية بقضايا ومفاصل محورية كصفين، ظهور الخوارج، ومقتل الحسين، وذلك إلى حَدٍّ يمكن معه اعتبار هذه الشخصية من الشخصيات التي يمكن القياس عليها في التاريخ الإسلامي.

يقول معاوية بن أبي سفيان: "مضر كاهل العرب، وتميم كاهل مضر". وفي رواية أن صعصعة بن ناجية التميمي (جد الفرزدق) وفد على الرسول ﷺ فقال له الرسول، كيف علمك في مضر؟ قال: يا رسول الله، تميم هامتها وكاهلها الشديد الذي يوثق به ويحمل عليه. فقال الرسول ﷺ: صدقت.إذًا هي تميم القبيلة العربية الكبرى التي تحتل مركزًا مهمًّا في التاريخ العربي قبل الإسلام وبعده.

فشبث الذي كان يعايش - كما سنتبين ذلك - الحوادث والصراعات الكبرى والتناقضات في شكل فرص متتالية يمثل أنموذجًا يعزز تصوراتنا حول طبيعة هذه الشخصيات، فشبث - في واقع الأمر - من بين القيادات الإسلامية التي كانت ترى في تحدي السلطة تارة الطريق الأمثل لتحقيق طموحها، وإن استطاعت السلطة تقديم مميزات أفضل فسيكون الولاء إذًا ضرورة تقتضيها المصلحة، وفي كلتي الحالتين يتأسس الفعل على المصلحة المتحققة، وهو اتجاه ليس من الصعب تلمسه للكثير من القيادات والشخصيات في هذه الفترة.

شَبَثُ بن ربعي؟

يحيط الغموض -خاصة قبل إسلامه- بكثير من حياة شبث بن ربعي التميمي، كما لم يُسجل التاريخ أيضًا وعلى نحو دقيق شيئًا عن شخص شبث قبل انخراطه في الصراعات؛ إذْ ترد في بعض المصادر الإشارات والجمل المنقطعة عن نسبه وكنيته دون توسع، يرد أنه كان يكنى أبا عبد القدوس وينسب إلى حصين بن يربوع بن حنظلة من بني تميم، ويذكر أنه كانت لوالده سيادة في قومه منذ عهد الخليفة عمر بن الخطاب[1].

يصفه ابن أعثم الكوفي في كتابه (الفتوح)" جاهليًّا إسلاميًّا وفارسًا من أشراف بني تميم"[2]، ويؤكد آخرون كالنيسابوري أن شبث رأي أم سلمة زوج الرسول ﷺ[3] "أما ابن عساكر فترد له رواية في سياق حديث يتناول النهي عن سب علي بن أبي طالب، إذْ يقول أن أم سلمة قالت: "يا شبث بن ربعي.... فأجابها رجل جلف جاف لبيك يا أمة فقالت: "أيسب رسول الله ﷺ في ناديكم؟" فقال: "...إنا نقول شيئًا نريد عرض هذه الحياة الدنيا".

---

(1) يروي الطبري أن أباه "ربعي" جاء عُمَرَ في أناس من بني حنظلة، فأمره عليهم ورأس بعده ابنه شبث. الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج3، ص 464.

(2) ابن أعثم الكوفي، الفتوح، ص 266.

(3) الخركوشي، أبو سعد، شرف المصطفى، ج5، ص 503.

تستوقفنا هذه الرواية التي يشير مضمونها إلى أن شبثًا كان ضد عليٍّ في هذه المرحلة المبكرة، وأثناء الفتنة، وبفريق المطالبين بدم عثمان والاقتصاص من قتلته بمعنى أخر هو ينتمي لفريق (طلحة والزبير والسيدة عائشة رضى الله عنهم)، ذلك النص أو المشهد الذي يقرر معه صورة هذا الشخص وطبيعته يصف نفسه بدون مواربة "إنا نقول شيئًا نريد عرض هذه الحياة الدنيا" عبارة تنزع معها كل تبرير لدوره، باستثناء ما تدفعه إليه مصلحته الشخصية في هذه المرحلة.

لا تتناقض المصادر الأخرى مع ما سبق، فالذهبي يقول عن شبث في (سير أعلام النبلاء): "أَحَدُ الأَشْرَافِ والفرسان، وسيد بني تميم" لكنه يلحق هذا النص بقوله: " خَرَجَ عَلَى عَلِيٍّ، وَأَنْكَرَ التَّحْكِيْمَ، ثُمَّ تَابَ"[1] "قد يبدو في ثنايا رواية الذهبي هذه بعض التشدد؛ لأنه يمكن فهمها على أن الخروج على علي لا تعالجه سوى التوبة وهو ما يشير له بالقول: "ثم تاب" تاركًا لنا الوقوف مقابل تناقضات ومفارقات النصوص والروايات التي تجعل الخليفة معاوية نفسه مع عدد من كبار الصحابة ضد الخليفة علي!

أما أنساب الأشراف للبلاذري فنرصد لشبث فيه وصفًا شعوبيًّا - إذْ يقول عنه البلاذري "العلوي[2] الفارس

(1)هو والأحنف - الذهبي، سير أعلام النبلاء، ص79.

(2)البلاذري، جمل من أنساب الأشراف، ج2، ص 340.

الناسك"[1]، كما يرد خبر عن زوجته أن" الأبيرد بن المعذر الشاعر، كان يتعرض لها، الأمر الذي جعل أهلها (بنو عجل) يتوعدون الأبيرد إن أتاها أو تحدث إليها"[2]، رواية طريفة تدفعنا للتساؤل عن وجه الأهمية لربط صورة زوجته بمشهد كهذا، وهو مشهد لا يتناسب مع طبيعة المجتمع القبلي والعصبي ولا القيم الأخلاقية بفضاءاتها المتعددة، فهل كان ذلك جزءًا من السياق التاريخي، أم أنه مشهد انتقائي أُريد به تشكيل ورسم صورة ما للشخصية؟

ينقل ابن حجر رأي العجلي في تاريخ الثقات[3] أن شبثًا كان أول مَن أعان على قتل عثمان[4].

تبدو هذه الرواية أيضًا مبالغًا فيها ولم نجد ما يوافقها في مصادر أخرى، ولعلها لا تصمد أمام مزيد من البحث والتدقيق - ولاسيما أن شبثًا وإن جاء ضمن شخصيات أخرى تلطخ اسمها بهذا الحدث " كمحمد بن أبي بكر الصديق، وعروة بن البياع المصري، ومحمد بن أبي حذيفة،

(1)البلاذري، المصدر نفسه، ج12، ص162.

(2)لقد أوعدت بالعقر عجل مطيتي... وقد علموا أن ليس يفلح عاقره، انظر القصيدة التي رد بها الأبيرد على ذلك، البلاذري، جمل من أنساب الأشراف، ج12، ص 156.

(3)ذكر العجلي "شبث بن ربعي من تميم، كان أول مَن أعان على قتل عثمان". العجلي، تاريخ الثقات، ص 214.

(4)ابن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، ج3، ص 303.

وعمير بن ضابئ، وحكيم بن جبلة العبدي، وكنانة بن بشر، وعبد الرحمن بن عديس، وصعصعة بن صوان، وعبد الله بن سبأ، وزيد بن صوحان، وكميل بن زياد، وكعب بن ذي الحبكة، وجندب بن زهير، ومالك بن الحارث الأشتر النخعي، وعروة بن الجعد، وخالد بن ملجم، والغافقي بن حرب، وعبد الله بن بديل، وعبد الرحمن بن بديل، وعمرو بن الجمق "إلا أن ذلك لا ينهضُ دليلًا على أنه كان أولهم في التحريض على مقتل عثمان بن عفان[1].

هنا يُطرح السؤال: كيف لهذا النص أن يتوافق إذًا مع هذه المواجهات الدينية التي سيكون شبث نفسه طرفًا فيها لاحقًا، فهذا النص الفائق الخطورة، والذي يصفه بأنه من رؤوس الفتنة، بل ويحدد أنه أول مَن أعان على قتل عثمان..... يضعنا مباشرة أمام تساؤلات صعبة؛ لأنه في حال كان هذا صحيحًا فإن ذلك يجعل كل مَن استخدم شبثًا بعد مقتل الخليفة عثمان في موقف صعب، كيف وهم المطالبون بدم عثمان (طلحة والزبير)، وكيف وهو أحد قادة (الخليفة علي) المطَالب الرئيس لأخذ القصاص من قتلة الخليفة عثمان! هنالك إذًا ضرورة لفهم السياق التاريخي لأسباب مرور هذا الاتهام بالنسبة لشبث تلك الجريمة التي قادت فيما بعد لأشد معطيات الفوضى في دولة الخلافة الراشدة... لماذا!!

ويبدو أن ابن حجر كان مهتمًّا بشخص شبث ؛ إذْ حاول

(1)عثمان الذي يمثل سلطة الدولة في مواجهة معارضة تمثل سلطة الجماعة.

في كتابـه (تقريـب التهذيـب) أن يرصـد مختلـف فـترات حياتـه – وإن كان باختصـار في النصـوص؛ فذكـر أن شـبثًا أدرك الجاهليـة، وأنـه أسـلم، ثـم أصبـح مؤذنًـا لسـجاح التميميـة[1]، صحـب عليًّـا، ثـم صـار مـن الخـوارج، ثـم تـاب، حـضر قتـل الحسـين، طلـب بدمـه مـع المختـار الثقفـي، وولي شرط الكوفـة[2] وكان أحـد رؤسـائها[3]، وحـضر قتـل المختـار، ومـات بالكوفـة[4]. ومضـات وإن بـدت شـحيحة في ألفاظهـا ونصوصهـا إلا إنهـا موسـعة في مضمونهـا الـذي يـشي بشـخصية تاريخيـة فاعلـة عـبر تاريخهـا.

وربـما تقـود الملاحظـة إلى أنـه ومنـذ صراع الفتنة سـيتضخم دور شـبث، ويتكثـف حضـوره في مشـاهد كثـيرة، يكـون طرفًـا فيهـا، لـذا كان المؤرخـون مدفوعـون للبحـث لـه عـن سـيرة مـا قبـل هـذه الحـوادث، تعالـج الظهـور والزخـم الواضحـين لـه في هـذه المشـاهد التاريخيـة المفصليـة (الفتنـة – صفـين- مقتـل الحسـين).

لكـــن، واســـتنادًا لمـــا هـــو مرصـــود، فالواقـــع يقـــول إن المعلومـات التاريخيـة عـن تطـور الشـخصية ظلـت لا تناسـب حراكهـا ودورهـا في الصراعـات، قياسًـا أيضًـا بحضورهـا القـوي في الأحـــداث اللاحقـــة.

---

(1) وقـد أسـلمت هـي أيضًـا أيـام عمـر بـن الخطـاب، فحسـن إسـلامها، ابـن كثـير، السـيرة النبويـة، 4ج، 97ص.

(2) البلاذري، جمل من أنساب الأشراف، ج7، ص9.

(3) الدينوري، الأخبار الطوال، ص 229.

(4) ابن حجر، تقريب التهذيب، ج1، ص263؛ ج4، ص304.

شبث وسجاح

ترميز ومقابلة

لم يخلُ التاريخ الإسلامي من الحرص عند تناوله لشخصية مؤثرة أو صانعة لحدث ما بانتقاء واستعادة الخبر الذي يخدم ويبرز دور هذه الشخصية... يتعلق ذلك بشكل خاص بالشخصيات المحسوبة على معسكر الخير ومرتكزاتها التاريخية.

حيث كان المؤرخون أو الرواة يتعاملون مع هذه الروايات بحرص وحذر، لكن يبدو الأمر مختلف في حالة شبث، فأمام شبث لا نصوص أو روايات تتعلق بالنشأة أو البدايات الأولى وطفولته، أيضًا تم ربطه مبكرًا بشخصيةٍ نموذجيةٍ بالنسبة لصناعة الشر (سجاح التميمية) التي قدمت نفسها هي الأخرى في الوسط القبلي من باب الدين (ادعاء النبوة)، حيث يقول البلاذري: "يقال إن شبثًا كان مؤذنًا لسجاح قبل رسوخه فِي الإسلام[1]" فهل كان الربط يوحي بأنَّ ثمَّة تشابهًا في المصالح والدوافع والأهداف سيقوم بين الطرفين؟

ربما في هذا المستوى تحديدًا يتكشف الظهور الأكثر إثارة لشبث في سياق مسببات القدرة على الفعل السياسي، فسجاح زوجة مسيلمة (كذاب ربيعة الذي لم يكتفِ بتقديم نفسه من باب النبوة، بل وأيضًا كقائد حربي) هو أحد رموز الشر المطلق في الرواية التاريخية الإسلامية - وفي واقع الحال

(1) البَلاذُري، جمل من أنساب الأشراف، ج12، ص 162.

تبدو مقابلة ارتباط صورة (شبث) بصورة سجاح من قبيل المقابلة الذاتية للشخصيتين، (ترميز تاريخي مغلف)، تظهر من خلالها محاولة لتسجيل عملية توافق بين الشخصيتين. فالرواية المرتبطة بذهن القارئ ستفترض حتمًا أن مَن سيقف مع سجاح هو طرف مغاير للحق ناقد للعهد متسم بالشر ومنحاز له؛ لذلك لم تأخذ الرواية هنا زاوية المبررات المنطقية وبقايا البنى التّقليديّة للاصطفاف القبلي، تلك التي يمكن فهمها منطقيا أو واقعيًّا من قبل شبث؛ إذ أن شبث من بني تميم (أبناء عمومة)[1] وأحد زعمائها، بما تتيحه هذه الحركية من امتداد نخبوي منسوج لتاريخ الآباء والأجداد غير البعيد، هناك أيضًا معطى آخر يتصل بمحاولة شبث (مثله مثل كثير من الزعامات القبلية في هذا الوقت) بالتحرر السياسي والاستقلال عن سلطة مركزية رأى أنها اهتزت بموت الرسول - ونقصد بها سلطة دولة المدينة وخلافة أبي بكر - وما أحاط بها في البدايات الأولى من ارتداد قبلي واسع النطاق، فشبث في هذه المرحلة - ومع طبيعة التكوين الفكري والثقافي لمثل هذه القيادات القبيلة - كان عليه تسويق نفسه سياسيًّا، وربما أيضًا تطوير مواقفه مما يجري من أحداث تعيد رسم وجه الجزيرة العربية من جديد.

---

(1) بنو رياح: كان منهم شبث بن ربعي بن حصين بن عميم بن ربيعة بن زيد ابن رياح كما يذكر ابن خلدون في: ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومَن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، م2، ج2، ص379.

حتى وإن بدا لنا أن شبثًا هنا لم يكن يفكر بمنطلق أعلى من كونه زعيمًا قبليًّا داخل قبيلته وسيدًا من أسيادها، فالسؤال المطروح هل بعد ارتداد تميم وكثير من القبائل الأخرى في الجزيرة العربية كان من المقبول أن يفوت شبث على نفسه فرصة إعادة التموقع بوصفه زعامة فاعلة في عملية التغيير السياسي التي جرت على مستوى القبيلة حتى وإن اقترنت بمحدد أقوى زخمًا وحراكًا منه وهو سجاح ابنة عمومته؟

لا نرى طريقًا لتبرير موقف شبث دون اعتبار طبيعة تناحر المصالح وواقعه الذي اكتسى به الصراع في هذه الفترة، وظاهرة "عودة القبيلة" إلى حقل الفعل السياسي والاجتماعي، والتي استطاعت أن تكون لنفسها رافدًا قويًّا ومتناغمًا مع بقية المحددات الأخرى التي صاغتها ظروف الارتباك السياسي الحاصل بعد وفاة الرسول ﷺ. ولاسيما أن وفاة الرسول ﷺ طرحت وعلى نحو مباشر على الجميع حقيقة ربما كانت غائبة، وهي مسألة الحفاظ على الدين والدولة تلك المسألة التي لو تم تجاهلها، فلربما اندثر كل شيء.

كذلك لا يمكن فهم هذا الموقف سوى في سياق النظر إلى سلطة سجاح التميمية، التي كانت تمثل بالنسبة لشبث غطاءً مقنعًا بالنسبة له وللكثيرين من أمثاله، غطاء يختفي خلفه (وهم) استنساخ مشروع المدينة النبوية الناجح - نبوة ومن ثَمَّ سلطة، مشاريع توسعية وفتوحات، سلطات، أكبر ومزيد من القدرة على الفعل والتغيير السياسي.

إن هـذه المرحلـة الانتقاليـة بالـذات، ربـما تكـون بـدت لشـبث أحـد الثغـرات والفـرص المثاليـة التـي يمكـن النفـاذ منهـا سياسـيًّا، وذلـك عـبر تسـويق زعامتـه والالتحـاق بتجربـة دينيـة منطلقـة مـن قبيلتـه نفسـها، فسـجاح هـي الانبعـاث الجديـد وتجربـة التدويـر القبـلي لرمزيـة المدينـة ومكـة اللتـين احتضنتـا العهـد النبـوي، وبمـوت الرسـول ﷺ كان عـلى السـاعين لسـلطة اتخـاذ الخطـوات نفسـها إن أرادوا استنسـاخ سـلطة كسـلطة المدينـة الناجحـة وتوظيـف هـذا المعطـى عـلى ضـوء مـا تـمّ صياغتـه فيهـا.

بـل ويبـدو للمراقـب أن تمظهـرات الحـراك في الخطـاب والمواقـف والـذي اتخـذ لبوسـات عديـدة، مارسـتها كثـير مـن القيـادات والزعامـات القبليـة كانـت تسـير هـي الأخـرى في نفـس الاتجـاه، حتـى إن مقولـة كمقولـة "كـذاب ربيعـة أحـب إلينـا مـن صـادق مـضر[1]" نفسـها، وعـلى الرغـم مـن ورودهـا بتوسـع في بعـض الروايـات، ومحاولـة ربطهـا وفهمهـا تاريخيًّـا في السـياق القبـلي، لا تخـرج عـن كونهـا شـكلًا مـن أشـكال التغييـب التاريخـي لبراجماتيـة النـص، تغييـب غايتـه تجـاوز الواقـع والمنطق،

(1) عـن عمـير بـن طلحـة النمـري، عـن أبيـه، أنـه جـاء اليمامـة، فقـال: أيـن مسـيلمة؟ قالـوا: مـه رسـول الله! فقـال: لا، حتـى أراه، فلـما جـاءه، قـال: أنـت مسـيلمة؟ قـال: نعـم، قـال: مَـن يأتيـك؟ قـال: رحمـن، قـال: أفي نـور أم في ظلمـة؟ فقـال: في ظلمـة، فقـال: أشـهد أنـك كـذاب وأن محمدًا صـادق، ولكـن كـذاب ربيعـة أحـب إلينـا مـن صـادق مـضر، فقتـل معـه يـوم عقربـاء. انظـر: الطـبري، تاريـخ الرسـل والملـوك، ج3، ص 286.

فكاذب ربيعة أو نموذج (مسيلمة بتعبير أدق) لو نجح - في أي قبيلة أو منطقة - فإن ذلك سيعود على قبيلته بمكاسب مادية وسياسية واسعة، في المقابل، فإن صادق مضر بمقاييس الربح والخسارة (القبيلة) هو لمضر لا ربيعة.

إن محاولة فهم لماذا لجأ شبث لدعم سجاح التميمية وارتباطه بها، بل وكان كما يرد في الروايات والنصوص "مؤذنًا لها" كما جاء في رواية الطبري من أن مسيلمة قال لها: "مَن مؤذنك؟ قالت: شبث بن ربعي، قال: عليَّ به، فجاء فقال: نادِ في أصحابك أن مسيلمة بن حبيب رسول الله قد وضع عنكم صلاتين مما أتاكم به محمد: صلاة العشاء الآخرة وصلاة الفجر".

سياق لا يمكن فصله عن حقيقة معطى قائم وهو أن شبثًا كان يعي أن سجاحًا في تلك الفترة هي المشروع المناسب القادر على منحه - وفي ظل هذا الزخم الهائل من القيادات والشخصيات والزعامات الدينية والقبلية - غطاءً سياسيًّا يستطيع به الاستمرار في طبيعة وضعه المستمد من نخبويتيه[1] (ابن لسيد قومه)[2] ولاسيما اجتماع جزء كبير من قبائل تميم على أمر سجاح كما يشير أبو المعالي البغدادي[3]،

---

(1) فالحفاظ على هذا الوضع النخبويّ لاشك مرتبط بأن يدور في فلك سلطة معينة (سياسية أودينية).

(2) الدينوري، المعارف، ط2، ج1، ص 405.

(3) ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، ج7، ص349.

فتموقع شبث في هذا الدور البارز سيشكل له وفي أية فرصة لاحقه أرضية يمكن الاستناد إليها، بل وعلى أسوأ الظروف وإن تعذر تحديد المنافع والمصالح، فإن ارتباطه بسجاح من شأنه أن يضعه في مشهد مؤثر وقريب من دوائر صناعة القرار والمشاركة فيها، وهو تكَيُّف إن جرت قراءته بمنأى عن التأويل الديني يبدو لنا تَكَيُّفًا مقبولًا، تَكَيُّفًا يعكس قدرة على التأقلم والبناء اعتمادًا على خبرة في نسج شبكة تحالفات وخلق الفرص.

(الاهتياج التاريخي)

للصراع على السلطة

لا يمكن بأي حال من الأحوال أن نغفل أثر التكوينات القبلية التي شكّلت ثقافة كثير من الزعماء القبليين منذ ظهور الإسلام وبعده، فلقد قادت الأوضاع الملتهبة- التي تعززت بعد مقتل الخليفة عثمان بن عفان، واستمرت طوال ولاية الخليفة علي، أن أصبح الصراع على السلطة مؤثرًا وحاكمًا في الأحداث والمواقف وبقية الهياكل الأخرى، فمع أفول العهد النبوي بوفاة الرسول ﷺ، وبدء القيادات القبلية بالبحث عن سلطة سياسية/ دينية تعوض فقد نموذجها المثالي، وفي ظل السعي للمحافظة على المواقع النخبوية للبعض، كان يمكن بسهولة إدراك أن هذا التحول لن يكتمل إلا إذا دار بالضرورة في فلك سلطة مركزية قوية، بل لم يكن الخليفة الأول والخليفة الثاني أبو بكر وعمر[1] يجهلان التململ الكامن بين هذه القيادات القبلية والصراعات التي اتخذت منحًى سياسيًّا/ قبليًّا مرات عديدة، خصوصًا أن القبيلة في هذه المرحلة استطاعت الحفاظ على كيانها كبنية مؤثرة في تأطير الأفراد والجماعات المنتمية لها لاسيما في مناطق الصراع، فقد كرَّست تلك التجاذبات هذا النمط، وقادت إليه على نحو متسارع، فعلى الرغم من أن شيئًا لم يظهر كمشارك في معارك

(1) رغم مرحلة الهدوء في خلافة أبي بكر - باستثناء حروب الردة التي أخمدها.

الفتوحـات، ولا الصراعـات التـي جـرت بعـد وفـاة الرسـول، ولم يظهـر تاريخيًّـا بـدور مؤثـر باسـتثناء مـا قـام بـه في محيـط سـجاح، إلا إن المتمعـن في تطـور الحـراك للشـخصية يسـتطيع أن يستشـف أنهـا كانـت تـرى في التمـترس حـول قبليتهـا وعصبيتهـا مـلاذًا آمنًـا لاسـتمرار الزعامـة التـي ورثتهـا في قومهـا، حيـث نتبـين مـن خـلال إحـدى الروايـات التـي ذكرهـا (المـزي) كيـف كانـت ردة فعلـه عـلى الوليـد بـن عقبـة لمـا حيـل بـين عَبْـد الرَّحْمَـنِ بْـن حُبَيْـشٍ الأَسَـدِيّ، قائـد شُرْطَـةِ الوليـد وبـين المتهـم بقتـل أحـد السـحرة، تقـول الروايـة: "قَـامَ مِخْنَـفُ بْـنُ سُـلَيْم فِي رِجَـالٍ مِـنَ الأَزْدِ، فَقَالُـوا: أَيُقْتَـلُ صَاحِبُنَـا بِعِلْـجٍ سَـاحِرٍ، لَا يَكُـونُ هَـذَا، حينهـا قـال الْوَلِيـدُ: عَـلَيَّ بِمُـضَرَ؛ ليعاجلـه شَـبَثُ بالقـول: "لم تـدعُ مـضر! تُرِيـدُ أَنْ تَسْـتَعِينَ بمـضر عـلى قـوم منعـوا أخاهـم منـك أن تقتلـه بعلـج سـاحر كافـر مـن أهـل السَّـواد! لا تجيبـك والله مـضر إلى الباطـل، ولا إلى مـا لا يحـل!"[1]. ردة فعـل عصبيـة بامتيـاز مـن قيـادة قبليـة لازالـت تـرى نفسـها في موقـف الزعامـة حتـى وإن جـرى تهميشـها وتحييـد طبيعـة دورهـا السـياسي.

كذلـك ربـما يكـون النـص الواصـل لنـا بواسـطة سـيف بـن عمـر في كتابـه (الفتنـة ووقعـة الجمـل)، مـن أقـدم النصـوص التي أشـارت لـدور شـبث في الـصراع بعـد مقتـل عثـمان، إذْ يـرد "أن أحدهـم أقبـل ووقـف ببـاب المسـجد، ومعـه كتابـان مـن عائشـة رضي الله عنهـا، حيـث كان رد أحدهـم لمـا تليـت الكُتـب بالقـول:

(1)المزي، تهذيب الكمال في أسماء الرجال، ج5، ص146.

"أمـرت أن تقـر في بيتهـا، وأمرنـا أن نقاتـل حتـى لا تكـون فتنـة، فأمرتنـا بـما أمـرت وركبـت مـا أمرنـا". حينهـا قـام إليـه شـبث بـن ربعـي قائـلًا: يـا عـماني مـا أمـرت إلا بـما أمـر الله[1].

إن هــذا التحــول السريــع في موقــف شــبث، والــذي كان ســابقًا ضــد سياســات عثــمان وولاتــه، وليصبــح لاحقًــا مــع السـيدة عائشـة، لا يمكـن فهـم طبيعـة تطـوره مـن خـلال الدوافع الدينيـة المجـردة التـي لا يمكـن تحقيقهـا أو الحصـول بواسـطتها عـلى فائـدة فوريـة بـأرض الواقـع، بـل إن مخاطبـة شـبث للعـماني الـذي رد عـلى كتـابي عائشـة لم يكـن منفصـلًا عـن واقـع الخطـاب العــام المــبرر لهــذه التوجهــات الجديــدة للكثــير مــن القبائــل والزعامـات تلـك التـي أصبحـت تـرى في الفتنـة فرصـة مناسـبة للــبروز مــن جديــد، وشــبث بــما لديــه مــن رصيــد ســياسي لــن يكـون منفصـلًا عـما يجـري مـن أحـداث. فرؤيتـه لهـذا التحالـف القائــم بــين عائشــة وطلحــة والزبــير بالإضافــة لمعاويــة القــوي في بــلاد الشــام. وهــذا الزخــم والاحتشــاد العصبــي والقبــلي والدينـي والسـياسي وتمثيلاتـه التطبيقيـة والنفعيـة التـي لا تنفصـل عـن هـذا الـصراع، كل هـذا جعلـه يـدرك ضرورة صياغـة توجـه جديـد لهـذه المرحلـة.

---

(1)سيف بن عمر الأسدي التَّمِيمي، الفتنة ووقعة الجمل، ص141.

وعليه بعد هزيمة طلحة والزبير في الجمل[1] لم يكن من المستغرب أن ينضم شبث للمعسكر المنتصر، وحين بروز دوره في مناوشات صفين[2] هو يمثل أحد المبعوثين الذين كلفهم علي بن أبي طالب[3]، بالتوجه إلى معاوية بن أبي سفيان؛ إذْ يقول الطبري: "أن عليًّا دعا شبثًا مع آخرين؛ للذهاب لمعاوية ودعوته للطاعة"، هنا تحديدًا تظهر المصادر - وبدون قصد من أصحابها- درجة عالية من البراجماتية السياسية التي ميزت شبثًا؛ إذْ يجيب شبث الخليفة علي قائلًا: "يا أمير المؤمنين، ألا تطمعه في سلطان توليه إياه، ومنزلة يكون له بها أثرة عندك إن بايعك[4]؟

هكذا إذن تلجأ النخب السياسية لتهدئة الصراع عبر ممر المصالح (الصراع المتوازن)، ففي سعيه لإرساء عنوان نموذجي لتنهيج طبيعة دوره البراجماتي الذي يتحرك من خلاله أدرك شبث أنه وفي ظل مستوى التحولات السياسية

---

(1) يرى البعض أن شبثًا كان مع علي في الجمل، وهو قول يتعارض ويتصادم مع كثير من النصوص التي لا تثبت له دورًا في معركة الجمل والمشاركة العسكرية فيها؛ إذْ يقول البري: "شَهدَ جدُّهُ شبث مع عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الجمل وصفِّينَ ثم فارقه حين التَّحكيم". انظر الجوهرة في نسب النبي وأصحابه العشرة، البُرِّي، ص 177.

(2) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج4، ص -573 ج5، ص5.

(3) ابن أعثم الكوفي، الفتوح ج3، ص5/ 20.

(4) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج 4، ص 573، أيضًا، ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ج2، ص 636.

الخطـيرة التـي تجـري، فـإن ذلـك يسـتدعي ضرورة ربـط الحلـول والمسـاومات التـي تقـدم بتطبيقـات عمليـة، تطبيقـات يـرى معهـا أن الذهــاب لمعاويــة ودعوتــه بالدخــول في الطاعــة دون مزايــا وعــروض أمــر غــير مقبــول منطقيًّــا، وعليــه فلابــد مــن جعــل المفاوضــات التــي ســيكون هــو طرفًــا أصيــلًا فيهــا مخلوطــة بمصالــح ترتقــي لمســتوى القبــول والإقنــاع.

ترصـد المصـادر لقـاء شـبث العاصـف مـع معاويـة الـذي "تكلــم متهــمًا فيــه معاويــة...، لــيرد الأخــير... واصفًــا إيــاه بالأعـرابي الجلـف الجـاف... ومـن ثَـمَّ يـصرف الوفـد في موقـف هــو أقــرب للطــرد؛ إذْ يخــرج شــبث مهــددًا ومتوعــدًا بالقــول: "أقســم بــالله ليعجلــن بهــا إليــك"[1] وفي روايــة لابــن أعثــم الكــوفي يقــول شــبث: "يــا معاويــة! لقــد أتينــاك فيــما يصلحنــا وإيــاك، فــصرت تــضرب لنــا الأمثــال التــي لا ينتفــع بهــا أحــد".

إن المفارقـة هنـا ليسـت في وصـف شـبث بأنـه أعـرابي جلـف مـن قبـل معاويـة، فبعـد روايـة ابـن عسـاكر لشـبث مـع أُمِّ سَـلَمَةَ

(1) الطـبري، تاريـخ الرسـل والملـوك، ج4، ص 575، وربـما مـن الجديـر بالذكـر هنـا أن نـورد النـص الـذي رد بـه معاويـة عـلى رسـل عـليٍّ بـن أبي طالـب؛ إذْ جـاء عنـد الطـبري أن معاويـة قال: "أمـا الطاعـة لصاحبكم فإنـا لا نراهـا، إن صاحبكـم قتـل خليفتنـا، وفـرق جماعتنـا، وآوى ثأرنـا وقتلتنـا، وصاحبكـم يزعـم أنـه لم يقتلـه، فنحـن لا نـرد ذلـك عليـه، أرأيتـم قتلـة صاحبنـا؟ ألسـتم تعلمـون أنهـم أصحـاب صاحبكـم؟ فليدفعهـم إلينـا، فلنقتلهـم بـه، ثـم نحـن نجيبكـم إلى الطاعـة والجماعـة". الطـبري، تاريـخ الرسـل والملـوك، ج5، ص 5.

زَوْجِ النَّبِـيِّ ﷺ ووصفـه بأنـه "جلـف جـاف"، يـأتي نفـس الوصـف أيضًـا عنـد الطـبري بأنـه "أعـرابي جلـف".

تتمثـل المفارقـة في أن شـبثًا الـذي جعلتـه المصـادر ناطقًـا باسـم الخليفـة عـلي، مـع كل الـدور الـذي حظـي بـه في هـذه المرحلـة، أصبـح يتكلـم بمسـتوى عـالٍ مـن الواقعيـة والنفعيـة السياسـية، ففـي روايـة ابـن أعثـم الكـوفي كان جوابـه: "أتينـاك فيـما يصلحنـا وإيـاك، فـصرت تـضرب لنـا الأمثـال التـي لا ينتفـع بهـا أحـد". وفي روايـة أكثـر حـدة وتأخـر تـرد عنـد ابـن خلـدون يُـرى فيهـا تلميـح يرقـى ليكـون اتهـام صريحًـا مـن شـبث لمعاويـة بأنـه أبطـأ المسـير لنجـدة عثـمان بـن عفـان؛ إذْ يقـول: "يـا معاويـة إنـما طلبـت دم عثـمان تسـتميل بـه هـؤلاء السـفهاء العظـام إلى طاعتـك، ولقـد علمنـا أنـك أبطـات عـلى عثـمان بالنـصر لطلـب هـذه المنزلـة فاتـق الله ودع مـا أنـت عليـه ولا تنـازع الأمـر أهلـه. فأجابـه معاويـة... انصرفـوا فليـس بينـي وبينكـم إلّا السـيف"[1] ونسـتكمل بقيـة المشـهد مـن خـلال مـا رواه الطـبري مـن قـول شـبث لمعاويـة: "أقسـم بـالله ليعجلـن بهـا إليـك"، لا صعوبـة في أن نلحـظ المشـهد الحـاد والارتفـاع في سـقف الاتهـام بـين الطرفـين، والحسـم في التكاتـف مـع الخليفـة عـليٍّ وتأييـده لأبعـد مـدى، والـذي يتمثـل في الاقتتـال.

---

(1) تاريـخ ابـن خلـدون، ديـوان المبتـدأ والخـبر في تاريـخ العـرب والبربـر ومَـن عاصرهـم مـن ذوي الشـأن الأكـبر، أمـر صفـين، الجـزء 2، ص 627.

إن المنطقيـة والواقعيـة العاليـة التـي تميـز بهـا النصـف الأول مـن روايـة الطـبري والتـي قـدم فيهـا شـبث ممارسـة سياسـية مقبولـة، وسـعى مـن خلالهـا إلى تغليـب العقلانيـة والواقـع عـلى لغـة المثاليـة وشـعوره بـضرورة أن تكـون هنـاك عـروض ومكاسـب نفعيـة مـن قبـل الخليفـة عـلي لمعاويـة... نراهـا تنتهـي عـلى نحـو حـادٍّ بقسـم تأكيـدي للحـرب.

ولكـي نفهـم الفـرق بـين هـذا التناقـض وبـين مـا طرحـه شـبث عـلى الخليفـة عـلي مـن وجـوب تقديـم عـروض، وبـين مـا نفـذه عـلى أرض الواقـع نسـجل الآتي:

في الحالـة الأولى (ونقصـد روايـة الطـبري) يقـدم شـبث استشـارة لعلهـا تنفـع القيـادة السياسـية، ولكـن حـين رفضـت القيـادة السياسـية ذلـك، وأرادت أن تقـدم صـورة حازمـة، وإظهـارًا لقوتهـا كسـلطة مركزيـة؛ اندفـع شـبث مـن نفـس منطلـق السـلطة ليمثـل في رده عـلى معاويـة وتهديـده بالحـرب رؤيـة السـلطة ذاتهـا، ولا غـرو في أن هـذا الموقـف الـذي يعكـس موقـف السـلطة نفسـها؛ إذْ عـبر شـبث بأنـه قـادر عـلى امتـلاك نفـس تصورهـا وتمثيلهـا أفضـل تمثيـل.

(بعد صفين)

تمرد بطعم الانتصار!!

بعـد الأحـداث المتسـارعة والتداعيـات "المأسـاوية"، التـي شـهدتها الأمـة في الملحمـة الكـبرى التـي مثلتهـا معركـة صفـين[1] ومـع غيـاب نـصر حاسـم لطـرف عـلى الآخـر[2] أسـهم هذا بشـكل مبـاشر في جعـل التحـولات لاحقًـا لصالـح ظهـور مـد سـياسي اقتصـادي اجتماعـي، فمـع ظهـور عوامـل تبـدل في المصالـح المتناميـة الجديـدة لـكل الأطـراف، وتشـكل فئـات العقائديـين الجـدد (الخـوارج) قبـل حتـى أن يبـدأ التحكيـم، يُضَـاف إلى كل

---

(1) كان القتـال عـلى شـكل كتائـب صغـيرة، وكان أغلـب مَـن يخـرج مـن أمـراء الكتائـب في جيـش عـليٍّ: الأشـتر النخعـي، وحجـر بـن عـدي، وهاشـم بـن عتبـة، وشـبث بـن ربعـي، وخالـد بـن المعتمـر، ومعقـل بـن يسـار الرياحـي، في المقابـل مـن جيـش معاويـة كان هنـاك حبيـب بـن مسـلمة، وشرحبيـل بـن السـمط، وعبـد الرحمـن بـن خالـد بـن الوليـد، وأبـو الأعـور السـلمي، وهكـذا كانـت البدايـات الأولى للمعركـة، التـي يمكـن أن نطلـق عليهـا اسـتعراض القـوة قبـل الاشـتباك الـكلي.

(2) يذكـر ابـن أعثـم "دعـا عـليٌّ بشـبث بـن ربعـي الرياحـي وصعصعـة بـن صوحـان العبـدي فقـال لهـما: انطلقـا إلى معاويـة فقـولا لـه: إن خيلـك قـد حالـت بيننـا وبـين المـاء، فـإن شـئت فخـلّ عـن المـاء حتـى نسـتوي فيـه نحـن وأنـت، وإن شـئت قاتلنـاك عليـه حتـى يكـون لمـن غلـب وتركنـا مـا جئنـا لـه مـن الحرب،أقبـل شـبث فقـال: يـا معاويـة! إنـك لسـت بأحـق بهـذا المـاء منـا فخـلِّ عـن المـاء، فإننـا لا نمـوت عطشـا وسـيوفنا عـلى عواتقنـا– ابـن أعثـم الكـوفي، الفتـوح، ج3، ص 5.

هـذا أصحـاب المصالـح التقليديـون. في خضـم كل هـذه التحولات كان مـن المحتـم أن تختلـط الأوراق بـل وتتداخـل الحـدود.

أمـا شـبث فقـد كان مضطـرًّا هـو الأخـر لإعـادة تقييـم طبيعـة وضعـه ودورة الجديـد، فمـن خـلال النظـر إلى النتائـج العمليـة الموجـودة بعـد المعركـة، (التـي سنسـتعرض لاحقًـا وعـلى نحـوٍ موسـع بعضًـا مـن تفاصيلهـا)، إلا أن مـا يعنينـا هنـا هـو التأكيـد عـلى أن شـبثًا قـد أعلـن عـن موقفـة مبكـرًا بعـد وقـف القتـال... أنـه... ضـد الخليفـة عـلي.

ويبـدو أن المصالـح المشـتركة لشـبث - والتـي سبق وأن ولَّدها انتصـار الخليفـة عـلي في الجمـل - ومـن ثـم ومـع غيابهـا بعـد صفين التـي خـرج منهـا الخليفـة بواقـع أقـرب للخسـارة ربـما تكـون قـد قلَّصـت المصالـح المشـتركة بـين الطرفـين وبددتهـا، حيـث يـرد عنـد ابـن خيـاط(ت240 هــ) أنـه بعـد المعركـة "خرج أهـل حـروراء فِي عشْريـن ألفًـا عَلَيْهـم شـبث بـن ربعـي... وأن شـبث فيـما بعـد كان يقـول متفاخـرًا " أَنـا أول مـن حـرر الحروريـة"[1] .

تـشي هـذه الحادثـة عـلى نحـوٍ واضـح باسـتنفاذ شـبث لـدورة مـع الخليفـة عـلي بعـد صفـين، التـي لم يقـر فيهـا واقـع جديـد

(1)خليفـة بـن خيـاط، تاريـخ خليفـة بـن خيـاط،، تحقيـق د. أكـرم ضيـاء العمـري، دار القلـم، مؤسسـة الرسـالة، دمشـق، ط2، 1397 هــ، ص192، والحروريـة هـم فئـة مـن الخـوارج سـمُّوا بالحروريـة نسـبة إلى حـروراء وهـي قريـة مـن قـرى الكوفـة وهـي البلـد التـي اجتمـع الخـوارج فيهـا أول أمرهـم.

سـوى تفـكك وضبابيـة المشـهد بالنسـبة للإمـام عـليٍّ وشـيعته (وهـو أمـر لم يتناسـب مـع طمـوح شـبث في هـذه المرحلـة).

فمـع أول بـروز لـدور جديـد مـن خـلال تيـار سـياسي عقائـدي يتمثـل في الخـوارج أو الحروريـة - مـا المانـع- أمـام شـبث؟ خصوصًـا وقـد ظهـر أن البنيـات التقليديـة (القبيلـة والعصبيـة) لا زالـت مؤثـرًا فاعـلًا في وجهـة الحـوادث وتبدلهـا مـن طـرف لآخـر، إنـه اتفـاق منطقـي لطبيعـة الشـخصية التـي تصنـع قيمتهـا السياسـية مـن خـلال قدرتهـا عـلى الفعـل وإنتـاج التغيـير. فشـبث وكـما يـورد الطـبري بعـد النـزول بحـروراء وجـد نفسـه عـلى إثنـي عـشر ألفًـا يأتمـرون بأمـره[1]، ومـع سـابق علـم شـبث بمـدى تهالـك جيـش الخليفـة عـلي والصراعـات التـي تـدور داخلـه والانشـقاقات التـي طالتـه، إضافـةً لواقـع الأمـة الممزقـة بـين شـام وعـراق (كوفـة ودمشـق) فالتحـول إلى فريـق آخـر لـن يكـون - مـن وجهـة نظـره - معيبًـا في ظـل تطـورات متلاحقـة بـدت لـه متسـقة مـع الأفـق الـذي يرجـوه.

وإن تمـت مقارنـة هـذا الواقـع السـياسي الجديـد المتشـكِّل بعد معركـة صفـين فالكفـة سـتميل حتـمًا جهـة اختيـاره الاسـتمرار في الخـروج بهـذا الجيـش الكبـير، لكـن... ومـع تنامـي أنبـاء تفيـد ببحـث (الخـوارج) عـن قائـد جديـد وترددهـم بـين "سـعد بـن وائـل التميمـي" وعَبْـد الله بْـن وهـب الراسـبي[2]، وفي ظـل

(1)الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج5، ص 63.

(2)ابن حبان، السيرة النبوية وأخبار الخلفاء، ج2، ص545.

رهـان غـير مضمـون بالبقـاء مـع الخـوارج[1] فـإن شـبث ربـما يكـون تراسـل وتفـاوض مـع الخليفـة عـليٍّ للعـودة مـن جديـد

(1)والقصـة كـما أشـار لهـا ابـن حبـان في كتابـة السـيرة النبويـة وأخبـار الخلفـاء وردت عـلى النحـو التـالي" انـصرف عـليٌّ بمـن معـه مـن أهـل العـراق، وانـصرف معاويـة بمـن معه إلى الشـام، فقـال عبـد الله بـن وهـب الحرمـي – وكان مـن أصحـاب عـليٍّ: لا حكـم إلا لله، فقـال عـليٌّ: هـذه كلمـة حـق أُريـد بهـا باطـل. فلـما دخـل عـليٌّ الكوفـة خـرج مـن كان يقـول: لا حكـم إلا لله، ونزلـوا بحـروراء، وهـم قريـب مـن اثنـي عـشر ألفًـا، فسـموا الحروريـة، ومناديهـم ينـادي: أمـير القتـال شـبث بـن ربعـي التميمـي، والأمـر بعـد الفتـح شـورى، والبيعـة لله. .فخـرج عـليٌّ مـن صفـين، وولى عـليٌّ سـهل بـن حنيـف فـارس، فأخرجـه أهـل فـارس، فوجـه زيـادًا فرضـوا وصالحـوه وأدوا إليـه الخـراج. ثـم إن الخـوارج اجتمعـت عـلى زيـد بـن حصـين وقالـوا لـه: أنـت سـيدنا وشـيخنا وعامـل عمـر بـن الخطـاب عـلى الكوفـة، تـول أمرنـا، وجهـروا بـه فقـال: مـا كنـت لأفعلهـا، فلـما أبـى عليهـم ذلـك ذهبـوا إلى يزيـد بـن عاصـم المحـاربي فعرضـوا عليـه أمرهـم فأبـى عليهـم ذلـك، ثـم ذهبـوا إلى سـعد بـن وائـل التميمـي فأبـى عليهـم، فأتـوا عبـد الله بـن وهـب الراسـبي واجتمعـوا عنـده بقـرب النهـروان، وخـرج إليهـم عـليٌّ في جمعيـة، فلـما أتاهـم حمـد الله وأثنـى عليـه ثـم قـال: إنكـم أيهـا القـوم قـد علمتـم وعلـم الله أني كنـت للحكومـة كارهـا حتـى أشرتـم عـليّ بهـا وغلبتمـوني عليهـا والله بينـي وبينكـم شـهيد! ثـم كتبنـا بيننـا وبينهـم كتابـا وأنتـم عـلى ذلـك مـن الشـاهدين، فقالـت طائفـة مـن القـوم: صدقـت– ورجعـوا إلى الجماعـة، وبقيـت طائفـة منهـم عـلى قولهـم، فقـال عـليٌّ: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ ﴾، [سـورة الكهـف، 103/ 104] منهـم أهـل النهـروان ورب الكعبـة" –ابـن حبـان، السـيرة النبويـة وأخبـار الخلفـاء، ج2، ص545 – 546.

(وإن غابت الدلائل التاريخية أو شواهدها في مصادر التاريخ)، ويغلب على الظن أنه وُعِدَ بمنصب قيادي أعلى مما كان عليه في صفين. لاسيما أن هناك سابقة بالفعل (للمفاوضة)، حيث ذكر الطبري أن علي ابن أبي طالب أرسل وفدًا لمحاولة إثناء شبث والخوارج حيث يرد " أن شبث بن ربعي وابن الكواء كانا واقفان متوركان على دابتيهما، وعندهما رسل علي وهم يناشدونهما الله لما رجعا بالناس[1]".

حتى الآن هذا ما كان ثابتًا لشبث وهو أن قيادته للخوارج أصبحت غير مضمونة، ودون هذا لا يمكننا فهم تراجعه من جديد وعودته لمعسكر الخليفة علي. تراجع منطقي ليس بمعزل عن مسيرة التحالفات التي كانت تجري سواءً على مستوى جبهة الخليفة علي ومحاولة لملمة شتات جيشه، أو على مستوى جبهة الشام ومحاولة معاوية الاستئثار بمزيد من الفاعلين السياسيين، لاسيما وهو يستمد قوة وجوده في الشام من فاعلية هذه القيادات القبلية المنضوية تحت فلك سلطته لاسيما وأن معاوية ومن معه يلتقيان في نظرتهم لما حدث للخليفة عثمان بن عفان، وهو ما أتاح لمعاوية فرصة إضافية لمحاولة إيجاد معادل موضوعي لأخطر أطراف المعادلة وهو المعادل القبلي/ العصبي في هذا الوقت.

فمع الإشارات الواردة الدالة على تصميم الخليفة عليٍّ على قتال الخوارج كان استمرار شبث ووجوده في معسكر

(1)الطبري، تاريخ الرسل والملوك، وصلة تاريخ الطبري (ج5 / 91ص).

الخوارج ستجعله حتمًا هدفًا مؤكدًا لسيوف الخليفة إن استمر على موقفه، لذلك تكون عودة شبث قرارًا مستندًا لأسس منطقية ونفعية، قرار يعود به إلى موقع أكثر قربًا من الخليفة حيث تم بالفعل[1] تنصيبه قائدًا لميسرة جيش الإمام.

ومن ثم – هنا تحديدًا– كان على شبث إثبات أنه يستحق موقعه الجديد، حيث انطلق مقاتلًا الخوارج – الذين كان حتى وقت قريب – أميرًا عليهم ومن كبار قادتهم ومؤسسي حركتهم [2]، بل وعلى نحو لافت يثير الانتباه شارك بنفسه في قتل عبدالله الراسبي قائدهم، كما يشير البلاذري حيث يقول: "إن شبث بن ربعي شارك في قتله (ويقصد عبد الله بن وهب الراسبي)، وكان شبث على ميسرة علي، وكان فيمن رجع عن التحكيم بعد محاجَة ابن عباس المحكمة"[3].

في ظل غموض متوقع، بعد مقتل الخليفة عليٍّ أواخر العام 40 هـ، طويت آخر صفحة في الحكم والرئاسة لعصر الخلفاء الراشدين (المغتال منهم ثلاثة من إجمالي أربعة)، ومع قدرة معاوية على فرض الاستقرار، وبعد أن غيب الموت أو القتل كثيرًا من الخصوم السياسيين والقيادات والزعامات القبلية كـ" حجر بن عدي الكندي وعمرو

(1)بعد التراجع عن موقفه.

(2)للمزيد انظر: ابن خياط، تاريخ خليفة، ص-192 كذلك: الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج11، ص-665 العجلي، الثقات، ص214.

(3)البلاذري، جمل من أنساب الأشراف، ج2، ص 362.

بـن الحمـق الخزاعـي، ومالـك الأشـتر وسـعد بـن أبي وقـاص وغيرهـم، وبتقلـص الممارسـات العنيفـة إبـان حكـم معاويـة ومـع غيـاب أيـة أخبـار أو مشـاهد مؤثـرة لشـبث باسـتثناء مـا ذكـره البـلاذري "حمـل زيـاد حجـرًا وأصحابـه إلى معاويـة في السلاسـل عـلى جمـال اكتراهـا لهـم صعابًـا، ووجـه معهـم شـبث بـن ربعـي الرياحـي[1]"، يمكـن القـول أن شـبث وَالَى معاويـة وخضـع لـه، وأنـه مـع الاسـتقرار السـياسي الموسَّـع الـذي شـهدته الدولـة الإسـلامية، لم تسـتطع الشـخصيات القبليـة مـن أمثـال شـبث أن تشـكل تهديـدًا حقيقيًّـا للسـلطة - القويـة- بعـد أن عمـل معاويـة عـلى فـرض نفسـه خليفـة وتنازل الحسـن 41هــ عن الخلافـة. كل ذلـك دعـم تقليـص إمكانيـة الحركـة لهـذه الشـخصيات لتتوجـه فقـط نحـو خلـق فـرص ترقـي اجتماعـي والاسـتحواذ عـلى المزيـد مـن المغانـم النفعيـة لهـا ولمنظومتهـا، بـل إنـه ومـع روايـة وحيـدة لشـبث في عهـد معاويـة يمكـن ملاحظـة المرونـة العاليـة لـه في العمـل مـع السـلطة الجديـدة[2]، معاويـة الـذي وقـف شـبث مـن قبـل مهـددًا ومتوعـدًا لـه بالحـرب، لكـن معاويـة اليـوم هـو الخليفـة هـو مـن يأتمـر بأمـره كثـير مـن الشـخصيات والقيـادات التـي كانـت محسـوبة مـن قبـل عـلى معسـكر الخليفـة وإدماجهـا وصهرهـا في بوتقـة الدولـة.

(1) البلاذري، جمل من أنساب الأشراف، ج5، ص 256.

(2) أي الممثلة في معاوية.

لا أظـن أننـا بحاجـة للقـول بـأن موقـف شـبث في هـذه المرحلـة أيضًـا (متوقعًـا)، خاصـة وأن الإعـلان عنـه ارتبـط بالتغـيرات التـي عصفـت بأغلـب القيـادات والشـخصيات والرمـوز الدينيـة التـي كانـت مـن قبـل مـع الخليفـة عـلي، لكـن بعـد حادثـة اغتيـال الأخـير وتنـازل الابـن الحسـن، فهـل سـيؤمِّن الاسـتمرار في الموقـف القديـم مـن معاويـة لـه أيـة مكاسـب؟ بـل هـل الاسـتمرار في معـاداة معاويـة سـيؤمن لشـبث حياتـه نفسـها؟

صراع اعتيادي

قتال الحسين ...

طلب الثأر للحسين!!!!!

عقب وفاة معاوية بن أبي سفيان وتولى ابنه يزيد الخلافة، أظهرت شخصيات إسلامية مهمة رفضها لعملية التوريث التي جرت وأعلن بعضها عدم الإقرار بخلافته، أيضًا أخذ كثير من الزعامات القبلية في العراق يكتبون للحسين ويدعونه للقدوم مؤكدين "أنهم حبسوا أنفسهم على بيعته ومستعدون للموت من أجله"... فماذا كان موقف شبث؟

احتفظ لنا ابن مسكوية في كتابة تجارب الأمم وتعاقب الهمم بجزء من نص خطاب لشبث يدعوا فيه الحسين للقدوم وأنه بجانبه تقول الرسالة " من شبث بن ربعيّ،... أمّا بعد، فقد اخضرَّ الجناب، وأينعت الثمار، وطمّت الجمام، فإذا شئت فاقدم على جنود مجنَّدة لك، والسلام[1].

إذًا ربما تحددت بتلك الرسالة مشاهد الخيارات الجديدة لشبث، والتي توحي بمحاولة جديدة لاستعادة دوره الحيوي في المشهد السياسي، وضمان الديمومة لهذا الدور، فقدوم الحسين يعني إحياء تحالفات كان شبث يأمل دون شك في قيادتها بنفسه، بما يعنيه ذلك أيضًا من غايات وطموحات

(1)مسكويه، تجارب الأمم وتعاقب الهمم، ج2، ص 40. كذلك – البلاذري، جمل من أنساب الأشراف، ج3، ص 158.

شبث، فعودة منظومة الخليفة علي (الحليف القديم) على يد ابنه – الطامح لتولِّي منصب الخلافة – الحسين. ومع احتدم تنازع الولاءات والعصبيات، وفي ظل وضع الاختلاف على شرعية الخليفة يزيد، حَمَلَ كل ذلك في طياته الأمل في استحقاقات ونتائج جديدة تلوح وشيكة في الأفق إذا استطاع الحسين حسم الأمر لصالحه.

لا يمكن أيضًا أن نستبعد أن يكون الدافع لدعوة الحسين والوقوف بجانبه أنه يأتي كممر جديد يعتقد شبث وأمثاله أنه سيؤمن لهم قدرة على استعادة ما خسروه سابقًا في ظل قيادة وسلطة مركزية قوية زمن معاوية.

ففي الوقت الذي كان الحسين يتحرك فيه نحو الكوفة معتمدًا على التطمينات التي أتت من قيادات ورموز مؤثرة نقلها له مسلم بن عقيل، حيث وصلت بعدد المبايعين كما يورد ابن قتيبة في (الإمامة والسياسة) لنحوِ الثلاثين ألفًا[1]، وثمانية عشر في روايات أخرى رصدها الدينوري والطبري جاء فيها" أما بعد فإن الرائد لا يكذب أهله وقد بايعني من أهل الكوفة ثمانية عشر ألفًا، فعجل الإقبال حين يأتيك كتابي، فإن الناس كلهم معك[2]".

وعليه كان يزيد قد بدأ هو الآخر بالفعل التحرك

(1) ابن قتيبة الإمامة والسياسة، ج2، ص 4.

(2) الدينوري، الأخبار الطوال، ص243، الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج2، ص 264.

المضـاد، هـذا التحـرك أودى في طريقـة بمسـلم بـن عقيـل نفسـه، وهـاني بـن عـروة[1] أهـم ممثـلي الحسـين بالكوفـة.

لا جديـد إذن بالنسـبة للسـلطة المركزيـة، ففـي تاريخنـا، لم ينـج لقـب الخليفـة (مثلـه مثـل كثـير مـن المفاهيـم الدينيـة) مـن اسـتخدامه مطيـة سياسـية، لـذا كانـت الدعـوة الصريحـة بالقـدوم والمسـاندة - التـي تـم إعدادهـا ليقودهـا الحسـين - قـد بـدأت تـذوب وتتـوارى، خلـف الحـدة التـي أبدتهـا مؤسسـة الخلافـة في مقابلـة تحـرك الحسـين، فيزيـد - الـذي ورث عـن والـده دولـة القـوة والسـلطة المركزيـة تبسـط نفوذهـا عـلى أهـم مراكـز التأثـير باسـتثناء الاضطـراب الحاصـل بـ(مكـة والمدينـة) كان يملـك بالفعـل معطيـات التحـول لصالحـه، فمـع الإربـاك الحاصـل والخطـير في بعـض الحـالات التـي وصلـت لحـد التمـرد، وفي ظـل ضآلـة ملحوظـة في عمليـة تقبـل الاحتشـاد والمواجهـة لـدى كثـير مـن الزعامـات والقيـادات، أرْسَـل يزيـد بأوامـره لابـن زيـاد عاملـه عـلى الكوفـة، لوضـع حـدٍّ لأمـر الحسـين والتصـدي لـه، وبالفعـل يصـدر ابـن زيـاد أوامـره هـو الآخـر لمحمد بن الأشـعث ليخـرج فيمـن أطاعـه مـن كنـده وحضرمـوت اسـتعدادًا للمعركـة (الأوديسـه) كربـلاء 61هــ/ 680م، تلـك الملحمة المصنوعـة التي فتحـت بـاب التناحـر المذهبـي والسـياسي لاحقًـا عـلى مصراعيـه حتـى اليـوم، كذلـك تـم الاسـتعانة بالوجـوه والزعـمات كـ القعقـاع بـن شـور الذهـلي، وحجـار بـن أبجـر العجـلي، وشـمر

(1)الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج6، ص 213.

بـن ذي الجوشـن العامـري[1]، وأيضًـا شـبث بـن ربعـي التميمـي.

لقـد كان مـن المنطقـي مـع الحسـم والشـدة التـي أظهرهـا يزيـد ومـع الإجـراءات السريعـة التـي اتخذهـا بعيـدًا عـن سياسـات التأجيـل والإرجـاء، أن تعيـد شـخصية مثـل شـبث قـراءة موقفهـا وفـق تحسّـس دقيـق سـمته الرئيسـة والفارقـة هـي المـأزق، لاسـيما موقفـه العسـكري، فتتـالي الضغـوط والتهديـدات الصريحـة للخـروج لمقاتلـة الحسـين لم تـترك معهـا خيـارًا، فإمـا السـلطة والخليفـة (يزيـد)، وإمـا المعارضـة (المتهاويـة) الممثلـة في الحسـين.....إذن....... (ليـس ثَـمَّ خيـارٌ وسـط).

في النهايـة جـاء حسـم شـبث أمـره... إنـه مـع الطـرف العسـكري المفـترض فيـه كسـب المعركـة إن خاضهـا... وهـو جيـش الخليفـة يزيـد[2].

وربـما تـشي لنـا محاولـة شـبث التعلـل بالمـرض كنـوع مـن تلمـس العـذر لعـدم الخـروج، كمحاولـة منـه لحفـظ مـاء الوجـه، تلـك المحاولـة التـي كان رد السـلطة عليهـا عنيفًـا وحـادًّا، (تهديـد صريـح لـه إن لم يخـرج للقتـال)، تهديـد لم يكشـف معـه حجـم الضغـوط التـي مورسـت عـلى شـبث فحسـب، بـل وأيضًـا ضـد كثـير مـن الزعامـات الأخـرى.

(1) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج6، ص 291.

(2) الطبري، نفسه، ج5، ص422.

يذكـر البـلاذري " تمـارض[1] شَـبَث بـن رَبْعِـيّ فبعـث إِلَيْـهِ أن يشـخص إِلَى الْحُسَـيْن فِي ألـف ففعـل[2]".

وبهــذا تخطَّــى شــبث مرحلــة أخــرى مــن مراحــل تقلــب الــولاء، لكنهـا مرحلـة أشـد حرجًـا، مرحلـة لم تهـدد حياتـه هـو فحسـب، بـل طالـت معـه زعامـات ورمـوز دينيـة عـلى رأسـها الحسـين الـذي نـادي في خضـم الاندفـاع (وقبـل تلاقـي السـيوف في المعركـة) عـلى شـبث معاتبًـا عـلى لـه الخـذلان وقـد كان وقتهـا أحـد الرؤسـاء في الكوفـة[3]، فيقـول البـلاذري مسـتحضًرا المشـهد " نـادى الحسـين: يـا شـبث بـن ربعـي يـا حجـار بـن أبجـر، يـا قيـس بـن الأشـعث يـا يزيـد بـن الحـرث ألم تكتبـوا إلي أن قـد أينعـت الثـمار؟! واخـضر الجنـاب وطمـت الجـمام وإنـما تقـدم عـلى جنـد لـك مجنـد؟!!... قالـوا: لم نفعـل!!!"[4].

وفـق مـا تـم تسـجيله تاريخيًّـا وأحـاط بمعركـة كربـلاء يمكن القـول إن هـذه المعركـة كانـت بالنسـبة لشـبث بمثابـة مقاربـة بـين

---

(1) يقـول الدينـوري في الأخبـار الطـوال " قـال لـه ابـن زيـاد: أتتـمارض؟ إن كنـت في طاعتنـا فاخـرج إلى قتـال عدونـا" الأخبـار الطـوال، ج1، ص 254.

(2) البلاذري، جمل من أنساب الأشراف، ج3، ص178.

(3) الدينوري، الأخبار الطوال، ج1، ص229.

(4) انظـر البـلاذري، جمـل مـن أنسـاب الأشراف، ج3، ص 188، وجـاء في الطـبري " قـال: سـبحان الله! بـلى والله، لقـد فعلتـم، ثـم قـال: أيهـا النـاس، إذ كرهتمـوني فدعـوني أنـصرف عنكـم إلى مأمنـي مـن الأرض" الطـبري، تاريـخ الرسـل والملـوك، ج5، ص 425.

الواقعيـة والمنطقيـة مقابـل بقيـة القيـم الأخـرى، مقابلـة ومقاربـة انتـصرت فيهـا الواقعيـة في إزاحـة القيـم الأخـرى[1].

فالمشـهد بالنسـبة لشـبث في كربـلاء تحـول لجملـة مـن التحديـات والمتغـيرات، تحديـات وتحـولات لا يتطلـب فـك رموزهـا بالنسـبة لشـبث سـوى نظـرة بسـيطة عـلى طبيعـة الوضـع (الحسـين بـلا قـوات[2] تسـتطيع الصمـود أو المجابهـة، الحشـد العسـكري ليزيـد ذو ثقـل عـددي واضـح يفقـد الحسـين أي أمـلٍ في الانتصـار، السـلطة المركزيـة متحفـزة ومـصرة عـلى تصفيـة هـذا الوضـع مهـما كلـف الأمـر)، الحسـين دون وسـائل ضغـط يمتلكهـا أو يسـتطيع أن يفـاوض بهـا لا سياسـية أو عسـكرية وليـس هنـاك أيـة دلائـل تشـير لتغـيُّر قريـب في الوضـع عـلى نحـوٍ جـذري، إذًا الحديـث عـن خـذلان الحسـين يجـب ألا يحجـب عنـا هـذه الحقائـق.

---

(1) جـاء عنـد الطـبري أن الحسـين – وحـين احتـدم الأمـر وأدرك أنهـا النهايـة – قـال لمـن حولـه "لاخـير في الحيـاة بعدكـم" انظـر الطـبري، تاريـخ الرسـل والملـوك، ج2، ص 322، كذلـك المسـعودي، مـروج الذهـب، ج3، ص 70.

(2) عـلى الرغـم مـن الرسـائل المشـجعة التـي كانـت تصـل للحسـين إذ وصلـت بالمبايعـين في إحـدى الروايـات إلى ثلاثـين ألفًـا وفي روايـة ثمانيـة عـشر ألفًـا – انظـر: ابـن قتيبـة الإمامـة والسياسـة، ج2، ص 4، كذلـك ابـن الأثـير، الكامـل في التاريـخ ج4، ص 33، في حـين يـرى ابـن حجـر (في تهذيـب التهذيـب) أن الأعـداد وصلـت لحـوالي اثنـي عـشر ألفـا مـن المبايعـين، ابـن حجـر تهذيـب التهذيـب ج2، ص 349.

وإذا كان الحسين قد قتل، فهل يموت ما يرمز إليه، وتنتهي القصة؟

عمومًا – وكعادة الملاحم وفي مشهد درامي أو ربما رمزي– احتفظت بعض مصادر التاريخ بصورته، تمثل في أنه ومع اقتراب الحسين من خسارة هذه المواجهة غير المتكافئة، ومع محاولة من شمر بن ذي الجوشن حرق بيوت نساء الحسين، يُقْبِلُ شبث معاتبًا شمر بالقول[1]: ما رأيت أقبح من فعلك وموقفك، أتريد أن ترعب النساء؟....(مشهد زئبقي بامتياز)، فهل كان ذلك أيضًا حفظًا لماء الوجه وأسفًا وتبرئةً من دم الحسين؟ أم استمرار لتناقض تاريخي منتج للنص والرواية ولأهداف ما، مهما كان الأمر سنجد في المرحلة اللاحقة أن شبث نفسه يطالب بالثأر للحسين وينضم لحركة المختار بن عبيد الثقفي سنة 67 هـ[2].....لا إجابة تاريخية تسعفنا!

ولا غرابة في أن يفصح نص[3] ابن كثير، وابن الأثير: "أن شبث – وحين دعي للقتال – قال مستعجبًا " شيخ مضر وأهل المصر عامة يبعث في الرماة، ألم يكن لهذا غيري![4]، إن

(1)كما أشار البلاذري " قال شبث بن ربعي (لشمر): يَا سبحان اللهَّ مَا رأيت موقفًا أسوأ من موقفك"، البلاذري، جمل من أنساب الإشراف، ج3، ص194.

(2)ابن الأثير الكامل في التاريخ، ج4، ص –211 278.

(3)ابن كثير، البداية والنهاية، ج8، ص 189.

(4)ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج3، ص 175.

هـذه الروايـة الأخـيرة بالـذات ربـما تكـون أكثـر تعاطيًـا وإيجابيـه مـع موقـف شـبث مـن الحسـين في كربـلاء، فهـي تعالـج ارتبـاك المشـهد والمصـادر في التعامـل مـع قضيـة رغبتـه في القتـال مـن عدمهـا، حيـث تـشي روايـة ابـن الأثـير أن احتجـاج شـبث عـلى الخـروج لقتـال الحسـين ربـما يـأتي مـن منطلـق اعتبـار ذلـك تقليـل مـن شـأنه، لجعلـه يقـود فرقـة الرمـاة، وبهـذا المعنـى يكفـى أن نلاحـظ أن الاعـتراض عـلى كونـه قـاد الرمـاة حيـث لا يبـدو ذلـك - في تصـور شـبث - مناسـبًا.

وانسـجامًا مـع ضرورات المرونـة في التعامـل التـي أبداهـا شـبث وأظهـر مـن خلالهـا مسـتوى عـالٍ مـن الحفـاظ عـلى مـشروع السـلطة القائـم ليزيـد، إلا أن ذلـك وفي نفـس الوقـت لا يجعلنـا نتناسـى أن شـبث في نهايـة الامـر زعامـة قبليـة، وشـخص نخبـوي ينتمـي لقبيلـة ذات ثقـل، ألا وهـي (تميـم).

كذلـك في سـياق أدبيـات السـرد التاريخـي حـول موقـف شـبث مـن الحسـين في كربـلاء قـد يأخذنـا نمـط القـراءة لجانـب المثاليـة المرتبطـة بخـذلان الخـير وفعـل الخيانـة والوقـوف مـع الـشر. لكـن الواقـع عـلى الأرض لا يقبـل هـذا بسـهولة، أن دعـوة شـبث للحسـين كانـت في ضـوء تصـور مـن الأول يقـضي بـأنَّ الحسـين قـادر عـلى تحـدي الأمويـين وإنتـاج شرعيـة جديـدة، شرعيـة وسـلطة قـادرة عـلى تقديـم مغانـم وخلـق مصالـح وانتـماءات للمتعاونـين والحلفـاء والقـوى المتنفـذة التـي ستنشـأ، لكـن الحسـين مـع وصولـه بـدون قـوات عسـكرية، وبـدون

احتشـاد قبـلي حقيقـي منتظـرا مـددا مـن الكوفـة وغيرهـا مـن المناطـق والقبائـل التـي وعـدت بالمسـاعدة والدعـم، أصبـح موقفـه العسـكري بـل والقـدرة عـلى المفاوضـة شـبه منعـدم، فالوقـوف مـع الحسـين يعنـي في هـذه الظـروف القضـاء عـلى أي فـرص سياسـية بالنسـبة لـه، بـل وربـما مقامـرة بحياتـه نفسـها وحيـاة مـن معـه في ظـل إصرار السـلطة عـلى حسـم الموقـف، وتتـالي حشـدها لذلـك[1].

مـن الواضـح أن دعـوى الانضـمام للحسـين والقتـال معـه كانـت، مشروطـة، ومـن الطبيعـي ألا يـرد ذكـر هـذه الـشروط في المصـادر التاريخيـة[2]، إن كان هنـاك أمـل في الانتصـار، أمـا القتـال في ظـل موقـف عسـكري مثـل الـذي كان عليـه الحسـين، فـلا يمكـن أن يـؤدي لنـصر.

كانـت وفـاة يزيـد بـن معاويـة هـي الأخـرى مـؤشرًا للانفجـار المرتقـب، فمـع الاضطـراب الحاصـل في صفـوف الأمويـيِّن كان لزامًـا التحـرك السريـع من قبـل قياداتهـم ورموزهـم

(1)ولمزيـد مـن التناقـض التاريخـي والاستفسـار عـن الأسـباب الحقيقيـة التـي دفعـت يزيـد فيـما بعـد لتغيـير موقفـه مـن الحسـين ربـما علينـا أن نسـجل شـهادة البـلاذري حيـث يقـول ان ابـن الحنفيـة قـدم لزيـارة يزيـد بدمشـق بعـد مقتـل الحسـين فقـال لـه: "لـو أني أنـا الـذي وليـت أمـره، ثـم لم اسـتطع دفـع المـوت عنـه إلا بجـز أصابعـي، أو بذهـاب نواظـري، لفديتـه بذلـك" البـلاذري، جمـل مـن أنسـاب الأشراف،ج3،ص 276-277.

(2)كما لا ندعي أيضًا الإحاطة بجزئياتها.

لاستدراك الأمر وإنقاذ العرش الأموي من الزوال، فكان "مؤتمر الجابية" لمبايعة مروان بن الحكم[1]، ويبدو أن مروان بن الحكم كان يدرك طبيعة ومستوى الأزمات والصراعات الموجودة، لا سيما داخل البيت الأموي نفسه، يؤكد ذلك أسلوبه وقراره تفويض ولاية العهد لابنه، إذن باتت الدولة الإسلامية ظاهريًّا أكثر توحدًا، ولو أنه في المستوى العملي كانت تخترقها ثغرتان مهمتان:

- الأولى: ترأس عبد الله بن الزبير معارضة مركزها مكة.
- الثانية: إحراز المختار بن أبي عبيد الثقفي - الذي جمع من حوله شيعة الخليفة علي - بعض الانتصارات في الكوفة.

في ظلِّ هذه الظروف يصبح الطريق مفتوحًا أمام أمثال شبث للانقلاب على الأمويين، فهو ليس أقل طموحًا أو تطلعا من المختار، ذلك الساعي لمكاسب سياسية وعسكرية، إذًا فرضية التحالف مع المختار بن أبي عبيد الثقفي وفي ضوء المستجدات التي يبشر بها ما أحرزه الأخير من انتصارات عسكرية تصبح فرضية مقبولة، بل ربما ضرورة استثنائية ملحة في هذا الوقت، حيث يقول ابن أعثم " أقبل شبث ودخل على المختار، فقال له المختار: أرضيكم وأغنيكم من كل ما تكرهون على أن تقاتلون معي بني أمية وعبد الله بن

(1) الذي عهد بالخلافة لابنه "عبد الملك 65-86هـ/ 684-705م" ومن بعده لابنه " عبد العزيز".

الزبـير"، وإن كان لا يـرد في الروايـة ردًا واضحًـا مـن شـبث انتظارًا لاستشـفاف رأي قومـه، الذيـن رفضـوا بعـد ذلـك وقالـوا: نقاتلـه وننقـض عليـه بيعتـه[1]. لكـن ابـن مسـكويه يـرد عنـده مـا يشـير قبـول شـبث للعـرض حيـث يذكـر" أن شـبث بعـث للمختـار ابنـه عبـد المؤمـن ليقـول لـه إنـما نحـن عشـيرتك وكـف يمينـك لا نقاتلـك فثـق بذلـك[2].

ثمَّةُ روايـة أخـرى أيضًـا عنـد الطـبري مفادهـا أن شـبث بـن ربعـي تصـدى لجيـش المختـار الثقفـي سـنة 66هــ، بـل واسـتطاع هزيمـة جـزء مـن جيشـه، وقائـد جيـش المختـار سـعر بـن سـعر الحنفــي، الــذي وبــخ شــبث قائــلًا (ويحــك أردت اتبــاع هــذه السـبئية، قبَّـح الله رأيـك[3].

هكــذا إذًا مــن أحــد قــادة الجيــوش المشــاركة في معركــة كربــلاء ضــد الحســين إلى معــارض للمختــار ومتهــم بدعــم السـبئية والانتـماء لهـم، إلى حلـف مـع المختـار ودعوتـه (التوابـين) للمطالبـة بالثـأر لـدم الحسـين!!!!

عـلى المسـتوى العمـلي: تعامـل المختـار نفسـه مـع شـبث بإيجابيـة عاليـة وسـعى لضمـه لتحالفـه، إذن الجميـع هنـا منخـرط في مـشروع سـياسي جديـد، منظومـة مـن الحسـابات والمصالـح

(1)ابن أعثم الكوفي، الفتوح، ج6، ص 232.

(2)()- ابن مسكوية، تجارب الأمم وتعاقب الهمم، ج2، ص 171.

(3)الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج3، ص 442-443 .

والسياسية، للمختار شعارها (الثأر لآل البيت وحقهم). ورغم ارتفاع سقف الشعارات التي استخدمها المختار في دعوته إلا أن وجود شخصية مثل شبث في صفه يمثل مكسبًا، لكن ما قدر لهذا التحالف أن يدوم، إذ ومع ظهور بوادر المواجهة بين مصعب بن الزبير والمختار انتقل شبث للبصرة واتصل بمصعب لاستعدائه على المختار!!! حيث يذكر الدينوري أنه بلغ المختار أن شبث بن ربعي، وعمرو بن الحجاج، ومحمد بن الأشعث مع عمر بن سعد قد أخذوا طريق البصرة في أُناس معهم من أشراف الكوفة، فأرسل في طلبهم لقتلهم[1]".

إنها المصالح التي لا حدود لها، الشخصيات الطامحة، الزعامات المتوثبة، لتحقيق مغانم، زعامات قبلية لن تقبل إنهاء طموحها وآمالها حتى وإن بدا ذلك لها في أنصاف فرص وليس فُرصًا مكتملةً، إنه المعطى الأكثر حضورًا على مستوى السياسة وبناء التحالفات ومقاييس المكسب والخسارة، فشبث والمختار يتسابقان في الاتجاه نفسه إن انتصر أحدهم يخسر الآخر حتمًا، وبالفعل كان رهان شبث ناجحًا حيث توجه مصعب بقواته وحاصر الكوفة ثم دخلها، وقتل المختار سنة 67هـ/ 686م.

(1)()الدينوري، الأخبار الطوال، ج1، ص301.

شبث وعبد الملك بن مروان
تطلعات معطلة تحت سقف الخلافة

بمقتل مصعب ابن الزبير وتصفيه أخيه عبد الله بمكة قد يكون عبد الملك بن مروان أنهى حرية كثير من الزعامات القبلية في الحركة والاختيار، وأعاد مرة أخرى للسلطة مركزيتها السياسية[1]، لاسيما أن المراهنة من أية قوى على إسقاط عبد الملك وخلافته أصبح أمرًا شديد الصعوبة، حيث أفصح عبد الملك بخطبته في المدينة إثر مقتل عبد الله بن الزبير، متوعدًا مخالفيه بالقول "والله لا يأمرني أحد بتقوى الله بعد مقامي هذا إلا ضربت عنقه". ومن الطبيعي ربما في

(1) يعد عبد الملك بن مروان - بدوره - نموذجًا من نماذج التناقض التاريخي الواضح لاسيما أن ترافق وجود شخصية الحجاج وولاية الأخير على العراق، ونواحي خرسان تلك المناطق متقلبة الأهواء دائمة الثورة صبغ فترة حكم عبد الملك بن مروان - بعض الشيء- بمسحة من التناقض التاريخي مابين (القسوة والقداسة)، فمثلا عند الطبري أن عبد الملك عزل الحجاج عن الحجاز بسبب شكوى أحد الأشراف وهو عيسى بن طلحة بن عبيد الله. انظر: الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج5، ص 615، في حين تتناول إحدى الدراسات الحديثة حمدي شاهين، الدولة الأموية المفترى عليها، دراسة الشبهات ورد المفتريات، ط1، دار القاهرة للكتاب، 2001، ص 13 بالقول "عبد الملك بن مروان هو الكريم الذي يلقب برشح الحجر لبخله، وهو الفقيه العالم الذي يغلق المصحف ويقول هذا آخر العهد بك".

عـدم إشـارة النصـوص إلى أن هنـاك أحـداث مهمـة كان شـبث أحـد أطرافهـا إبـان فـترة حكـم عبـد الملـك بـن مـروان وأبيـه مـن قبلـه، فقـط أكَّـد البـلاذري أن شـبث حتـى ولايـة عبـد الملـك بـن مـروان كان لايـزال عـلى قيـد الحيـاة، وينفـي موتـه في وقعـة الجبانـة سـنة 66 هـ[1].

ويبـدو أن معالجـة عبـد الملـك بـن مـروان مشـكلة السـيطرة عـلى زعـماء المعارضـة، واسـتمالته لهـم سـاهمت في تغييـب أي دور مؤثـر هنـا لشـبث حيـث لا تظهـر النصـوص والروايـات أنـه كان ممـن اسـتمالهم عبـد الملـك بـن مـروان، خصوصًـا وأن بعـض الزعامـات القبليـة مـن تميـم في تلـك الفـترة بقيـت خارجـة عـن الطاعـة، بـل ومثلـت للأمويـين مُشـكلات فهنـاك نافـع بـن الأزرق التميمـي، (64هـ / 684م) وقَطَـري بـن الفُجـاءة المـازني التميمـي الـذي تـولى قيـادة الخـوارج الأزارقـة، وكذلـك صالـح بـن مسرّح التميمـي، كـما لا تشـير المصـادر أو تؤكـد دورًا لشـبث في الـصراع الـذي دار بـين عبـد الملـك بـن مـروان وبـين خصومـه مـن هـذه القيـادات والزعامـات، فاسـتنادًا إلى مـا ذكـره البـلاذري

(1)البـلاذري، جمـل مـن أنسـاب الأشراف، ج6، ص 402، وورد عند الكتاني، في"التراتيـب الإداريـة – نظـام الحكومـة النبويـة"، ج2، ص 107، أنـه حـين مـات شـبث بـن ربعـي أقامـوا العبيـد عـلى حـدة والجـواري عـلى حـدة، والخيـل عـلى حـدة، والبخـت عـلى حـدة، والنـوق عـلى حـدة، وهـذا يعكـس طبيعـة مـا كانـت عليـه الشـخصية مـن ثقـل قبـلي أتـاح لهـا هـذا المشـهد التقديـري.

"مـن أن شـبث عـاش تسـعين خريفًـا[1]" يمكـن القـول إنـه وبتمكـن عبـد الملـك مـن بسـط سـيطرته عـلى العـراق ونواحيهـا انتهـت عـلى نحـوٍ كبـير تطلعـات شـبث بـن ربعـي، وربـما كانـت قـدرة عبـد الملـك في القضـاء عـلى خصومـه السياسـيين وإدارة الدولـة وتنظيمهـا، واسـتعانته بنخبـة مـن رجـال وقـادة في الإدارة والسياسـة مثـل الحجـاج بـن يوسـف والمهلـب[2] وغيرهـم كان له دخـل، يضـاف لـكل ذلـك تغلـب العنـصر اليـماني المدعـوم مـن الأمويـين عـلى نحـوٍ واضـح عـلى العنـصر المـضري، أسـهم كل ذلـك في انحسـار وزوال المعطيـات والفـرص أمـام شـبث للقيـام بـأدوار سياسـية أو قبليـة تتعـارض مـع السياسـة الجديـدة للسـلطة التـي ربـما كان يـرى لـه فيهـا مكانًـا أو دورًا يليـق بـه.

هكـذا إذن، ومـع اسـتعراض تطـور شـخصية شـبث ومشـاركته في عمليـة التغيـير والحـراك السـياسي الـذي كان جاريًـا طـوال سـنوات مـن القـرن الأول يتكشـف لنـا أن هـذه القيـادات السياسـية كانـت تتحـرك مـن منطـق داخـلي (براجماتي بالأسـاس)، وأن مسـألة القناعـات الدينيـة وحضـور المقـدس في هـذه المسـائل والمواقـف أمـرًا بعيـدًا عـن الواقـع والمنطـق، فشـبث قـد لا يخـرج عـن كونـه سـياسي إسـلامي عمـل مبكـرًا - وباسـتمرار - مـن اجـل تحقيـق مصالحـه ومصالـح منظومتـه، وكانـت شـخصيته

(1)البلاذري، جمل من أنساب الأشراف، ج2، ص341.

(2)سـنتعرض لاحقًـا للـصراع والتصـادم الـذي جـرى بـين المهلـب والحجـاج والـذي كان هـو الآخـر متوقعًـا.

تتطـور وفـق مـا يفيـد هـذه الغايـات التـي يعمـل مـن أجلهـا فمـرات يكـون مـع منظومـة السـلطة ومـرات المعارضـة ومـرات يتسـتر ومـرات أخـرى يُغلِّـب مصالـح منظومـة القبيلـة والمطامـح الشـخصية نفسـها، إن منابـع التغيـير والفعـل السـياسي والأدوار التـي مارسـها شـبث لم تكـن مـن منطلـق أيديولوجـي متعلـق بالمقـدس والدينـي/ الحـق والباطـل/ الخـير والـشر، وأظـن أيضًـا أننـا جميعًـا قبـل هـذا كلـه نـدرك مـن أي ثقافـة جـاء شـبث بـن ربعـي التميمـي؟ وفي أي بيئـة اجتماعيـة وسياسـية وثقافيـة نشـأ، لقـد كان شـبث يتحـرك في ثنايـا المشـاهد التاريخيـة مـن منطلـق واقعـي، ومنطقـي فرضتـه الظـروف والدوافـع، وربـما تكـون النصـوص والمصـادر قـد غيبـت لنـا هـذه الدوافـع والمقاربـات وصـدرت أو سـاقت بـدلًا منهـا تصويـرًا أقـرب للوصـف بالخيانـة والخـذلان والبحـث عـن مطامـح ومغانـم لا أخلاقيـة، بـل يعـز القـول أن المشـهد التاريخـي المرسـوم بالنسـبة لشـبث فشـل أن يقـدم صـورة منطقيـة تـبرر مسـاقات الدوافع والأسـباب للفعـل التاريخـي، ومـا ترتـب عليـه مـن تغـيرات سياسـية بـل وعسـكرية، فشـل المشـهد التاريخـي أن يقـدم فهـمًا أعمـق لطبيعـة محـركات الفعـل السـياسي لشـبث ومحفزاتـه، بـل والأغـرب أن بعـض الروايـات والنصـوص كانـت أكثـر إيجابيـة وديناميكيـة مـن المؤرخـين أنفسـهم (الذيـن امتلكـوا سـلطة النـص)، فهـا هـي الروايـات والنصـوص تؤكـد اسـتعانة عـليّ بشـبث عـلى الرغـم مـن أنـه كان متهـمًا بأنـه أول مـن أعـان عـلى قتـل عثـمان، كـما رصـدت، ومـن ثـم بعـد خروجـه في صفـين يعـود الخليفـة

فيجعلـه في منصـبٍ أعـلى، بـل إن معاويـة نفسـه الـذي تصـادم مـع شـبث وجهـا لوجـه وهـدده الأخـير بالحـرب، تشـهد العلاقـة بـين الطرفـين تعاونًـا وانضمامًـا لمنظومـة السـلطة الأمويـة.

فـماذا نتوقـع مـن شـخصية كشـخصية شـبث، شـخصية كانت تجـد في الصراعـات والحـوادث فرصـة لمزيـد مـن التطلعـات، خاصـة وأن الاسـتقرار السـياسي الـذي شـهدته بعـض الفـترات، واختفـاء شـبث منهـا يفصـح أن الترقـي القبـلي والسـياسي والقـدرة البراجماتيـة لمثـل هـذه الشـخصيات كانـت المحـددات الأبـرز التـي صنعـت مسـاحات واسـعة في التاريـخ الإسـلامي، وأنهـا قـادت وبعمـق عمليـات التغيـير السـياسي التـي كانـت تحـدث في القـرن الأول الإسـلامي وبدرجـة عاليـة مـن الواقعيـة والحـراك المبنـي عـلى قـراءة منطقيـة للمواقـف والحـوادث، وأن حاكميـة الدينـي بالنسـبة لهـا كانـت لا تشـكل هـذا القـدر الـذي تصـدره المصـادر - أو ربـما كانـت هـذه الحاكميـة تتحـرك في حيـز ضيـق عـما كان يصـدر بالنسـبة للسـرد - خصوصًـا إذا مـا تعلـق الأمـر بالتطلعـات والمصالـح السياسـية والقبيلـة.

تحـرك شـبث في أغلـب مراحلـه تحـركًا تجـاوز في مـرات سـقف الخيـال السـياسي المعـارض والحاكـم معًـا، تحـرك لا نبالـغ في تضخيمـه ولا نتجاهلـه، تحـركًا منطقيًّـا فرضتـه المصالـح والظـروف، إلا أن قـدرة المصـادر عـلى ترجمـة ذلـك ظـل حكـرًا عـلى منظـور الخيريـة والحـق والباطـل والخـداع والخـذلان (الابتعـاد والعـودة) منظـور تجاهـل المفـردات والدوافـع التـي

انطلقـت منهـا مثـل هـذه النخـب وصنعـت عبرهـا السـياق المنطقـي لعلميـة التغيـير السـياسي لما كان يجـري مـن حـوادث في هـذا القـرن، و كانـت هـي نفسـها أهـم منابـع التغيـير السـياسي التـي جـرت.

إن التسـاؤل الـذي يُطـرح في نهايـة اسـتعراض دور هـذه الشـخصية في عمليـة التغيـير السـياسي التـي كانـت تجـري آنـذاك: هـل اسـتطاعت النصـوص والروايـات والمشـاهد المنتجـة عنهـا أن تغيـب أو تلغـي حقيقـة أن الرمـوز الدينيـة والشـخصيات المقدسـة التـي لطالمـا حرصـت النصـوص والروايـات عـلى حمايتهـا وإحاطتهـا بالقداسـة الدينيـة، في أن تكـون هـي نفسـها مـن اسـتخدم تلـك الشـخصيات واسـتفاد منهـا وتعـاون معهـا. وأن شـبث تحـت ظـل قيـادة هـذه الرمـوز وغيرهـا اسـتطاع أن ينتـج تغـيرًا في منابـع الفعـل السـياسي لكثـير مـن الحـوادث والوقائـع التـي شـارك فيهـا وبقـدرة عاليـة؟

الفصل

الثاني

2

أبو الأعور السّلمِي

«يا معـــــاوية! إنـك لتحملنــــا على أمر لو تركته لحملناك عليه»

شماعة الخطيئة

عن الرؤية المتعلقة بالسلطة يقول ابن تيمية - ليعتدل الأمر - "إذا كان المتولي الكبير يميل إلى اللين فينبغي أن يكون نائبه يميل للشدة؛ وإذا كان يميل إلى الشدة فينبغي أن يكون نائبه يميل إلى اللين".

البراجماتيون أو بمعنى أدق الواقعيون والمنطقيون الفاعلون في التاريخ الإسلامي كانوا في الغالب شماعات للخطيئة، وهم فرصة مناسبة للمؤرخ لإلباسهم المشهد الذي يريد، في مقابل إما تبرئة أطراف المعادلة الآخرين، أو خلق بريق أخلاقي أكثر تعاطيًا مع الحوادث لعناصر المنظومات الأخرى.

إن ما نحتاجه هنا ونحن نقيم شخصية أخرى - كأبي الأعور السلمي - شخصية استطاعت أن تكون عنصرًا من عناصر الفعل والتحريك السياسي للأحداث في القرن الهجري الأول، أن نكون أكثر مرونة في تقبل انتقاد النصوص، حتى يمكن تفكيك الصورة المركبة في المصادر المختلفة وفهم أسباب هذا التركيب.

أبـو الأعـور شـخصية احتاجـت منـذ البدايـة أن تصنـف في قالـب واحـد، قالـب ظلـت مسـتفيدة منـه حتـى النهايـة، كان أبـو الأعـور أحـد الزعـماء التـي وجـدت أن الترقـي في منظومـة الدولـة وتحقيـق الإنجـازات يرتبـط بقـدرة السـلطة دومًـا عـلى تقديـم مصالـح تغطـي تكاليـف أن يكـون محسـوبًا عليهـا، سـاعد عـلى ذلـك تفهـم القيـادات التـي اسـتخدمته وقدرتهـا عـلى تقديـم مميـزات ومكتسـبات مقابـل أن تكـون الشـخصية مواليـة لهـا.

ظـل أبـو الأعـور مرتبطًـا بالخلافـة في بـلاد الشـام التـي يمثلهـا (معاويـة بـن أبي سـفيان) والـذي ربـما وجـد أبـا الأعـور مـن خلالـه القـدرة عـلى تقـدم معطيـات وأدوات أكثـر ملائمـة وواقعيـة لمـا كان سـيرفض تقديمـه المعسـكر المنافـس - معسـكر الخليفـة عـليٍّ - فكيـف تعاملـت سـلطة الكتابـة مـع أبي الأعـور السـلمي وقرئتـه، وكيـف تشـكلت صورتـه في المصـادر، وكيـف فَـسَّرت تحركـه - ذلـك التحـرك المنطقـي المشرعـن تحـت ظـل سـلطة قويـه بغـض النظـر عـن المقاصـد.

شخصية أصيلة ... أم... استقراء مفتعل

من المحقق إن شخصية أبا الأعور التي نعالج طبيعة دورها في عملية صناعة التغيير السياسي ومنابع التغيير في ما دار من حوادث للقرن الأول الهجري هي شخصية أصيلة، شخصية مستوحاة من ثنايا النصوص والروايات الأصيلة، وربما هذا ما يسهل مهمتنا خصوصًا وأنها تمتَّعت بحماية أقل من غيرها في النصوص والروايات. فاختيارنا لأبي الأعور بالذات بعد شبث، جاء في جزئه الأكبر بسبب أنه صالح بدرجة عالية للقياس والدلالة على عمليات الانحياز والتبرير السياسي والأيديولوجي الذي يخترق أجزاء موسعة من الرواية العربية الإسلامية، ومن ثَمَّ ينأى بها عن الواقعية والمنطقية التاريخية، - بجانب التغييب لمنطلقات ودوافع وأسباب تحركها في المشهد السياسي الإسلامي المبكر.

يلفت الانتباه أن هذه الشخصية التي ذكرتها مصادر التاريخ السُّرياني[1]، ووسمتها بأنها شخصية محورية في الفتوحات الإسلامية المبكرة، نراها تغلف وتوضع في مصادر التاريخ الإسلامي في صورة عكسية.

---

(1) محمد جميل بلال، الإسلام المبكر في التواريخ السريانية: دراسة مقارنة بين تاريخ الطبري وتاريخ ميخائيل الكبير. انظر كذلك المؤلف نفسه، ميخائيل الكبير (595 هجرية - 1199 م)، تاريخ ميخائيل الكبير، ترجمه من السريانية الى العربية في أقدم الترجمات (شمعون صليبا).

لاشك أن المصادر السريانية ربما تأتي أهميتها هنا في أنها توفر لنا عن أبي الأعور رواية (حيادية) إلى حد ما، رواية ليس لها مصلحة في الانحياز والتبرير على الأقل. واستطاعت هذه المصادر السريانية أن تقدم له صورة أكثر ديناميكية ومنطقية من الصورة التي ترسمها مصادرنا؟

فأبو الأعور في التاريخ السُّرياني قائِدٌ لعملية فتح قبرص، وقائدًا لعملية فتح جزيرتي رودس وكريت، وأيضًا قائدًا لحملة على القسطنطينية عام 655م، التي انتصر فيها على قوات الروم.

إذ انطلقنا من هذه المشاهد الإيجابية لأبي الأعور في المصادر السريانية، وحاولنا متابعة أدوراه في مصادرنا التاريخية الإسلامية، نراه في صوره أقل إيجابية وبطولة، صورة من أهم مكوناتها أو أبرز ما يتلقاه القارئ منها أنه أحد رؤوس الفتنة وأحد رموز الشر.

بغاية تجاوز – أو لِنقُل – اختراق ملامح هذه الصورة التي وُسِمت بها الشخصية، وحتى نتجاوز معطياتها ونصل للسيرة التاريخية الأقرب منطقية لهذا الرجل الذي كان من أبرز القيادات المؤثرة في جيش الشام ورجالات معاوية،كان لا بد لنا أن نأخذ في الاعتبار المسببات والدوافع التي أدت لتشكيل صورة هذه الشخصية المغضوب عليها تاريخيًّا، أو بمعنى أدق (شماعة الخطيئة) لكثير من الأحداث والمشاهد المحرضة على الثأر والقتال.

أبو الأعور السلمي:

نلحظُ وجود العديد من الاختلالات الهيكلية التي قد تحول دون معرفة طبيعة دور أبي الأعور السلمي في البدايات الأولى للإسلام (العهد النبوي/ أبو بكر/ عمر/ عثمان) – باستثناء التوهج والظهور في حوادث الفتنة،– فكيف تحركت هذه الشخصية، ومن أي منطلق؟

أبو الأعور السلمي هو عمرو بن سفيان بن عبد شمس، ولقبه أبو الأعور، يتواتر اسمه في روايات واسعة، إبان الفتنة، فمعظم ما وصلنا من أخباره يتعلق بهذه المرحلة.

وللإحاطة حاولنا الاستفادة من أغلب المصادر والمصنفات التي تتوزع بين القرن الثاني حتى الثامن الهجري، ويمكننا مبدئيا القول أن أبا الأعور السلمي ينتمي إلى إحدى القبائل المؤثرة وهي قبيلة سُليم[1]. بدأ ظهوره على مسرح الأحداث إبان الصراع الذي حدث بعد مقتل عثمان، والمناداة بالقصاص من قتلته (لا جديد)، فهو أحد قادة معاوية بن أبي سفيان، ومن كبار أنصاره. تمامًا مثل شبث بن ربعي. نلحظُ أن الأخبار قليلة عن أبي الأعور في مراحل حياته الأولى. في هذا السياق يثير الانتباه ويستدعي التأمل أن الرواية التراثية التي احتفظت لنا بها كتب التاريخ والمتعلقة بزوجته تكاد تتماثل في دلالاتها مع الرواية المتعلقة

(1)السمعاني، الأنساب، ص181.

بزوجـة شـبث بـن ربعـي (الاسـتهداف العاطفـي) أو وجـود معنـى يوحـي بتوافـر خلـل مـا يحمـل القـارئ عـلى استشـعاره، حيـث يشـير السـهيلي (ت 581هـ)، أن "الْحَجـاجِ بْـنِ عِـلَاطٍ السّـلَمِي" أتـى الشَّـامَ، فَنَـزَلَ عَـلَى أَبِي الأعـور السّـلَمِيّ فَهَوِيَتْـهُ امْرَأَتُـهُ، ومَـاتَ كَلَفًـا بِهَـا"[1]، وفي خـبر مكمـل يقـول ابـن عيـاش "إن أم أبي الأعـور نصرانيـة، وهـو مـن أبنـاء النصرانيـات[2]". أمـا عـن لقبـه (أبي الأعـور) فـلا خـبر عـن أسـبابه وليـس هنـاك مـا يفـسر (بدقـة) تكنيتـهِ بـأبي الأعـور.

(1)) السهيلي، الرَّوْض الأُنف، ص 121.

(2)يعقب ابن عساكر على الرواية بالنفي حيث يقول "وهم في ذلك".

شيطنة... أبي الأعور

في سياق درجة عالية من اللوم ترد بعض الأخبار عن أبي الأعور عند البخاري، إذ تثير إحدى الروايات اسمه في مسألة اللعن، فيرد " لَمَّا بَايَعَ أَهْلُ العِرَاقِ لِلحَسَنِ قال الحسن لمعاوية " أَمَا تَعْلَمُ أَنَّ رَسُولَ الله لَعَنَ يَوْمَ الأَحْزَابِ صَاحِبَ مُقَدِّمَتِهِم وصَاحب ساقتهم، وَصَاحب مجنبتيهم،.... وَكَانَ عَلَى أَبِي الأعور اثْنَتَانِ لَعَنَهُ وَلَعَنَ قَوْمَهُ[1]، إن هذه اللعنة التي تقاسمها أبو الأعور (الابن) مع أبي الأعور (الأب)، تبدو من خلال استعراض أقوال المؤرخين وكأنها أمر مُفتعل، فالأب لا توجد عنه روايات دقيقة ولأسباب تبقى في حاجة إلى تحقيق، وكأن حياته اقتصرت على محاربة النبي، ليُلعن بسبب ذلك، في انتظار أن يظهر الابن أبو الأعور مع معاوية من جديد ليُلعن من قبل الخليفة عليٍّ، بهذا الشكل يكون البخاري - بكل أهميته كمرجع للتشريع - قد وضع الشخصية في سياق قالب من الصعب الخروج عنه (قالب سلبي). كل هذا رغم بعض الخلل في الرواية لأنه من المفترض - بمقاييس الزمن - أن يكون الأب هو المعاصر للنبيِّ ﷺ. إلا أن رواية البخاري تتعلق بأبي الأعور الابن، وهو الذي يتحدث عنه الحسن، وكأن اللعنة قد انتقلت من الأب إلى الابن وتحمّل تبعاتها حتى وإن لم يكن في حقيقة الأمر المقصود الفعلي بها. إن مثل هذه الروايات لا شك تجسيد تام لدور المؤرخين في الانجراف نحو

(1) البخاري، التاريخ الأوسط، ج1، ص98.

تجريـح أيديولوجـي يـكاد يوحـي بوجـود نيـة في الاسـتهداف[1].
فمـن شـخصية حاربـت الرسـول في المـاضي، وصـولًا إلى دور أبي الأعـور الابـن ضـد الخليفـة عـلي ومحاربتـه أيضًـا، كل هـذا يجعـل القـارئ عـلى اسـتعداد لقبـول الأمـر. إنها عمليـة شـيطنة لسـياسي وقائـد مـن غـير المنتظمـين في المسـاقات الإيجابيـة للروايـة التاريخيـة الإسـلامية، ويبـدو لنـا أن في الأمـر أكثـر مـن هـذا؛ لأن شـخصيات أخـرى مؤثـرة كانـت انخرطـت قبـل إسـلامها في محاربـة الرسـول، ولم تلقـى المصـير نفسـه. مـا الجديـد!

ويـكاد ابـن عسـاكر (مـع ابـن أعثـم) مـن المؤرخـين المهتمـين الذيـن بينـوا أن أبـا الأعـور السـلمي قابـل الخليفـة أبـا بكـر الصديـق إذ يـرد "أن أبـا الأعـور جـاء إلى أبي بكـر، فدخـل عليـه قائـلًا: " إن شـئت وجهتنا إلى عـدوك " إن هذه الروايـة على اقتضابها والتـي لم يقـدر لهـا أن تأخـذ أكثـر مـن الجملـة التـي وصفـت بهـا لو أمعنـا النظـر لهـا سنكتشـف معهـا فكـر هـذه الشـخصية، فـإذا كان أبـو الأعـور جـاء إلى الخليفـة أبـو بكـر الصديـق لعـرض نفسـه كقيـادة عسـكرية فـإن ذلـك يـدل عـلى سـعيٍ واثـق للعـب دور مـا في الحـوادث الجاريـة عـلى السـاحة بـكل مـا فيهـا مـن تغيـيرات سياسـية وعسـكرية عميقـة، خاصـةً مـع حـروب الـردة وإعـادة توزيـع الأدوار السياسـية عـلى فضـاء الجزيـرة العربيـة الواسـع.

---

(1) حتـماً لانقصـد روايـة البخـاري (أو غـيره) بـل نقصـد تحديـدًا الخلـل المـتروك دون تقريـر وجعـل عمليـة (اللعـن) بهـذا الشـكل المتماهـي بـين الأب والابـن.

فتح القُدس... حضور تاريخي مرفوض!!

ذكر أبو الربيع (ت 634هـ)[1]، أن عمر بن الخطاب خرج من الجابية إلى إيلياء، فخرج إليه المسلمون يستقبلونه، فأتاه رجال فيهم أبي الأعور السلمى، وقد لبسوا لباس الروم، وتشبهوا بهم في هيئتهم، فقال عمر: احثوا في وجوههم التراب، حتى يرجعوا إلى هيئتنا وسنتنا ولباسنا[2].

الواقع أنها رواية (أيديولوجية بامتياز)، فها هو أبو الأعور، وفي أحد أهم الأحداث التاريخية المفصلية في عمر دولة الإسلام النامية والمتوسعة شرقًا وغربًا، ورغم أنه مشارك في أحد أهم مراحل التغيير والفعل السياسي في هذا الوقت، وفي خضم الفتوحات وما يجري بها من حوادث متسارعة، لم يكن ليسلم من التقريع والذم والرفض لحضوره التاريخي في هذا المشهد المهم (فتح بيت المقدس).

فحتى الرواية التي حاولت إظهار دور ما له في عملية الفتح جعلته هدفًا لتقريع الخليفة عمر بن الخطاب ، بل والغريب أن عددًا من كبار الشخصيات الإسلامية التي كانت مع أبي الأعور في نفس الأحداث تم تجاهل نقدها ، فقط أبو الأعور يُذكر بالاسم.

---

(1) صاحب كتاب الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله.

(2) الكلاعي، الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ﷺ، ج2، ص 305.

إن هــذا النــص يكشــف بوضــوح أن الروايــة التاريخيــة – في الكثــير مــن المناســبات – كانــت تنتقــي مــا يخــدم الســياق الأيديولوجــي. فبــدلًا مــن إضفــاء نــوع مــن الُمباركــة والقبــول واعتبــار الشــخصية إحــدى القيــادات الإســلامية المشــاركة في عمليــة فتــح القــدس، إلا أنهــا هنــا تــبرر الــذم بــــمسوغ "لبــاس الــروم"، وتحولــه إلى فرصــة لتُخــرج أبــا الأعــور مــن دائــرة الخــير المتمثــل في الجهــاد وتُلحقــه بدائــرة المذمــة والانتقــاص.

قيــادة سياســية وعســكرية، يجــري تشــويهها براويــة تفقدهــا هــذا الــدرع، لكــي يصبــح مــن الممكــن في مرحلــة ثانيــة فتــح بــاب الانتقــاد والتجريــح.

يمكننــا أيضًــا أن نبحــث عــلى نحــوٍ أعمــق في رمزيــة هــذه الروايــة مــن حيــث رســم الصــورة السياســية لأبي الأعــور. فلباس الــروم يعطــي عــن أبي الأعــور إيحــاءات إخفاقيــة أو (ســلبية)، وكأننــا في الواقــع أمــام رســالة رمزيــة تقــول بــأن هــذا الصنــف مــن السياســيين صنــف لا ينتمــي للصــورة الإســلامية، بــل يــكاد يشــكل مثــال أقــرب إلى صــورة ولبــاس أعدائهــم.

أحجار على رقعة الصراع

الصحيفة المزورة

رفض سقي الماء

خدعة رفع المصاحف

مـرة أخـرى يُلْقَـى أبـو الأعـور في أتـون أزمـات أخلاقيـة تسـتوجب الإدانـة، منهـا قضيـة الصحيفـة المـزورة المنسـوبة لعثـمان بـن عفـان ، حيـث يقـول الطـبرى: إن مـن حمـل الصحيفـة المنسـوبة لعثـمان والتـي تحـرض عـلى المحتجـين هـو أبو الأعـور[1].

هكـذا بـكل بسـاطة، يحمـل أبـو الأعـور خطابًـا مصيريًـا، ويتـم العثـور لاحقًـا عليـه وهـو يحملـه لوجهـة (مـا)، ومـن ثـم (لم يُقتـل أو يعاقـب)، بـل يـتُرك!!!

الغريـب أن أحـدًا بعـد هـذا الحـدث لا يذكـر أبـو الأعـور فيـما تبقـى مـن حـوادث فتنـة صحيفـة عثـمان (اختفـي تاريخيًّـا)، أو تعمـدت المصـادر ذلـك.

بالنسـبة لأبي الأعـور يبقـى أن اغتيـال الخليفـة الثالث سـيلقي بظلالـه عـلى جميـع الأطـراف، قـد يتأكـد ذلـك بالنسـبة لـه في هـذه المرحلـة أو لاحقًـا. لكـن يظـل السـؤال، هـل بمـوت عثـمان عـلى هـذا النحـو سـيلغي أو ينهـي قصـة الكتـاب المزعـوم وحمـل أبـو الأعـور لـه شـخصيًا؟

(1) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج 4، ص 367.

فحتـى في النقاشـات حـول هـذا الكتـاب، الـذي تحـول – كـما هـو معـروف – إلى مـبرر لقتـل وخلـع عثـمان، لا يُذكَـر أبـو الأعـور، بـل تـرد فقـط إشـارات إلى مسـألة الكتـاب دون ذكـر حاملـه.

أمـا مسـألة سـقي المـاء ومنـع أبي الأعـور جيـش عـلي، فمـن اليسـير علينـا أن نفـرق بـين هـذه الروايـات التـي تصـدر عـن وقائـع تاريخيـة منطقيـة فيهـا درجـة عاليـة مـن القابليـة للحدوث، وبـين روايـات تنبـع مـن الحـرص عـلى تشـكيل صـورة أخلاقيـة معينـة. فـلا شـك أن مسـألة منعـه المـاء عـن جيـش الخليفـة عـلي يمثـل قضيـة ذات بعـد أخلاقـي.

مثـلا يـرد في تاريـخ الطـبري: " أَنَّ عليًّـا مَـرَّ عَـلَى جَمَاعَـةٍ مِـنْ أَهْـلِ الشـام يَشْـتُمُونَهُ، فَقَـالَ: والله لأَقْـرَبُ قَـوْم مِـنَ الْجَهْـلِ، قَائِدُهُـمْ وَمُؤَذِّنُهُـمْ مُعَاوِيَـةُ وَابْـنُ النَّابِغَـةِ، وَأَبُـو الأعـور السُّـلَمِيُّ "[1]. ثَمَّـة أشـكال أخـرى عـلى النمـط نفسـه مـن هـذه الروايـة لكـن مـن شـأنها أن تخفـف الذنـب عـلى أبي الأعـور. فالمقـدسي يذكـر أن معاويـة كان مـع أبي الأعـور عـلى المـاء فيقـول: " جـاء معاويـة وأمـر أبـا الأعـور السـلمي أن يمنـع أصحـاب عليٍّ المـاء"[2]، لكـن هـذا الشـكل لا يـتردد كثـيًرا لأن مجمـل الروايـات المتعلقـة بحادثـة منـع المـاء تجعـل أبـا الأعـور هـو المنفـرد بهـذا الفعـل المُـراد لـه أن يكـون جريمـة لا أخلاقيـة.

(1)الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج5، ص 45.
(2)المطهر بن طاهر المقدسي ، البدء والتاريخ، ص 217.

يقــول ابــن العديــم أن أبــا الأعــور الســلمي بــادر للــماء فصــف خيلــه ومنــع أصحــاب عــليٍّ، وأن معاويــة بعــث إلى أبي الأعـور لكـي يتخـلى لهـم عـن المـاء، فرفـض أبـو الأعـور وقـال" والله لا شربــوا منــه شربــةً"[1]. ودون الخــوض في حقيقــة رفــض أبي الأعـور طاعـة معاويـة[2] نسـتطيع أن نتلمـس أن الإصرار كبـير عـلى جعـل أبي الأعـور موغـلًا في نزعـة الـشر. فحتـى الروايـات التـي بـرَّأت معاويـة كان عليهـا أن تجـد مـن يتحمـل هـذا الـوزر الأخلاقــي. كان أبــو الأعــور هــو مــن تلقــى التبعــات، وأُلقــى عليـه اللـوم، فابتعـدت المسـؤولية عـن معاويـة وأسـندت إلى أبي الأعــور.

أمــا إذا أردنــا أن نقــوم بفحــص منطقــي مُبسَّــطٍ للواقعــة فيمكننـا أن نلحـظَ أن هنـاك جيشـان يسـتعدان للقتـال، كل منهـما يسـعى لكسـب مواقـع اسـتراتيجية اسـتعدادًا للنـزال. فهـل مـن المقبــول أن يــترك قائــد عســكري مكانــه- حتــى وان لم تكــن المعــارك قــد بــدأت - للطــرف الآخــر أو لقيــادة أخــرى؟ هــل مـن المقبـول في السياسـة أو العمـل العسـكري أن يتنـازل قائـد أو يـترك لأخـر موقعًـا بهـذه الأهميـة لمجـرد أن في هـذا الفعـل مسـألة أخلاقيـة؟ فكيـف الحـال والجيشـان عـلى بعـد خطـوات مـن رفـع السـيوف عـلى بعضهـم بعضًـا. إن أي قيـادة أخـرى، وفقـط مـن منطلـق الأبعـاد السياسـية والعسـكرية، مـا كان لهـا أن تُـلام عـلى

(1) ابن العديم، بغية الطلب في تاريخ حلب، ص 316.

(2) وإن أكدها ابن عساكر في أحد رواياته.

هـذا الفعـل. بـل لـو حاولنـا أن نذهـب لمـا هـو أبعـد مـن ذلـك، هـل سـيقل عـدد ضحايـا المعركـة (المنتظـرة) وضحاياهـا بعـد قليـل حـين يتلاقـى الجيشـان في حـال تـرك أبـو الأعـور مكانـه ليسـقي جيـش علـيٍّ وليظهـر هـذا الفعـل الأخلاقـي!

روى الطـبري: "كان رسـول الله ﷺ يتخـبر عـن بـدر، فلـما بلغـه أن المشركـين قـد أقبلـوا سـار رسـول الله إلى بـدر- وبـدر بئـر- فسـبقنا المشركـين إليهـا([1])" بـل إن الحبـاب ابـن المنـذر - ومـن نفـس المنطـق (العسـكري) سـأل الرسـول ﷺ كـما أورد ابـن هشـام في سـيرته: "يارسـول الله أرأيـت هـذا المنـزل؟ أمنـزلا أنزلكـه الله ليـس لنـا أن نتقدمـه، ولا نتأخـر عنـه، أم هـو الـرأي والحـرب والمكيـدة؟ قـال: "بـل هـو الـرأي والحـرب والمكيـدة". فقـال: "يـا رسـول الله، فـإن هـذا ليـس بمنـزل، فانهـض بالنـاس حتـى نـأتي أدنـى مـاء مـن القـوم، فننزلـه، ثـم نغـور مـا وراءه مـن القلـب، ثـم نبنـي عليـه حوضـا فنملـؤه مـاء"، ثـم نقاتـل القـوم، فنـشرب ولا يشربـون، فقـال رسـول الله ﷺ: "لقـد أشرت بالـرأي".

قـد يعـترض البعـض عـلى إيـراد هـذا التشـبيه، وهـو اعـتراض مـردود، لأن الحديـث يتعلـق ببنيـة السـياق المنطقـي الـذي ورد فيـه النـص بعيـدًا عـن مسـألة (الدينـي والمقـدس).

إذًا الـذي لـوَّن الروايـة (لأبـى الأعـور) البعـد الأخلاقـي

---

(1)الطبري، تاريخ الرسل والملوك،ج2، ص 424.

والديني. فالأخير لم يتحرك فيما يبدو لنا سوى من منطلق منطقي، منطلق أظهر فيه قدرًا من الواقعية (المقبولة عسكريًا) بما أنه مسيطر على موقع يمثل أحد أدوات الانتصار ويستحوذ عليه، ومن غير المبرر ترك المكان والتخلي عنه، كذلك يجب الأخذ في الاعتبار أن الفريقين لم يكونا يتقاتلان على كسب غنائم أو أرض بل على (النفوذ وفرضه). هذه الحقيقة (المجردة) لم تكن لتشغل الرواة، بل كان الحرص أكبر على أن تخرج الشخصية في النهاية مُتحمِّلةً لكامل المسئولية عن منع سقاية الماء.

هنا تحديدًا ربما نتعجل إرفاق مشهد أخلاقي آخر وعرضه، مشهد نستحضر فيه المهلب بن أبي صفرة حيث يورد الطبري خبر حصار مصعب للمختار في القصر، ومحاولته التضييق عليه،إلا أن الطعام كان يصل إليه عن طريق النساء. فلما علم مصعب بذلك استشار المهلب، فقال له المهلب: اجعل عليهم دروبا حتى تمنع من يأتيهم من أهليهم وأبنائهم، وتدعهم في حصنهم حتى يموتوا فيه" التفكير العسكري نفسه لقادةٍ يمتلكون أدوات يمكن بها كسب المعركة فهل من المنطقي التنازل عن هذه الأدوات بسبب عدم الرغبة في التجريم الأخلاقي، بل ربما تبدوا المفارقة الأكثر غرابة هنا أن ما أشار به المهلب مَرَّ (أخلاقيًا) من تحت سلطة النص، لكن تزول الدهشة حين النظر للجهة التي تعلق بها هذا الأمر ففي حالة أبي الأعور المستهدف من منع سقي الماء هم جند ومعسكر الخليفة عليٍّ، لكن في حالة المهلب فالمستهدف هم طائفة لم تزل

سـهام الاتهـام تاريخيًّـا توجـه لهـم ولقادتهـم!

لا غرابـة بعـد هـذا أن نجـد أبـا الأعـور في روايـة أخـرى في دور شـاهد زور. حيـث يشـير بـن الأثـير أن أبـا الأعـور كان أحد الشـهود الـزور الذيـن أعدهـم معاويـة للشـهادة أمـام شرحبيـل ابـن السـمط [1]. هـذه الروايـة التـي تحتـاج لمزيـد مـن التحقيـق والتحليـل - فيـما يبـدو لنـا - إلا أنهـا حققـت هدفًـا دعائيـا آخـر حـول معسـكر معاويـة وقياداتـه المعاديـة لعـليٍّ، روايـة توبيخيـة توحـي بـأن معسـكر معاويـة يخلـو مـن أي التـزام أخلاقـي. لكـن مـا يبـدو أن المشـهد لـن يكتمـل إلا بجعـل أبي الأعـور - هـو المُجَـرَّم أخلاقيًـا، مجرمًـا لأنـه وافـق عـلى الشـهادة، بـل وليكتمـل المشـهد تـأتي كذلـك قضيـة رفـع المصاحـف - المتهـم بهـا أبـو الأعـور - حيـث يقـول الدينـوري وابـن الأعثـم الكـوفي أن أبي الأعـور السـلمى أقبـل عـلى بـرذون[2]، وعـلى رأسـه مصحـف، ينـادى: يـا أهـل العـراق، هـذا كتـاب الله حكـمًا بيننـا وبينكـم[3]. بهـذا تتحـول مسـألة رفـع المصاحـف والخـداع إلى قضيـة جديـدة لربـط الشـخصية بانعـدام الأمانـة. لم يتحـول أبـو الأعـور إلى شـخصية مخادعـة فحسـب، بـل أيضًـا متلاعبـة بـما هـو دينـي ومقـدس، ومُدنَّسـة بهـذا العمـل لمـا هـو في وعـي المسـلمين أصـل القداسـة (المصحـف)، ويتحـول أبـو الأعـور لا إلى رجـل

---

(1)ابـن الأثـير، أسـد الغابـة في معرفـة الصحابـة، ج2، ص-621 كذلـك القرطبـي، الاسـتيعاب في معرفـة الأصحـاب، ج2، ص 700.

(2)(بغل).

(3)الدينوري ، الأخبار الطوال، ص 189.

سياسـة وحـرب فحسـب، بـل إلى مسـتهتر وغـاش للأمـة باسـتعمال المصاحـف في خدعـة كـما صورتهـا معظـم مصـادر وكتـب التاريـخ الإسـلامي التـي تناولتهـا.

إنَّ تصويـر المصـادر لأبي الأعـور وهـو يقـوم برفـع المصحـف تبـدو وكأنهـا خدعـة بالنسـبة لفريقـه الـذي حـاول تصويـره وكأنـه (المتحـدث بلسـان الإسـلام)، وعليـه يسـتطيع القـارئ استشـفاف ما توحـي بـه الروايـات مـن أن هـذا الفعـل - الـذي قـام بـه في حقيقتـه - بمثابـة بديـل عنـه، خدعـة لـن يكشـفها سـوى أن مفاهيـم لغـة الأيديولوجيـة المغلفـة بهـا لـن تظهـر إلا لاحقًـا بعـد أن يكـون مـن قـام بهـا قـد أحـرز نجاحًـا مـا عـلى خصـوم سياسـيين في الأصـل.

إن الصفـة الظاهـرة إذًا لمـا قـام بـه أبـو الأعـور في عمليـة رفـع المصاحـف أنهـا أتاحـت لـه (وفريقـه) منفـذا طارئـا هـم في أشـد الحاجـة لـه، ممـر وحصـن لا يمكـن اختراقـه وهـو النـص القـرآني، وعليـه يكـون فريـق أبي الأعـور وضـع عليًّـا - في ظـروف هـذا التناقـض - أمـام خياريـن:

□ الأول الامتثال (لكنه امتثال بطعم الهزيمة).

□ الثـاني مصـادرة النـص القـرآني وإيجـاد نـص شرعـي بديـل (لكنـه ليـس القـرآن) وهـذا لـن يكـون مقبـولًا، وعليـه تـم الالتجـاء والقبـول بالأمـر الأول.

كالعـادة إذًا النصـوص التـي جعلـت دور أبي الأعـور دورًا تحريضيًـا بامتيـاز في الفتنـة نجحـت مـرة أخـرى في تعبئـة المنـاخ

لقبــول كل مذمــة ونقيصــة ترتبــط بــه فيــما بعــد، حتــى وإن كان تصرفــه قــد أمــلاه الواقــع السـياسي وفرضتــه عليــه الأحــداث. إنهــا قضيــة ربــط التاريخــي بالأخلاقــي وبالدينــي، التــي نجــح الــرواة والمؤرخــون في رســمها في شــكل مشــاهد، وجعلــت قــارئ النصــوص يســلم بــما يقــرأ ويعتــبره إخبــارًا تاريخيًــا حقيقيًــا. فهــذا ابــن أَعْثَــم الكــوفي يذكــر أن معاويــة قــام في النــاس خطيبًــا: " أنتــم أهــل الحــق، وقــد قــام بأمــور النــاس أبغــض النــاس إلي عــليّ بــن أبي طالــب، ولنخوضــن إليــه حومــات المــوت[1]..."، وأكمــل كلامًــا ومــن ثــم قــام أبــو الأعــور فقــال " يــا معاويــة! إنــك والله مــا تسـتطيع أن تـضرب النــاس بمثــل مــا يضربهــم عــليٌّ بــن أبي طالــب! ولا يرجعــون مــن أمــرك إلى مــا يرجعــون إليــه مــن عــليّ، وإنــك لتحملنــا عــلى أمــر لــو تركتــه لحملنــاك عليــه، ونحــن معــك عليــه "[2]. دعنــا ممــا تحملــه الروايــة مــن عبــارات تحريضيــة بامتيــاز، لكــن هــل مــن المقبــول الإصرار عــلى الحشــد العــالي لعبــارات الشــحن التــي تجعــل أبــا الأعــور هــو المــصر الرئيــس عــلى المــضي قدمًــا في الــصراع أيًّــا كانــت النتائــج والتبعــات، بــل والرافــض وعــلى نحــوٍ قاطــع لأي فرصــة مــن فــرص الســلام.

نــراه (ابــن أعثــم الكــوفي) يتنــاول في موضــع آخــر قــول أبي الأعــور: "يــا معاويــة! إننــا لــو شــهدنا مقتــل عثــمان وعرفنــا مــن قتلــه بأعيانهــم لمــا دخلنــا في ذلــك الشــك، ولكننــا نصدقــك عــلى

(1)ابن أعثم الكوفي ، الفتوح، ج2، ص532.

(2)ابن أعثم الكوفي ، نفسه ، ج 2، ص532.

ما غاب- والسلام"[1]. يظهر الإصرار على إظهار أبي الأعور في كلا المشهدين بصورة تحريضية (لا أخلاقية)، ففي هذه المواضع (الفتنة) لا يأتي ذكره - في أغلب الأحيان - إلا وهو يتخذ أشد المواقف تجاه (عليّ) ويمارس الحيل.

الغريب أن نكتشف لاحقًا - بعد انتهاء صفين والتحكيم ومع استعراض الروايات - أن أبا الأعور لم يكن له حضور في الاتفاقيات التي جرت وترتبت على وقف القتال، إذ لا ذكر تاريخي له في الاجتماع الذي تم الاتفاق فيه على حضور الحكمين والمُعين في رمضان عام 37هـ، بعد ثمانية أشهر من القتال[2]. يبدو كذلك أن دور المصلح الذي أسنده ابن أعثم الكوفي لأبي الأعور في الدعوة للحكم بالقرآن لا يتسق مع صورته التي رسمها له هو ذاته (صورة الغش واستغلال أو التلاعب بالنص القرآني). فقط إذًا تتلون دعواه للسلم والإصلاح بلون الدعوة إلى الغش (لا أكثر).

هكذا حالت معظم هذه الحوادث دون ظهور أي أمل لتحسين صورة أبي الأعور لاحقًا في القراءة التاريخية.

بغض النظر عن تقويم الأفكار، والأسباب التي انتهجها معاوية، ومدى توافقها مع سياقات المسار التاريخي لإدارة الصراع في مشهد الصراع الملحمي الأول بين المسلمين،

---

(1)نفسه، ج2، ص565.

(2)الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج5، ص 53 54-.

فـإن تلـك المعطيـات ربـما تعطـي تصـورًا أكثـر نضجـا لمسـببات التغيـير والفعـل التـي اتخذتهـا مثـل هـذه الشـخصيات الإسـلامية، معطيـات ومسـببات كانـت خطـوة متقدمـة تاريخيًـا نحـو شـكل مـن أشـكال التحـول الكيفـي الـذي هيـأ لمرحلـة التغيـير السـياسي. لقـد اسـتطاعت تلـك المعطيـات والمواقـف التـي اتُّخـذت أن تكـون فيـما بعـد الأسـس للإطـر السياسـية المناسـبة لمنظومـة السـلطة، التـي اسـتخدمتها وكانـت أحـد أهـم أدوات الاسـتقرار والتمكـين في الحكـم بالنسـبة لهـا.

إن انخـراط أبي الأعـور في أيـة مبـادرة يقدمهـا جيـش معاويـة كان انخراطًـا طبيعيًـا ومنطقيًـا، فالدعـوة مثـلًا للمفاوضـات ووقـف القتـال كانـت دعـوة نموذجيـة منطقيًّـا لوقـف الخسـائر لـكلًا مـن الطرفـين، نقـول ذلـك دون أن نُهمـل أن مصـادر التاريـخ ربـما حاولـت الإيحـاء أو تحقيـق الربـط بقضيـة الـولاءات والتحالفـات، ونقصـد الحلـف القديـم بـين (القرشـية وبنـي سُـلَيْم). فهـما الحليفـان الرئيسـان ضـد النبـي ﷺ، فبني سُـلَيْم كان لهـم يـد في موقعـة بئـر معونـة والرجيـع[1]، حيـث يذكـر البـلاذري

(1) الكـدر، مـاء مـن ميـاه بنـي سـليم، ففـي السـنة الثانيـة بعـد الهجـرة تواتـرت أنبـاء عـن أن بنـي سـليم تحشـد لغـزو المدينـة، الأمـر الـذي اسـتدعى تحـرك قـوات لمواجهـة هـذا التهديـد. وقـد باغتهـم الرسـول ﷺ بالفعـل في موضـع الكُـدر – وهـو مـاء لبنـي سـليم يقـع في طريـق مكـة والشـام، وانسـحب بنـو سـليم وتركـوا خلفهـم بعـض الغنائـم، وأقـام النبـي ﷺ في ديارهـم ثلاثـة أيـام، ثـم رجـع إلى المدينـة. – ابـن هشـام، السـيرة النبويـة، ج1، ص46، (غـزوة بنـى سـليم بالكـدر).

أنه في العام الثالث الهجري خرج الرسول ﷺ إليهم " لكنهم كانوا قد تفرقوا فانصرف عنهم[1]. إذًا هل كان للغدرِ ببعثة الرسول ﷺ من بعض بني سليم في بئر معونة والتي اتهم فيها (الأب) سابقًا دورٌ ما في استمرار ملاحقة (الابن) أبي الأعور تاريخيًا وتجريمه[2].

أحسب أن الإجابة ليست فيما تم حشده من مشاهد لا أخلاقية كان أبو الأعور حاضرًا فيها. الإجابة الحقيقية تصبح كاذبةً لو تجاهلت حقيقة الدور الذي كان يلعبة، ولو تجاهلت أيضًا طبيعة الصراعات التي كانت تدور ويصنعها من خلال منظومة - كان هو نفسه - أحد الفاعلين فيها، نزعم أن أبا الأعور السلمي لم يكن له حضور قوى في بعض المواقع الاجتماعية، عكس حضوره العسكري، الذي وقف نفسه من خلاله لخدمة معسكر معاوية بن أبي سفيان، وسخر قوَّته في توطيد أركان خلافة بني أمية، وحراستها، وحماية سلطانها، لكن هذا الزعم قد ينقضه ما جاء "أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ كَتَبَ ابْعَثُوا إِلَيَّ مِنْ كُلِّ بَلَدٍ بِأَفْضَلِهِمْ، فجاء أبو الأعور واحدًا منهم"[3].

(1)البلاذري، جمل من أنساب الأشراف، ج1، ص 311.

(2)البلاذري، المصدر نفسه، ج1، ص 375.

(3)ابن عساكر، تاريخ دمشق ، ج3، ص 107.

ملامح الانبعاث الأيديولوجي

أبو الأعور - البداية والنهاية

إنَّ المسألة التي شكلت أساسًا لطرح نفسها في نظرنا أن معظم الروايات التاريخية التي تناولت أبا الأعور السلمي، وعلى الرغم من كل ما أثقلها من تجريح وانتقاد، أثبت ليس إغفال أن هذه الشخصية تم استهدافها فقط، إنما أثبت غياب تناولها على نحوٍ منطقي، شكل يعيد قراءة أبجديتها في مصادر التاريخ من منطلق بعيد عن الاستهداف والاتهام، أبو الأعور قيادة عسكرية، قيادة سياسية ، قيادة امتلكت مناط الصراع من أجل البقاء في إطار تحديات لها خصوصيتها، سواء من جهة خصوصيتها الزمانية أو المكانية، إن مختلف الروايات، المتقدمة منها والمتأخرة، تتفق على أن أبا الأعور السلمي طرح نفسه في الصراع الدائر، كقائد حرب وسياسي من دون أدلجة، واستطاع أن ينال ثقة أعلي سلطة، تلك التي كان يمثلها معاوية بن أبي سفيان منفردًا في الشام. في المقابل نجد أن الرواية التاريخية حاولت الانتصار الأدبي لمعسكر الخليفة عليّ (ابن عم النبي وصهره)، دون اللجوء لتشويه وتسفيه شخص معاوية (كاتب الوحي السابق والصحابي الجليل)، فلجأت إلى إلصاق عمليات اللعن والتشويه والتسفيه بالقيادات التي حوله، والتي كان من بينها أبو الأعور السلمي وغيره، كعمرو بن العاص مثلًا، ووصفتهم بالطامعين والطامحين للمكاسب السياسية والاقتصادية والمفترين للمبادئ الدينية.

فحينما نفحص واقع اللعن هذا نكتشف أنه لا يظهر بقوة إلا حين يكون أبو الأعور في معسكر معاوية. نلاحظ كذلك أن المؤرخين لم يحاولوا فك الالتباس والخلط بين(الأب) و(الابن)، مما يعطي الدليل على عدم رغبتهم في ذلك. دون هذا لا يمكننا أن نفهم وجود أبي الأعور - وهو من لعنه الرسول - كقائد في اليرموك على كردوس من كراديسها وقائد في الفتوحات البحرية ، كما تؤكد ذلك المصادر غير الإسلامية[1].

في ضوء هذا النسيج الإخباري لا يمكننا أن نفهم رضا الخليفة عُمر أن يكون أبو الأعور أحد قادة جيوش أبي عبيدة بن الجراح، في عمليات الفتوح وإخضاع أهل الشام وما حولها لاسيما لو كان على علم بمسألة اللعن هذه، وما كان أبو الأعور أن يكون قائدًا لجيش المسلمين في غزو قبرص سنة 27 هـ، وغزوهم عمورية قبل ذلك. فحتى قصة الخطاب المنسوب لعثمان والذي تقول الرواية أن أبا الأعور حمله، فهو يرتدي أيضًا كساءً قصصيًا، ويطرح في حقيقة الأمر مسألة أخرى وإن كانت ثانوية.

فهذا الخطاب سواء أكان موضوعًا أم لا كأنه أتى ليُحمل معاوية - لاحقًا - جزءًا من المسئولية المباشرة عن مقتل عثمان، وذلك لأن أبا الأعور السلمي (المتهم بحمله) ارتبط بقوة بمعسكر معاوية. في هذا السياق تأتي رواية سرقة كتاب

(1)أبو الأعور القائد العسكري في كتابات غير المسلمين.

مـن أبي الأعـور حـين بعثـه معاويـة لمـصر كـوالٍ لهـا بعـد إمسـاك عمـرو بـن العـاص لخراجهـا فقـد أشـار ابـن عسـاكر " إنَّ عمـرًا بـن العـاص احتجـز خـراج مـصر فعزلـه معاويـة واسـتعمل أبـا الأعـور السـلمي، فبلـغ عمـرو أن أبـا الأعـور سـيقدم ومعـه كتـاب العـزل فصنـع طعامًـا، فلـما قَـدِمَ أبـو الأعـور السـلمي وأخـرج كتـاب معاويـة قـال عمـرو، دع الكتـاب وكُل، فوضعـه وجعـل يـأكل، فاسـتدار وردان - وزيـر عمـرو بـن العـاص - فأخـذ الكتـاب فلـما فـرغ أبـو الأعـور طلـب الكتـاب فلـم يـر شـيئًا، فقـال لـه عمـرو أليـس إنـما جئتنـا زائـرًا لنحسـن إليـك ونكرمـك، قـال اسـتعملني أمـير المؤمنـين وعزلـك، قـال مهـلًا لا تظهـرنَّ هـذا، نحـن نصلـك ونحسـن جائزتـك، وبلـغ معاويـة الخـبر فضحـك وأقـر عمـرا عـلى مـصر "[1]، إن مـا يميـز هـذه الروايـة أنهـا تشـكل صراعًـا بـين ثلاثـة أطـراف ورمـوز (الدهـاء المنسـوب لعمـرو بـن العـاص يتضـح مـرة أخـرى ولكـن هـذه المـرة يسـتخدم ضـد معسـكر معاويـة بذاتـه وضـد رجالاتـه، كـما أن المتأمـل في القصـة يجـد أنهـا أشـبه بالـسرد المتطـور لإثبـات الصفـات الشـخصية لعمـرو بـن العـاص مقابـل معاويـة. وأن اسـتخدام أبي الأعـور قـد وُظِّـف في النـص لاسـتكمال القصـة على نحـوٍ غـير مبـاشر، واسـتكمالًا للحبكـة القصصية. وعـلى الرغـم مـن البسـاطة التـي يتسـم بهـا نسـيجها يمكـن الاعتقـاد أنهـا قـد تكـون وضعـت لتؤسـس لمغـزى أعمـق، وتدلـل عـلى الـصراع

(1) ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج 62، ص 432.

الدائـر بـين قـادة معـارك الفتنـة الكـبرى في معسـكر معاويـة عـلى تقاسـم الغنائـم، وجعلهـم مجـرد أصحـاب مطامـح شـخصية[1].

يُنسـب كذلـك لأبي الأعـور قـول الشـعر، ثـم تلبسـه لبـاس الفخـر الجاهـلي المذمـوم. يذكـر ابـن الأعثـم الكـوفي أنـه – وبعـد أن طعـن الأشـعث شرحبيـل – قـال أبـو الأعـور: " يـا شرحبيـل طعنـك الأشـعث بـن قيس، فقـال: نعـم وهـو سـيد في قومـه وأنـا سـيد في قومـي، فـإن كنـت صادقًـا فاخـرج إليـه فخـرج أبـو الأعـور وجعـل يرتجـز: أنـا أبـو الأعـور واسـمي عمـرو... ثـم حمـل عليـه الأشـعث فطعنـه طعنـةً كادت أن تـأتي عـلى نفسـه، فـولى عنـه أبـو الأعـور جريحًـا[2] (بالرغـم مـن أن أغلـب الروايـات لا تتحـدث عـن إصابـة مُنـي بهـا أبـو الأعـور في الصراعـات التـي كانـت تـدور في صفـين، خاصـة وابـن الأعثـم يقـول كادت تـأتي عـلى نفسـه)، وأن أبـا الأعـور طـوال الحـرب والـصراع كانـت تصـوره الروايـات بكامـل قدرتـه الجسـدية والعقليـة ولم يغـب عـن السـاحة في أي وقت مـن الأوقـات، بـل أن ابـن أعثـم الكـوفي بذاتـه يعطـي أبـا الأعـور دورًا كبـيرًا في نهايـة المعركـة، وبعـد ذلـك بوقـت قصـير يتـولى حمـل المصاحـف منهيًـا الـصراع بالخدعـة والدعـوة إلى التحكيـم.

إن القــراءة المُحايــدة، وتفكيــك الروايــات والنصــوص المتعلقـة بـأبي الأعـور والمسـار المقبـول لهـا منطقيًـا يدلـل عـلى

(1)انظر خالد كشك – المقدمة.
The Historians' Muawiya: The Depiction of Muawiya in the Early Islamic Sources- VDM Verlag Dr. Müller (2008)

(2)ابن أعثم الكوفي، الفتوح، ج3، ص 18.

أنـه امتلـك هـذه الصفـات والخصائـص التـي أهلتـه ليكـون مـن خاصـة قـادة معاويـة وقرينًـا لعمـرو بـن العـاص وأحـد صنـاع القـرار والمقربـين مـن دوائـر الحكـم (أحـد الرؤسـاء القبليـين ومن زعاماتهـا). أبـو الأعـور لايعـدو كونـه (مقاتـلًا فاعـلًا وسياسـيًّا ماهـرًا وقائـدًا شـارك بكثافـة وأسـهم في التغيـير السـياسي في القـرن الأول الهجـري). كان مـن كبـار قـادة الفتـوح الإسـلامية وكان لـه دور في فتـح طبريـة"[1] والتـي ربـما يكـون بـلاؤه في المعـارك أحـد أسـباب تسـلمه مهمـة قيـادة الجيـش المتوجـه لهـا[2]. فقـد اسـتُخْلِفَ أبـو الأعـور عَـلَى الأُرْدُنِّ[3] وهـو أحـد قيـادات معاويـة المؤثريـن المـوكَّل رأسًـا مـن قبلـه لحجـز وصـد جيـش الخليفـة عـليّ وإيقـاف تقدمـه. وكان أحـد أهـم مـن استشـارهم معاويـة وأخـذ برأيهـم في تدعيـم سـلطته بمـصر بعـد توقـف القتـال، حيـث يذكـر أن معاويـة جمـع - بعـد أن سـلم أهـل الشـام لـه بالخلافـة بدومـة الجنـدل - أُمَـرَاءَهُ - وكان منهـم أبـو الأعـور وعَمْـرَو بْـن الْعَـاصِ - فاستشـارهم في المسـير إلى مِـصْرَ[4].

إن اسـتعراض الأدوار التاريخيـة التـي شـارك فيهـا أبـو الأعور وتحـرك مـن خلالهـا في بدايـة القـرن الهجـري الأول توحي أنـه كان

---

(1)ابن كثير، البداية والنهاية، ص31.

(2)الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج3، ص444.

(3)ابن كثير، نفسه، ج7، ص 54 (نقلاً عن وداد القاضي).
Population census and land surveys under the Umayyads (41-132/661-750) der Islam, 2006/ Vol.83.

(4)ابن كثير، نفسه، ج7، ص 347.

يتحـرك مـن منطلقـات سياسـية واقعيـة سـاهم بهـا في التغيـير. كان أبـو الأعـور فيـما يبـدو لنـا يتحـرك بعـد تقييـم الأوضـاع والحـوادث الجاريـة فعـلًا، أمـا الأهـداف الدينيـة والأيديولوجيـة المستوحاة مـن قبـل الـرواة والمؤرخـين فهـي لا تصمـد كثـيرًا إذا مـا نظرنـا إلى أعمالـه مـن منظـورٍ خـارج دائـرة هـذا التوظيـف.

إذًا يمكننـا أن نتفهـم أن هنـاك عوامـل دفعـت الـرواة أن يلبسـوه كسـاء السياسـة والانحيـاز، فالدوافـع (الأبـرز) تتمثـل في الـصراع السـياسي والتصـارع السـلطوي الـذي كان يجـري بـين أطـراف النـزاع (عـلي ومعاويـة). فقـد جـاءت أغلـب الأدوار التاريخيـة في النصـوص والروايـات التـي تتنـاول شـخصيته - سـواء مـا كان هـو صانعًـا للحـدث نفسـه، أو مـا كان مُنغمِسًـا في خضمـه واسـتتبعه - لتبـدو لنـا - إذا مـا جُـردت ممـا علـق بهـا - عاكسـة للحالـة السياسـية الطبيعيـة التـي صبغـت الأحـداث في تلـك الفـترة. فأبـو الأعـور وأمثالـه يتحركـون مـن منطلقـات القـدرة عـلى تحقيـق التحالفـات مـع الأطـراف التـي تسـتطيع أن تقـدم مكتسـبات ومصالـح. فالخـير في هـذه الفـترة خـير نسـبي، لا يتطابـق مـع مفهـوم الخـير كـما يتبلـور عنـد الـرواة حـين يدينـون الأطـراف المناهضـة لمـا اعتـبروه مُقَدَّسًـا. فأبـو الأعـور شـخصية وزعامـة قبليـة وقيـادة سياسـية وعسـكرية كانـت تتحـرك وفـق مصالـح ومبـدأ المكسـب والخسـارة وبعيـدًا عـن دلالات الدينـي وإسـقاطاته التـي ألبسـتها لـه كتـب التاريـخ. لكـن، لأسـباب ودوافـع كثـيرة ومعقـدة تمـت إعـادة صناعـة هـذه النصـوص

والمرويات فيما بعد وفق رؤى المصالح والتوجهات المطلوبة. وربما تكمن هنا أصل إشكالية أبي الأعور السُّلمي في مصادر التاريخ.

إن طبيعة الفعل السياسي لأبي الأعور هي طبيعة صادقة لتمثيل السياسيين في ذلك العصر، إنه ببساطة أحد زعماء القبائل الفاعلين بقوة. فكل فعل سياسي غالبًا كان مكللًا بالنجاح، فقط صناعة التاريخ بأحكامها المسبقة لم تنظر إليه سوى من زاوية مثالية وألقت عليه وزر الذنب بأنه لم يكن الشخص النموذجي المطلوب. فسيرة أبي الأعور لا تتطلب - كما لا تستدعي - أن نقرأ تحركاته من منطلقات خيرية أو أخلاقية، على مقياس الخير والشر، الحق والباطل، بل قراءتها من مُنطلق المصالح السياسية للأطراف، أو المنظومة التي كان يعمل داخلها.

أبو الأعور: الشخصية التاريخية لم ينجح الرواة في تجاهلها أو الاستغناء عنها، وذلك لسبب بسيط وهو أنها كانت تمثل المحرك الواقعي والمنطقي للأحداث بعيدًا عن النموذجية التي لا يمكن أن يكون لها تأثير على الواقع التاريخي. كان أبو الأعور يتحرك على نحو طبيعي، يقاتل كما هو مطلوب منه ويتوقف كما هو مطلوب منه، وليس وفقًا لأيديولوجيا قد تقطعه من المنظومة التي وُجِدَ فيها.

هو زعيم قبلي وقيادي قبل أن يكون شخصية دينية، لذا ليس مطلوبًا منه أن يؤدي أكثر من هذا الدور، ومن

ثـمَّ لـو تـم حـذف المشـاهد التاريخيـة التـي كان فيهـا أبـو الأعـور يتحـرك بهـذه المنطقيـة العاليـة فـإن النـصَّ سـيختلُّ حتـمًا، ويصبـح منقوصًـا وغـير مكتمـل. إنهـا الحقيقـة التـي مـا كان بإمـكان المؤرخـين القدامـى أن يقدموهـا لنـا. فرغـم الاتهامـات والتشـويه والتشـكيك التـي طالـت شـخصية أبي الأعـور، لم تسـتطع الروايـة التاريخيـة الإسـلامية أن تسـتبطن واقعيـة الـدور الـذي لعبـه في المشـهد والنـص التاريخـي، وأصر أصحابهـا عـلى توظيـف هـذا العمـل التاريخـي لتلقـي عليـه أسـباب اللـوم والشـيطنة. أبـو الأعـور أنمـوذج آخـر مـن النـماذج التـي كانـت تتحـرك وفـق مقيـاس المكسـب والخسـارة (البراجماتيـة)، كل مـا في الأمـر أن هـذا المبـدأ لم تسـتوعبه الروايـة بسـبب انحيازهـا إلى أدوات غيرهـا (المثاليـة، الخـير، الـشر، القداسـة، الحـق، الباطل).....إلـخ.

الفصل

الثالث

3

عبد اللّٰه بن خازم

« علم من عرفني أني بصير بالفرص،

وثاب عليها، وقــاف عنــد المهالك»

"الاستقطاب النخبوي"

من غير المفاجئ أن يشكل ابن خازم نمطًا مختلفًا لطبقة الشخصيات والزعامات الإسلامية (البراجماتية) الذين رَصدت المصادر التاريخية على نحوٍ عفوي جوانب من صراعاتهم لخلق مساحات ذاتية في الفعل السياسي الإسلامي في القرن الأول.

لقد تحرك ابن خازم في كثير من الأوقات، وراح يوسع وبقوة لضمان مكتسبات شخصية له بعد أن أملت الأحداث المستجدة على الساحة السياسية أن يتحرك في عدة مرات بدافع ذاتي (ومنفردًا).

لم يُمنح ابن خازم فرصة الترقي السياسي، بل خلقها بإمكانات شخصية، وبعمل مصلحي دؤوب، عمل لم يغفل معه احتمالات التطور لنيل مصالح ومكتسبات وأدوار كان يدرك مدى صعوبتها وخطورتها، ولم يكن مرفوضًا في كثير من المرات تمسكه بالعصبية القبلية من أجل تحقيق هذه المزايا والوصول لها.

تقـرُّ جميـع المصـادر أن ابـن خـازم وصـل لمـا وصـل إليـه مـن ترقـي قيـادي وسـلطوي عـبر (خدعـة)، وبهـذا يكـون أنموذجـا آخـر مـن هـذه القيـادات والزعامـات الإسـلامية التـي تـم تحريكهـا بـين ثنايـا الحـوادث التاريخيـة بعيـدًا عـن الحمايـة التقديسـية، وعـن المقاييـس المتعلقـة بجدليـة الخـير والـشر.

لعـل مـا يميـز ابـن خـازم عـن الآخريـن أنـه امتلـك في وقـت مبكـر - وليـس دائـمًا- تصـورًا لمـا يريـد، حيـث يمكـن اعتبـاره نمـوذج اتُخـذ فيـه طبيعـة التجربـة كوسـيلة للوصـول إلى السـلطة، وكحقيقـة تخـدم بجانـب الطمـوح منظومـة السـلطة والقبيلـة التـي تنتمـي إليهـا.

فكيـف قـدم ابـن خـازم نفسـه، وكيـف وصـل للسـلطة، وكيـف حـاول الاسـتقلال بهـا لاحقًـا، بـل وكيـف وقـف في فـترة مـن الفـترات بمصـاف قيـادات المنظومـة (المعارضـة) المقبولـة للحكـم (كابـن الزبـير ومصعـب والحسـين).

إن النظـر لإحـدى الروايـات - والتـي كان ابـن خـازم حاضرًا فيهـا (كرمـز قيـادي قبـلي)، وتشـير لاتخـاذ بعـض القـادة شـعار

الديـن والدعـوة لنـصرة الحـق وإعادتـه لأصحابـه - سـتوضح لنـا كيـف تحتـم في بعـض الأحيـان والظـروف عـلى مـن قـاد هـذه الأفعـال وشـارك فيهـا أن يأخـذ في الاعتبـار ضرورة توجيـه الخطـاب، وتقديـم القرائــن وتغليـف الشـعارات والدعــوات والأهـداف بأسـباب ومسـوغات مقبولـة دينيًّـا (خصوصًـا مـن قبـل العامـة والأتبـاع).

حيـث يـرد في الأخبـار الطـوال للدينـوري: " لمـا حـوصر المختـار ابـن عبيـد الثقفـي في إحـدى المـرات، قـال للسـائب بـن مالـك الأشـعري:" أيهـا الشـيخ، أخـرج بنـا نقاتـل عـلى أحسـابنا لا عـلى الديـن، فاسـترجع السـائب، وقـال: يـا أبـا إسـحق، لقـد ظـن النـاس أن قيامـك بهـذا الأمـر دينونـة، فقـال المختـار: لا، لعمـري مـا كان إلا لطلـب دُنيـا، فـإني رأيـت عبـد الملـك بـن مـروان قـد غلـب عـلى الشـام، وعبـد الله بـن الزبـير عـلى الحجـاز، ومصعبًـا عـلى البـصرة، ونجـدة الحـروري عـلى العـروض، وعبـد الله بـن خـازم عـلى خراسـان، ولسـت بـدون واحـد منهـم، ولكـن مـا كنـت أقـدر عـلى مـا أردت إلا بالدعـاء إلى الطلـب بثـأر الحسـين"[1].

للوهلـة الأولى تبـدو هـذه الروايـة المتعلقـة بعـدة رمـوز قبليـة ودينيـة مـن القـرن الأول الهجـري وكأنهـا روايـة (اسـتثنائية منتقـاة)، إذ كان مـن غـير المألـوف أن يتـم الإفصـاح مـن قبـل رمـز قبـلي وسـياسي كالمختـار (بعـد الفشـل في مواجهـة الأمويـين)

(1)الدينوري، الأخبار الطوال، ج1، ص 307 .

أن الدعـوة للثـأر للحسـين كانـت بمثابـة مطيـة للحصـول عـلى المكاسِـب السياسـية، بعيـدًا عـن الواعـز الدينـي والأخلاقـي الـذي كان قـد تبنَّـاه سـابقًا. لكـن تبـدو هـذه الروايـة أكثـر نضجًـا في التعبـير عـن (طرحهـا) إذا مـا نظرنـا لهـا مـن نفـس المنطلـق الـذي يتناولـه المختـار، ويـرد فيـه بقيـة الشـخصيات، إنـه منطـق (المصالـح) والمغانـم والارتقـاء والطمـوح والظهـور والاحتشـاد القبـلي. منطلـق ينـدر الإفصـاح العلنـي عنـه (للأتبـاع)، وإنـما يقتـضي إدراكـه في تفسـير الأحـداث ومجرياتهـا، تعطينـا هـذه الروايـة دلالـة حقيقـة عـلى مطالـب السياسـيين في ذلـك الوقـت، ومـن بينهـم شـخص عبـد الله بـن خـازم وسـعيه لإرسـاء مسـار نموذجـي لتطلعاتـه، كذلـك تصبـح مثـل تلـك الروايـات تنهيجًـا لكثـير مـن مثـل هـذه القيـادات الإسـلامية المبكـرة وتفسـيرًا لهـا، ابـن خـازم أحـد الملهمـين لشـخصيات الفعـل السـياسي، قيـادي مسـلم باحـث عـن أرض لتُحكـم، وسُـلطة لتُـمارَس، وإنجـاز حقيقـي عـلى أرض الواقـع.

عبدالله بن خازم كمال تاريخي مفقود:

ينشأ الصراع على نحو موسع من خلال شخصيات متناسقة ومتوازنة تتسم بسمات أصيلة لها هدف واضح تسعى إليه بإصرار وإيجابية، وتواجه في سبيله العقبات، ولن يكون الصراع كاملًا ما لم ينتج عنه تغير على أرض الواقع، عبد الله بن خازم السلمي[1] بن أسماء بن الصلت بن عوف بن امرئ القيس بن سليم السلمي، أحد الزعامات التي تبدأ ملامحها بالظهور من خلال المقدمات المنطقية (المألوفة) تاريخيًّا. فهو كغيره من مثل تلك القيادات التي ركزت طاقاتها وساهمت في فتوحات بلاد ما وراء النهر والجناح الشرقي للدولة الإسلامية، واستطاع من خلال نجاحاته

(1)عبد الله بن خازم (000 – 72 هـ) بن أسماء بن الصلت بن حبيب بن ارثة بن هلال بن حرام بن السمال بن عوف بن امرئ القيس بن بهثة بن سليم السليمي، أبو صالح البصري. قيل أن له صحبة وقيل لا، جاء من صفاته أنه أسود اللون كثير الشعر، يتعمم بعمامة خز سوداء، يلبسها في الجمع والأعياد والحرب، ويقول: كسانيها رسول الله ﷺ، راجع، العسكري، تصحيفات المحدثين، ج1، ص 547؛ البخاري، تخريج الأحاديث المرفوعة المسندة في كتاب التاريخ الكبير، ج2، ص 211؛ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج3، ص 359؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج3، ص 74؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج5، ص385؛ ابن حجر، تهذيب التهذيب، ج5، ص 171؛ خير الدين الزر كلي، الأعلام قاموس تراجم الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ج4، ص 84.

(فترة من الفترات) اعتلاء السلطة في خراسان، كما ساهم في وأد كثير من ثوراتها[1].

ابن خازم هو كذلك أحد من تولوا القيادة في عدد من الحملات الإسلامية وقاد الجيوش. ذكره الإمام البخاري في كتابه "التاريخ[2]" وأورد نصًّا " عن عبد الله بن سعيد بن الأزرق عن أبيه قال "رأيت رجلًا ببخارى من أصحاب النبي ﷺ، واسمه عبد الله بن خازم[3]"، كما أشار له المزي أنه روى عن النبي ﷺ، وروى البعض عن طريقه[4]. لكن أبو نعيم الأصبهاني ينتحي بنا جانبًا (مخالفًا) إذ يؤكد أنه لا يُعْتَدّ بكلامه ولا صحبة له[5] وهو ما يوافقه فيه الذهبي[6].

---

(1) خاصة بعد انهيار السلطة الساسانية سنة 21 هـ في معركة نهاوند، وهي إحدى أهم المعارك الفاصلة في الفتح الإسلامي لفارس، وقعت في خلافة عمر بن الخطاب، وقيل سنة 18 أو 19 هـ قرب بلدة نهاوند في فارس، وبانتصار المسلمين انتهى حكم الدولة الساسانية – انظر ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج1، ص 453.

(2) البخاري، التاريخ الكبير، ج4، ص 67.

(3) المزي، تهذيب الكمال في أسماء الرجال، ج14، ص 455.

(4) مِثْل: سعد بن عثمان الرازي، وهو سعد بن الأزرق والد عبد الله الدشتكي، راجع المزي، تهذيب الكمال في أسماء الرجال، ج14، ص 442.

(5) الأصبهاني، معرفة الصحابة، ص 405.

(6) الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، ج5، ص 434.

إذًا تبقى صحبة ابن خازم أمرًا مشكوكًا فيه، وليبقى قائمًا- كما هو الحال مع كثير من مثل هذه الشخصيات - ما يحول دون إحرازها شرف الصحبة التي تؤهل صاحبها (إذا ما كان سياسيًا أو قياديًّا عسكريًّا) إلى شكلٍ من أشكال الكمال التاريخي، والبريق الأيديولوجي في كتابات المؤرخين والإخباريين الأوائل.

حكم خراسان... هل تبرر الغاية الخدعة؟!

لم يكـن فتـح خراسـان بالنسبة للخلافة الإسـلامية مسـتقرًا في بداياتـه الأولى، إلا أن الثابـت أن خراسـان اسـتقرت فعليًّـا ضمـن حـدود دولـة الإسـلام في عهـد عثـمان بـن عفـان، حينـما فتحهـا عبـد الله بـن عامـر في ولايتـه الأولى للبـصرة سـنة 28هـ[1]، حيـث قسـم ابـن عامــر خراســان لأجــزاء (أرباعًـا) عـلى كل ربـع أحـد الـولاة[2]، وتعتـبر "نيسـابور[3]" و"مــرو[4]"

(1) وقيـل 29 هــ. انظـر: رفيـق العظـم، أشـهر مشـاهير الإسـلام في الحـرب والسياسـة، ص 814.

(2) صلاح طهبوب، العصر الأموي، ص 140.

(3) نيسـابور: مدينـة مشـهورة في غـرب خراسـان أول مـن بناهـا ابـن الملـك أردشـير شـابور، ويلفـظ اسـمها "نيشـابور"، وهـو مشـتق مـن "نيـو شـاه بـور" في الفارسـية القديمـة - انظـر ابـن الأثـير، الكامـل في التاريـخ، ج1، ص131.

(4) مـن أشـهر مـدن خراسـان وأقدمهـا، وروى بريـدة بـن الحصيـب أن رسـول الله ﷺ، قـال: يـا بريـدة إنـه سـتبعث مـن بعـدي بعوثًـا، فـإذا بعثـت فكـن في بعـث المـشرق، ثـم في بعـث خراسـان، ثـم في بعـث أرض يقـال لهـا مـرو، فـإذا أتيتهـا فانـزل مدينتهـا، فإنـه بناهـا ذو القرنـين وصـلى فيهـا عزيـر، وأنهارهـا تجـري بالبركـة، عـلى كل نقـب منهـا ملـك شـاهر سـيفه يدفـع عـن أهلـه السـوء إلى يـوم القيامـة. فقدمهـا بريـدة غازيًـا وأقـام بهـا إلى أن مـات- القزوينـي، أخبـار البـلاد وأثـار العبـاد، ج1، ص 186.

و"هــــــراة[1]" و"بلــخ"[2]، أهــم هــذه الربــوع ومواطــن اســتقرار العــرب الأكثــر ثبــات فيــما بعــد.

بــاشر ابــن خــازم حكمــه هنــاك أمــيرًا للحــرب، فــأدار عمليــة ناجحــة في التصــدي (لقــارن النهونــدي) بعــد أن انقلبــت قبائــل عــدة عــلى الحكــم الإســلامي، وحاولــت فــك ارتباطهــا بالســلطة المركزيــة في المدينــة (التــي لم تكــن قــد اعتــادت عليهــا بعــد)، تظهــر صــورة ابــن خــازم بالنســبة لخراســان وتعزيــز قبضتــه عــلى خيــوط الســلطة فيهــا أكثــر وضوحًــا إبــان الــصراع العســكري والســياسي لاســتكمال الفتــوح وصــد الثــورات، ففــي مشــهد انتقائــي نــادر- باســتثناء - خدعــة عمــرو بــن العــاص في فتــح مــصر[3]، وأيضًــا

(1)أهــم وأعظــم مــدن خراســان، ويقــال أن مــن بناهــا الإســكندر الأكــبر، وأصبحــت هـــــراة بعــد ذلــك نقطــة انطــلاق لفتــح بقيــة البلــدان الخراســانية، == فمنهــا ســير الأحنــف مطــرف بــن عبــد الله الشــخير العامــري القيــسي إلى "نيســابور" والحــارث بــن حســان البكــري الوائــلي الربعــي إلى سرخــس.

(2)مدنهــا الأربــع هــذه لاشــك كانــت عواصــم للإقليــم بصــورة منفــردة أو مجتمعــة في أوقــات مختلفــة، إضافــة لمدينــة بلــخ التــي تقــع بالقــرب مــن نهــر جيحــون.

(3)حينــما قــال لــه عمــر بــن الخطــاب إني مرســل إليــك كتابًــا، وأمرتــك فيــه بالانــصراف عــن مــصر، فــإن أدركك قبــل أن تدخلهــا أو شــيئًا مــن أرضهــا فانــصرف، وإن دخلتهــا قبــل أن يأتيــك كتــابي فامــض لوجهــك، واســتعن بــالله واســتنصره.و قبــل بلوغــه مــصر وصلــه الكتــاب، فلــم يتســلمه مــن حاملــه، حتــى شــارف العريــش، فأخــذ الكتــاب، وقــرأه عــلى أصحابــه.

مشـهد عـزل معاويـة لعمـرو عـن مـصر ومحاولـة توليتهـا لأبي الأعـور السلمي[1]"باسـتثناء هذيـن المشـهدين التاريخيـين، نلحـظ الأشــخاص القياديــة والزعامــات نفســها التــي تدفــع نحــو التوقـف للنظـر في المشـاهد التـي أنتجتهـا، فينقـل عـن الطـبري أن ابـن عامـر اسـتبطأ قيـس بـن الهيثـم ابـن عـم عبـد الله بـن خـازم بالخـراج فـأراد أن يعزلـه، فانتهـز ابـن خـازم الفرصـة ليعـرض عـلى ابـن عامـر أن يتـولى "هـو خراسـان "، وبالفعـل كتـب ابـن عامـر عهـدًا بذلـك لـه، وكان العهـد – مشروطًـا- بخـروج قيـس بـن الهيثـم منهـا[2].

أمـا ابـن الأثـير فقـد تنـاول الواقعـة بالقـول أن قيـس بـن هبـيرة وعبـد الله بـن خـازم وفـدًا إلى ابـن عامـر، وطلـب ابـن خـازم أن يكتـب لـه بالولايـة عـلى خراسـان إن خـرج عنهـا قيـس، فلـما قتـل عثـمان بـن عفـان أشـار ابـن خـازم عـلى قيـس بالخـروج مـن خراسـان للنظـر فيـما سـيكون بعـد مقتـل الخليفـة، ومـن ثـم قـام بإخـراج العهـد وثبـت عـلى خراسـان.

يمكننـا أن نتجـاوز إذًا (الخلـل) التاريخـي للتوفيـق مـا بـين عمليـة القتـال التـي جـرت مـن ابـن خـازم لقـارن وجيشـه سـنة 33م، ومـا بـين مقتـل عثـمان 35هــ، إلا أن الثابـت ومـا تـصر

(1)والتـي تـرد بشـأنها روايـة ابـن عسـاكر إن عمـرو بـن العـاص احتجـز خـراج مـصر فعزلـه معاويـة واسـتعمل أبـا الأعـور السـلمي، انظـر: ابـن عسـاكر، تاريـخ دمشـق، ج 62، ص 432.

(2)الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج3، ص 193.

عليـه مصـادر وكتـب التاريـخ أن تـولي ابـن خـازم لخراسـان جـرى (بخدعـة)، حيـث يؤكـد ذلـك أيضًـا ابـن عسـاكر مشيرًا أن قيس ابـن الهيثـم عندمـا استشـار ابـن خـازم في أمـر قـارن النهاونـدي الزاحـف لمقاتلـة المسـلمين بجيـش قـارب الأربعـين ألفًـا، قـال لـه ابـن خـازم "نفسـك نفسـك، أنـت متهيـب للعـدو ولا تـدري يأتيـك مـددٌ أم لا"[1]، ومـن ثـم وبعـد خـروج ابـن الهيثـم أخـرج ابـن خـازم عهـد ابـن عامـر بولايتـه عـلى خـراسان بعـد خـروج ابـن الهيثـم. وتسـجل أغلـب الروايـات في المصـادر التاريخيـة السـياق نفسـه.

لكـن - هـل (الخدعـة) التـي تمـت كانـت بالفعـل في حاجـة لـوازعٍ أخلاقـي، وهـو خـروج ابـن الهيثـم مـن البـلاد لتبريـر فعـل ابـن خـازم؟

و لنتوقـف عنـد كلـمات ابـن خـازم لابـن عامـر حـين ألـح عليـه في توليتـه خراسـان، حيـث يقـول الأول للأخـير: "إنـك وجهـت إلى خراسـان رجـلا ضعيفًـا، وإني أخـاف إن لقـي حربًـا أن ينهـزم بالنـاس فتهلـك خراسـان وتفتضـح أخوالـك[2]".

هـذه المفـردات ربـما تـشي للباحـث بإسـقاطات مـا (تصـب في الغالـب تجـاه القبليـة العصبيـة)، لكنهـا في المقابـل توضـح نمطيـة تفكـير جـدي، فهـذه القيـادات التـي وجـدت نفسـها في

(1)ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج28، ص 12.

(2)الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج3، ص 193.

خضـم تنافـس المصالـح المتنامية الجديـدة ومواجهـات الـصراع الـذي تفجَّـر، واختـلاط الأوراق، ومفـرزات المؤامـرة التـي أودت بحيـاة اثنـين مـن الخلفـاء (حتـى الآن) مُطالَبَـةٌ بفعـل كل مـا بوسـعها لإدامـة تفوقهـا وتفـوق منظومتهـا، التـي تعمـل مـن أجلهـا، سـواء كانـت سـلطة أو قبيلـة أو عصبيـة مـا، إنهـا مفردات تقـدم لنـا تعبـيرًا واضحًـا عـن الرغبـة في جريـان هـذا الفعـل السـياسي عـبر أطـر القبيلـة والديـن.

يقـدم ابـن خـازم نفسـه بصـورة مبـاشرة عـلى أنـه يريـد السـلطة، بـل وربـما قـدم الجـواب الواضـح لابـن عامـر أنـه في حالـة الهزيمـة سـيفتضح أخـوال عبـد الله بـن عامـر وهـو منهـم.

مشـهد تجتمـع فيـه (واقعيـة ومنطقيـة) مـن قيـادة مدركـة لحدودهـا، وواثقـة مـن قدراتهـا ومـا تسـتطيع أن تقدمـه: عـرض مبـاشر مـن ابـن خـازم لابـن عامـر لتـولي السـلطة يتضمـن اسـتمرار نفـوذ المنظومـة السياسـية نفسـها، بضمانـات المحافظـة والاحتشـاد حـول القبيلـة (بدعـوى الخـوف مـن الهزيمـة).

سياقًا برجماتيًا (للسُّلطة[1])، تبرز أهم دلائله في أمرين:

❑ الأول: الدِّين[2].

❑ الثاني: العصبية القبيلة.

إذًا هـي ليسـت صـورة مـن صـور (الغـش) أو (الخـداع)

---

(1) الممثلة في ابن عامر.

(2) وهو الخوف من الهزيمة للمسلمين في هذه المناطق الجهادية المفتوحة.

للقفـز عـلى السـلطة كـما تشـير كثـير مـن المصـادر "مـن أن ابـن خـازم خـدع ابـن عامر وابـن الهيثـم"، إنهـا منطقيـة هـذه القيادات حـين يتعلـق الأمـر بالحفـاظ عـلى الأمـن والبقـاء (التخويـف مـن الهزيمـة والافتضـاح)، في مقابـل حصـول السـلطة عـلى (خيـار جـدي). قيـادة جديـدة تـرى في نفسـها القـدرة عـلى الحفـاظ عـلى المكاسـب والمغانـم التـي حازهـا المسـلمون في خراسـان، والحفـاظ عـلى مظهـر الممسـك بزمـام الأمـور والقـدرة عـلى ضبطهـا.

وهـذا الأسـاس (المنطقـي) بالنسـبة لابـن خـازم هـو أسـاس مسـتمد مـن اسـتلهام ثنائـي الطبيعـة، فابـن خـازم قريـب لابـن عامـر بـما يضفيـه عليـه ذلـك مـن حـق القرابـة ، ومـن ناحيـة أخـرى يمنـح ابـن عامـر أمـام سـلطة مركزيـة ومنظومـة أعـلى وهـي منظومـة (الخلافـة) صـورة كـوالي يوجـه قـادة أكفـاء لمناطـق المنازعـات والحفـاظ على رسـوخ قـدم المسـلمين وثباتهـم في المناطق المفتوحـة. وعليـه يكـون عهـد ابـن عامـر لابـن خـازم بمثابـة ردِّ فعـلٍ دفاعـي إزاء التهديـد الـذي يتمثـل في ملاقـاة العـدو، وخوف الهزيمـة والانكسـار في هـذه البقعـة المهمـة، أي خراسـان، الجنـاح الشرقـي لدولـة الإسـلام المتوسـعة.

خراسان إنجاز واقعي أم فراغ لسلطة مركزية؟

بعد توجه ابن خازم لخراسان، ومع أنباء مؤكدة عن محاولة قارن النهاوندي الزحف لمقاتلة المسلمين (بباذغيس وهراة)، ترافق ذلك مع ما كان يجري في المدينة من ظهور أصوات معارضة الخليفة (عثمان) في ظل كل ذلك تعاظمت فرصة ابن خازم في تثبيت نفسه على رأس السلطة بخراسان، حيث كان عليه أن يثبت أحقيته بالثقة الممنوحة له، ليلتقي بالفعل مع جيش قارن النهاوندي وعلى الرغم من أن ابن خازم لم يكن معه سوى أربعة آلاف مقاتل في مقابل أربعين ألفًا على الجهة المقابلة[1]، استطاع الانتصار بهم وكسب المعركة ، وليكتب بالنصر لابن عامر حيث أقره الأخير على خراسان[2].

يذكر أبو الربيع " سار ابن خازم إلى قارن وأمر الناس فحملوا الودك، فلما قرب من عسكره أمر الناس أن يدرج كل واحد منهم على زج رمحه ما كان من خرقة أو قطن أو صوف،

(1)المتأمل للقصة على هذا النحو قد يرى فيها الارتفاع في سقف الحماسة والبطولة، فابن خازم يعلم أن قوات الأعداء تفوقه بشكل كبير، وأنه في موقف غير متكافئ وبدرجة فيها مخاطرة، مخاطرة يعلم معها أن السلطة المركزية في المدينة نفسها لن تستطيع تقديم ما هو أفضل له بالنسبة للمواجهة العسكرية المرتقبة، لكنها يقدم على القتال.

(2)المزي، تهذيب الكمال في أسماء الرجال، ج14، ص 443.

وأمر الناس فأشعلوا النيران في أطراف الرماح، وانتهت مقدمته إلى عسكر قارن نصف الليل، ولهم حرس، فناوشوهم، وهاج المشركون، ودنا ابن خازم منهم، فرأوا النيران يمنة ويسرة، وتتقدم وتتأخَّر، وتنخفض وترتفع، ولا يرون أحدًا فهالهم ذلك، ثم غشيهم ابن خازم، ومقدمته تقاتلهم، فقتل قارن وانهزم العدو، فاتبعوهم يقتلونهم كيف شاؤا، وأصابوا سبيًا كثيرًا، وأخذ ابن خازم عسكر قارن بما كان فيه[1]".

تسبق هذه الرواية رواية أخرى بأبعاد لا تنقصها (الأسطرة والخيالية) أوردها أبو جعفر البغدادي في كتابة (المحبر) وهي " أن عبد الله بن خازم كان من أشجع الناس وأشدهم نفسًا وبطشًا. وأنه لما غلب على خراسان. وجه إليه ملك الترك رسلًا يخبره أنه يغير على خراسان، أو يتقيه بخراج موظف. فأتاه الرسل في يوم شديد البرد. فأمر ابن خازم بأزج له فسجَّر فيه حتى ابيض، وأجلس الرسل على لبود في الثلج وعليهم الفراء وهو معهم في قباء رقيق. فجعل الرسل ينتقضون بردًا. فلما علم أن الأزج قد أخرج ما فيه قال للرسل: ما أحسب البرد إلا وقد آذاكم. قوموا بنا إلى البيت. فلما دنوا من البيت تلقاهم حرة فأحجموا عن دخوله. ودخل هو حتى جلس في صدره.فانصرف الرسل إلى صاحبهم فأخبروه أنهم أتوه من عند شيطان لا يعمل

(1) أبو الربيع، الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء، ج2، ص 622.

فيـه الثلـج ولا النـار. فأمسـك عـن الغـزو[1]" هـي إذن مشـاهد متداخلـة توحـي للقـارئ بمـدى الترابـط بـين الشـخصية ومـا تتصـف بـه مـن قـوى تـكاد تصـل للأسـطرة، مشـهد يُحـرز بـلا شـك نقاطًـا كثـيرةً لصالـح دلالات الشـخصية التـي تسـتمد خيوطهـا ونسـجها التاريخـي في بعـض الحـوادث بمشـاهد (متخيَّلة وإحـالات غيبيـة) لإكـمال الصـورة، لكنهـا في الغالـب تناسـت حقيقـة أن مـا حمـل الشـخصية عـلى مـا تقـوم بـه هـو إحـراز نـصر (مـا) لحسـابها وحسـاب المنظومـة التـي تعمـل مـن أجلهـا.

عمومًـا (ومـع أنـه لا تـرد شـواهد) تـأتي روايـة الطـبري لنتوقـع مـن خلالهـا أن معاويـة[2] حـاول إحبـاط تهديـد سـلطوي قبـلي لابـن خـازم بعـد عمليـة الخدعـة التـي جـرت. حيـث يقـول الطـبري أن ابـن خـازم لمـا تـولَّى خراسـان بخدعتـه غضبـت القيسـية، وشـكَت لمعاويـة الـذي طلـب مـن ابـن خـازم أن يقـوم في النـاس خطيبًـا معتـذرًا، وتسترسـل الروايـة في أن ابـن خـازم رجـع إلى أصحابـه فقـال إني أمـرت بالخطبـة ولسـت بصاحـب كلام، فاجلسـوا حـول المنـبر فـإذا تكلمـت فصدقوني...ولمـا قـام للخطبـة قـال: "إنـما يتكلـف الخطبـة إمـام لا يجـد منهـا بـدًا أو أحمـق يهمـر

(1)أبو جعفر البغدادي، المحبر، ج1، ص 222.

(2)بالنسـبة لخراسـان سـارت الفتوحـات في عهـد معاويـة عـلى نحـو مختلـف، فـكان المسـلمون يكتفـون بـأن تمتثـل القبائـل وتقبـل بالطاعـة أو بمعاهـدة فيـولى المسـلمون أحـد القيـادات عليهـا أو يتركـوا حكامهـا السـابقين، عـلا عبـد العزيـز أبـو زيـد، الدولـة الأمويـة دولـة الفتوحـات، مرجـع سـابق، ص 47.

مـن رأسـه، لا يبـان مـا خـرج منـه، ولسـت بواحـد منهـما، وقـد علـم مـن عرفنـي أنـى بصـير بالفـرص، وثـاب عليهـا وقـاف عنـد المهالـك، أنفـذ بالسريـة وأقسـم بالسـوية، أنشـدكم بـالله مـن كان يعـرف ذلـك منـي صدقنـي، قـال أصحابـه حـول المنـبر: صدقـت "

بعيـدًا عـن التسلسـل التاريخـي للأحـداث التـي توحـي بأنهـا (الولايـة الثانيـة) لابـن خـازم في خرسـان وليسـت الأولى، قـدم ابن خـازم نفسـه للسـلطة عـلى نحـو يوحـي بمحاولـة اسـترداد سـياسي سريـع لشـخصية سياسـية طامحـة، وربـما كان الأمـر مُلحًـا بالنسـبة لمعاويـة نفسـه الـذي أدرك هـو الآخـر ضرورة تخفيـف التوتـر القبلي القائـم في خراسـان وكسـب قياداتهـا بصفتهـا النخبويـة والسياسـية.

أدوارٌ لم يكـن العامـل الدينـي فقـط هـو مـا يحركهـا، بـل منظومـة متشـابكة مـن السـياقات وإن كان الدينـي هـو (المفـترض المُصَـدر) ليكـون المحـرك الأول لـه. كان تثبيـت التنصيـب لابـن خـازم والرضـا مـن قبـل معاويـة يوحـي لـلأول بمزيـد مـن المكانـة السياسـية والمكاسـب القبليـة، بعيـدًا عـن الـدلالات الدينيـة التـي صـاغ ابـن خـازم جـزءًا كبـيرًا منهـا حـين قـال (لسـت إمـام ولا أحمـق....... إنـى بصـير بالفـرص وثـاب عليهـا) وفي رأيـي أن المهم في هـذا النـص ليـس نقـده أو الاتـكاء عـلى مـا فيـه مـن إشـارات تخـدم تصورنـا عـن الشـخصية، بـل استكشـاف التصـور الكامـن وراءه وفي حالـة (التَّحَـدِّي) التـي فرضتهـا الظـروف الموجـودة عـلى ابـن خـازم، وتقبـل أنهـا هـي نفسـها التـي دفعتـه للإفصـاح عـن منهجيـة العمـل السـياسي التـي ينتهجهـا أمـام السـلطة.

الفتنة وابن خازم: ومضات أخلاقية

بعد مقتل عثمان، فإنَّ الشيء المؤكد أن فترة حكم عبد الله بن خازم على رأس السلطة في خراسان لم تكن فترة استقرار وهدوء، حيث استمرت الصراعات الخفية والقلاقل والتحركات المناوئة لتثبيت الحكم الإسلامي هناك. يذكر ابن الأثير أن عبد الله بن عامر أمر عبد الله بن خازم بالشخوص لملاقاة زياد بمنطقة أرجان ليحثه على المسير إلى معاوية وقد نفذ ابن خازم الأمر[1]، ويشير الطبري أن ابن خازم بعد معركة الجمل سنة 36 هـ أقبل على البصرة[2] إلا أن رواية الطبري لا تشير إلى لعب أي دور عسكري صريح محدد فيما كان يجري هناك من حوادث.

وبالرجوع إلى ما يتوفر من مصادر نلحظ أن عبد الله بن عامر الحضرمي، عامل عثمان بن عفان والذي كان من أول المطالبين بدم عثمان بعد بني أمية موجودًا بمكة، في حين أن عبد الله بن عامر، والذي كان متواجدًا إبان مقتل عثمان بن عفان بالبصرة، قدم هو الآخر لينضم إلى المطالبين بالأخذ بالثأر[3]، وبهذا أصبح ابن عامر مبتعدًا عن خراسان ونواحيها في هذا التوقت، ويبدو أن ابن خازم كان لا يزال يحتفظ بنفوذ ما قبل موقعة الجمل. لكن بعد انتصار (علي) في

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج2، ص 113.

(2) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج2، 633.

(3) ابن الأثير، نفسه، ج2، ص 28.

"الجمـل" ربـما أسـهم ذلـك في عـدم رغبـة ابـن خـازم الانغـماس عـلى نحـوٍ أعمـق فيـما يجـري مـن صراعـات، هـذا الأمـر تحديـدًا ربـما أدى لتقليـص سـلطته عـلى خراسـان في هـذه الفـترة، حيث لا تذكـر المصـادر دورًا لـه هنـاك، بـل حتـى صفـين فيـما بعـد والتـي نعتقـد أنـه أحجـم أيضًـا عـن الانخـراط فيهـا ولم يشـهدها[1].

غـير أن ابـن الأثـير يذكـر في سـنة 38 هــ، أن معاويـة سـيَّر عبـد الله بـن عمـرو بـن الحضرمـي إلى البـصرة وكان عليهـا زيـاد بـن أبيـه، فلـما وصـل ابـن الحضرمـي إلى البـصرة نـزل في بعـض مـن بنـي تميـم، وخطـب فيهـم بنـصرة معاويـة والمطالبـة بـدم عثـمان، فحـاول الضحـاك بـن قيـس الهـلالي، أن يتصـدى لـه[2]، فقـام عبـد الله بـن خـازم وأقبـل عـلى ابـن الحضرمـي وقـال:" نحـن أنصـارك ويـدك والقـول قولـك "[3].

ويبـدو إذًا أن عـزل ابـن خـازم عـن منصبـه في خراسـان، ربـما جـرى في سـياق حركـة التغيـير التـي أحدثهـا الخليفـة عـليٌّ في هـذه النواحـي والتـي طالـت بدورهـا ابـن خـازم، وبـما أزال عـدم رغبـة الأخـير في الانغـماس في الـصراع، وسرَّع مـن وتـيرة العـودة لمشـاهد الـصراع الجديـد بـين عـلي ومعاويـة. خصوصًـا بعـد أن فقـد ابـن خـازم منصبـة ونفـوذه بخراسـان.

(1) كـما تـدل الشـواهد المذكـورة في: البـلاذري، فتـوح البلـدان، ج2، ص 460.

(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج2، ص 91.

(3) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج2، ص 91.

يذكـر البـلاذري (وهــو الأقــرب تاريخيًّــا)، أن جاريــة بــن قدامـة التميمـي ومعـه بعـض مـن بنـي تميـم جـاءوا لملاقـاة ابـن الحضرمـي، فـكان عـلى خيـل ابـن الحضرمـي عبـد الله بـن خـازم الـذي قاتـل جاريـة[1].

يبـدو أن هـذه الحادثـة كانـت أحـدث صـدام عسـكري بـين ابـن خـازم وجيـوش الخليفـة عـلي، حيـث تـمّ حصـار ابـن خـازم بـل كاد أن يقتـل وذلـك قبـل أن تـأتي أمـه وتهـدد كـما (يـرد في المصـادر) بأنــه إن لم يـترك القـصر المحـاصر وينـزل سـتتعرَّى، حيـث يـورد البـلاذري أن أم ابـن خـازم هددتـه " لئـن لم تنـزل لأتعـرن"[2] وذلـك قبـل أن يحـرق قدامـه القـصر[3].

وإن كان لا يوجـد سـبب مقبـول يدفعنـا إلى اعتبـار هـذه الحادثــة لوالــدة ابــن خــازم (أصيلــة)، إلا أنهــا تحتــوي هــي الأخـرى مشـهدا – توبيخيًّـا – كـما جـرت العـادة لزوجـات أو أمهـات مثـل هـذه الشـخصيات، فهـا هـو بهـذا المشـهد (الـذي يلوثـة الذنـب) ينجـو مـن القتـل والحـرق.

لم يكـن غريبًـا في ظـل مـا جـرى مـن أحـداث أن يـدرك ابـن خـازم أن الـصراع القائـم في النهايـة سـيتحدد معـه مسـتقبله، وأن الانتـماء لمعسـكر الشـام الأقـوى والأكثـر قـدرة وتنظيـمًا ضرورة. ولعـل غيـاب يقـين الانتصـار أو الحسـم فيـما يجـري في البدايـات الأولى هـو مـا أخَّـر هـذا الإعـلان.

(1) البلاذري، أنساب الأشراف، ج1، ص 362.

(2) البلاذري، نفسه، ج1، ص 361.

(3) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج2، ص 92.

هـذه الجزئيـة بالـذات ربـما رسـخت عنـد ابـن خـازم أنـه - وإن تـولى مـرة أخـرى السـلطة في خراسـان عليـه ألا يعـول كثـيرًا عـلى سـلطة مركزيـة قـادرة عـلى عزلـة متـى شـاءت.

لم يكـن ابـن خـازم يمتلـك حتـى هـذه اللحظـات أي مـشروع سـوى أن يعـود للوثـب عـلى خراسـان مـن جديـد، وبـما بـات يملكـه مـن وضـوح في طبيعـة مـا يجـرى، كان يـدرك أيضًـا أن العـودة للسـلطة بخراسـان لـن يعطلـه سـوى السـلطة المركزيـة التـي كانـت تمتلـك القـدرة دائـما عـلى خلعـه، إذًا فـإن انهيـار السـلطة سـيتيح لـه فرصـة أكـبر للتحـرك بحريـة. وعندئـذٍ، تكـون تحـركات ابـن خـازم في المرحلـة المقبلـة محكومـة بممـرٍ إجبـاري مغلـق -هـذه المـرة- ولا فـكاك منـه وهـو الانفـكاك مـن فلـك السـلطة المركزيـة.

اسـتقراؤنا هنـا لهـذه النقطـة تحديـدًا - كـما قلنـا سـابقًا - يعتمـد عـلى النظـرة الكليـة التركيبيـة لمعطيـات (الـكلي) المنسـوج بالمصـادر التاريخيـة مـن خيـوط تسلسـل الأحـداث بالنسـبة للشـخصية، فاشـتداد الـصراع الدَّمـوي وانخـراط معظـم القبائـل فيـه لم يكـن مـن العسـير معـه استشـفاف الأسـباب التـي دعـت ابـن خـازم إلى الوقـوف ضـد الخليفـة ومنـاصرة معاويـة. وليـس في الإمـكان البحـث في الأسـباب التـي دعـت ابـن خـازم للتواجد مـع معسـكر معاويـة دون الأخـذ بالحسـبان:

أولًا: أن ابـن خـازم (في النهايـة) زعامـة تـرى في نفسـها قـدرة عـلى الحكم.

ثانيًا: هـو يرتبـط بقرابـة مـع عبـد الله بـن عامـر المرتبـط بصلـة قرابـة هـو أيضًـا مـع عثـمان بـن عفـان، وكذلـك معاويـة بـن أبي سـفيان.

ثالثًا: هـو أحـد القـادة المُنَصَّبـين مـن قبـل السُّـلطة (عثـمان ومنظومتـه) ويلقـى منهـم كل القبـول والاستحسـان.

إذًا وفي كل الأحـوال سـيكون معاويـة بـن أبي سـفيان الشـخصية الأكثـر قـدرة عـلى الحفـاظ لابـن خـازم عـلى (البنَـى السـلطوية) التـي كانـت قائمـة لـه في خراسـان إن انتـصر.

وفي تقديرنـا أن قـراءة منطقيـة أيضًـا مـن قبـل ابـن خـازم لحـوادث كان يحرِّكهـا منطـق المصلحـة بعيـدًا عـن المثاليـة كانـت ستسـمح لـه بالتقـدم لمـا هـو أبعـد مـن ذلـك. بـل إن انقـلاب ابـن خـازم نفسـه عـلى الحكـم الأمـوي - فيـما بعـد - كان لأسـباب هـي أيضًـا متناسـبة مـع مجريـات وتطـورات الصراعـات السـلطوية التـي كانـت تجـري آنئِـذٍ.

صناعة القرار بعيدًا عن الأمويين

لفهـم هـذا التحـول السريـع في متغـيرات الفعـل التاريخـي لشـخصية ابـن خـازم، فـإنَّ مـن الواجـب التسـليم بـأن مـا كان يجـري لا يمكـن فصلـه عـن التغـيرات والتطـورات والحـوادث التـي كانـت حاصلـة عـلى الأرض، وليسـت بعيـدة عـن الدوافـع التـي كانـت تتحكـم فيهـا.

فبعد مقتل الخليفة عليٍّ أواخر 40 هـ، وبعد استعادة زمام الأمور في معظم النواحي والمناطق المفتوحة لمعاوية بن أبي سفيان، يقول ابن الأثير إن ابن خازم كان أميرًا على خراسان أيام فتنة ابن الزبير، وجرى له فيها حروب حتى تمّ أمره[1]، وهو ما يوافق ما قال به الطبري - الأقدم رواية - حيث يشير أن سلم بن زياد بعث عبد الله بن خازم إلى يزيد بن معاوية مع ما أصاب من هدايا سمرقند وخوارزم[2]. تقلُّ الأخبار عن هذا اللقاء في المصادر التاريخية من حيث ما جرى فيه، لكنه يعكس دورًا ما لابن خازم في فتوح هذه المناطق مرة أخرى، ويعني أن الحوادث استمرت بالنسبة لابن خازم في مسارها الطبيعي من موالاته للدولة الأموية في عهد معاوية، ويزيد من بعده.

غير أن وفاة يزيد ربما أسهمت في إنهاء هذا الولاء حيث يقول ابن الأثير أنه بعد وفاة يزيد، وبلوغ سلم بن زياد الأمر بخراسان، دعا الناس إلى البيعة على الرضا حتى يستقيم أمر الناس على خليفة، فبايعوه ثم نكثوا[3]، وأنه استخلف عليهم المهلب بن أبي صفرة. ويبدو أن عبد الله بن خازم في هذه الفترة كان في (نيسابور)، فلقي سلم بن زياد متسائلًا عن ولايات خراسان، فأخبره سلم بن زياد بما صنع قبل خروجه، حيث أعلن ابن خازم سخطه مخاطبًا

(1) ابن الأثير، أسد الغابة في معرفة الصحابة، ج2، ص 100.

(2) الطبرى، تاريخ الرسل والملوك، ج3، ص386.

(3) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج2، ص 204.

سلم بن زياد: " أما وجدت في المصر من تستعمله حتى تفرق خراسان بين بكر بن وائل واليمن"[1].

الرواية نفسها ستأتي لاحقًا ولكن بشخصية مختلفة عن شخصية ابن خازم - حيث يستكمل ابن الأثير القول من أن ابن خازم قال: "اكتب له لي عهدًا على خراسان، فكتب له، ومن ثمة سار ابن خازم إلى مرو، بعد أن سهل له الأمر خروج المهلب بن أبي صفرة متجهًا نحو الشام[2].

تتواتر الروايات عن أن ابن خازم لما وصل إلى هناك منعه (الجشمي) والي المهلب بن أبي صُفْرة، وجرى بينهما قتال استطاع على إثره ابن خازم أن يدخل (مرو) منتصرًا. كان هذا في العام 65 هـ[3] ليعود مجددًا ابن خازم على رأس السلطة مرة أخرى في خراسان متجاوزًا الصراعات القائمة فيها.

إذًا بعد وفاة يزيد ولا شك حدثت أزمة حقيقة في مضامين الشرعية السياسية للكثير من القيادات لكنها كانت فرصة أيضًا في المقابل لكثيرٍ منهم لإيجاد دور جديد. ففي هذه الأثناء حاول والي خراسان، بعد أن عجز عن السيطرة في ظل غياب السلطة المركزية، أن يدير خراسان وولَّى بعض الأسماء القيادية والشخصيات القبلية عليها، فما كان من ابن خازم إلا أن بادر وطالبِ بالسلطة من جديد.

---

(1)ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج2، ص 204.

(2)الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج3، ص 387.

(3)ابن الأثير، نفسه، ج2، ص 205.

أدرك ابـن خـازم أن السـلطة المركزيـة هـي مـن تمنـح وتعطى؛ لـذا عـاد أكثـر إصرارًا عـلى ضرورة الانفـراد بعيـدًا عـن قبضتهـا. حــارب ابــن خــازم أوس بــن ثعلبــة في (هــراة) واســتطاع أن ينتزعهـا منـه بعـد حـرب استمرت لأكثـر مـن عـام[1]، مسـتعملاً عليهـا ابنـه محمـدًا، متجهًـا بعدهـا لبسـط سـيطرته عـلى مزيـد مـن الربـوع. لكـن كان أن اصطـدام بشـخصية كانـت هـي الأخـرى شـخصية طامحـة ومتوثبـة شـخصية سياسـية عسـكرية وقبليـة بامتيـاز، والغريـب أن ابـن خـازم حـارب في صفهـا أيضًـا لتثبيـت سـلطة خراسـان ونواحيهـا؛ إنـه (المهلـب بـن أبي صفـرة). يقـول ابـن الأثـير: إن عمـران بـن الفضيـل البُرجُمـي والمهلـب بـن أبي صفـرة، وعبـد الله بـن خـازم السُّـلمي خرجـوا، فأخـذ سـلم هـؤلاء الفرسـان معـه مـن البـصرة، ثـم سـار بهـم إلى خراسـان[2]. فهـل كان الاصطـدام مـع شـخصية براجماتيـة أقـوى حضُـورًا مؤذنًـا ببدايـة النهايـة لطموحـات ابـن خـازم وسـلطتة المشـخصنة في خراسـان والتـي حـاول فيهـا إحـلال العنـصر (الشـخصي) محل الخلافـة العنـصر (المؤسسـاتي) سـببًا لفشـله ومقتلـه في النهايـة.

كان ابـن خـازم ومـن خـلال قـراءة سياسـية لموقـف الأطراف المتصارعـة يـرى ألا يتدخـل عـلى نحـوٍ يجعـل الكفـة تميـل ناحيـة أحـد الأطـراف، وأظهـر لاحقًـا قبولـه بتوجهـات إيجابيـة نحـو معسـكر الحجـاز ومكـة وابـن الزبـير، وكان منطلقـه واقعيًّـا

(1) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج3، ص389.

(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج2، ص 184.

بشكل كبير. فابن الزبير يلقى قبولًا موسعًا على المستوي القبلي والعصبي في خراسان، بل أن الحوادث ستؤكد لاحقًا أن الانشقاقات القبلية التي جرت في خراسان على يد ابن خازم هي التي أدت لمقتله وليس السلطة المركزية في دمشق.

لقد كانت السلطة المركزية التي أنشأها الأمويون لاحقًا، ومنذ فترة حكم عبد الملك، وما كان له من قدرة على ضم العراق وفرض السيطرة على الحجاز بعد مقتل مصعب ثم أخيه، قادرة بالفعل على إنهاء التحديات كافة. كان من المفروض أن يُدرك ابن خازم كل ذلك، لاسيما مع السرعة التي أظهرها عبد الملك بن مروان في دعوة ابن خازم: "بايعني حتى أجعل لك خراسان طعمة سبع سنين"، ورفضن ابن خازم بل تشير بعض الروايات إلى أنه همَّ بقتل رسول عبد الملك[1].

كان من الواضح أن السلطة المؤسسية (الخلافة) كانت في وضع يجعلها تقبل بأدنى درجات التعاون من ابن خازم، لكن في ظل التعطش من الأخير لسلطة (مشخصنة) لا تخضع لشرعية أعلى منها جعلته لا يقبل ويرفض. ربما ثمة سبب آخر أن تجربته الأولى في حكم خراسان أثبتت له سهولة خروجه عن طاعة السُّلطة المركزية. وهكذا كانت خطوته في هذا الاتجاه الجديد، أي الابتعاد عن فلك السلطة المركزية وقبضتها، وعليه كان أن كتب عبد الملك بن مروان في

(1) وقد أشار البعض إلى أن هذه الحادثة قد وقعت بعد قتل ابن الزبير. انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج3، ص 74.

سنة 74هـ إلى بكير بن وشاح[1] إن قتلت ابن خازم أو أخرجته من خراسان فأنت الأمير[2].

على أية حال، لم يجد ابن خازم حلولًا لأهم المشكلات التي واجهها بعد الانفصال عن السلطة المركزية ألا وهي الصراع القبلي. فقد كان لعبد الملك بن مروان كما هو الحال بالنسبة لابن الزبير - قاعدة قبلية عريضة ومؤيدة في هذه النواحي، والخطأ في تقدير هذا الوضع سيكون حتما سَببًا النهاية.

خراسان القوة والثروة... مؤذنًا بنهاية ابن خازم

منذ عهد عمر - الخليفة الثاني في دولة الإسلام - استمدت خراسان دورها من اعتبارها المقاطعة الشرقية الأهم لدولة الإسلام في قرنها الأول، خراسان التي تميزت بتركيب اجتماعيٍّ قبلي فاعل سياسيًّا واجتماعيًّا مثلت - في حقيقة الأمر - الثروة والقوة الاقتصادية الأهم لكل من كان يريد تثبيت سلطته على دولة الخلافة، وإذا ما إذا نظرنا لسياسات ابن خازم المعاصرة لدخوله خراسان وجذورها لاشك سنعثر على الصورة ذاتها، لذا لم يكن غريبا أن تستمر الدولة الأموية في مطاردة القبائل القيسية بعنف وقسوة، ومن ثم دار الصراع

(1) بكير بن وشاح الصريمي. عنه انظر: خليفة بن خياط، تاريخ خليفة بن خياط، ص 294 - 295. في تسمية ولاة عبد الملك، ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج9، ص 293.

(2) ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج9، ص 293.

بـين اليمانيـة والقيسـية[1] في منطقـة خراسـان عـلى هذا الأسـاس[2].
ومـع شـعور ابـن خـازم بقوتـه وتفـرده اسـتطاع تنصيـب ابنـه محمـد عـلى (هـراة) وابنـه الآخـر مـوسي عـلى (مـرو)، ووزع بقيـة الولايـات المهمـة عـلى عـمال تابعـين لـه. ويشـير ابـن الأثـير ان ابـن خـازم كتـب إلى ابنـه وإلى بُكـير بـن وشـاح الثقفـي صاحـب شرطتـه وشـماس بـن دثـار العطـاردي، يأمرهـم بمنـع بنـي تميـم مـن دخـول هـراة[3]. غـير أن شـماس رفـض[4]، ومـن ثـم تطـورت الحـوادث لتقـوم بنـي تميـم بقتـل محمـد بـن عبدالله بـن خـازم[5].

يتنـاول البـلاذري ولايـة عبـد الله بـن خـازم الثانيـة عـلى

---

(1) أخـذ الـصراع بـين القيسـية واليمانيـة حيـزًا واسـعًا لبعـض الدراسـات (الحديثـة) في محاولـة لمعالجـة أسـبابه وتجذراتـه، حيـث حـاول بعـض الدارسـين رد طبيعـة الـصراع لمـا قبـل الإسـلام والعـصر الجاهـلي، وربـما النظـر بعمـق لطبيعـة الـصراع يدحـض هـذا الـرأي حيث عـاش عـرب الشـمال وعـرب الجنـوب قبـل الإسـلام دون صراع محتـدم لفـترات زمنيـة طويلـة، بـل أن الصراعـات التـي كانـت تحـدث بـين اليمانيـة أنفسـهم أو القيسـية أنفسـهم لربـما كانـت تأخـذ حيـزًا أكـبر ممـا كان عليـه الـصراع القيـسي اليمنـي بعـد ظهـور الإسـلام - راجـع يوسـف العـش، الدولـة الأمويـة، ط2، دار الفكـر، دمشـق 1985م، ص 185-186

(2) أحمـد زكـي صفـوت، جمهـرة رسـائل العـرب، العـصر الأمـوي، ص 417-418.

(3) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج2، ص 218.

(4) ابن الأثير، نفسه، ج2، ص222.

(5) وكان الـذي تـولى قتـل محمـد رجـلان اسـم أحدهمـا عجلـة واسـم الآخـر كسـيب. فقـال ابـن خـازم: بئـس مـا اكتسـب كسـيب لقومـه، ولقـد عجـل عجلـة لقومـه شرًّا- راجـع ابـن الأثـير، الكامـل في التاريـخ، ج2، ص 222.

خراسـان وحربـه مـع سـليمان بـن مرثـد، فيذكـر أن ابـن خـازم حـين تلقيـه لسـلم بـن زيـاد بنيسـابور، جعلـه يكتـب لـه عهـد خراسـان، غـير أن العصبيـات القبليـة مـن بكـر بـن وائـل لم تـرض، وقالـوا "عـلامَ يـأكل هـؤلاء خراسـان دوننـا؟ فأغـاروا عـلى ثقـل ابـن خـازم[1] وكانـت الحـرب[2].

كـما يذكـر خليفـة ابـن خيـاط أن عبـد الملـك بـن مـروان كتـب في العـام الـذي قتـل فيـه مصعـب إلى عبـد الله بـن خـازم بولايتـه عـلى خراسـان وبعـث بالكتـاب مـع رسـول لـه فقـال لـه ابـن خـازم لـولا أني اكـره أن أضرب بـين بنـي تميـم وسـليم لقتلتـك ولكـن كُلْ كتابَـكَ فأكلـه فكتـب عبـد الملـك إلى بكـير بـن وشـاح الصريمـي يغريـه بقتـل ابـن خـازم[3]" إنهـا القـوة المعارضـة دومًـا التـي تواجـه الشرعيـة، فـإذا تصالحـت معهـا فـإن ذلـك في الغالـب يكـون لأجـل الـضرورة، وللإبقـاء عـلى المصالـح، وفي أحيـان أخـرى يكـون التصالـح لأجـل محـدد، فـإذا لم تكـن هنـاك حاجـة كان الـصراع"

تنـاول ابـن الأثـير مقتـل ابـن خـازم بالقـول" إن عبـد الملـك بـن مـروان كتـب إلى بكـير بـن وشـاح، وكان خليفـة ابـن خـازم على مـرو، بعهـده عـلى خراسـان، ووعـده ومنّـاه إن هُـو قتـل ابـن خازم، الأمـر الـذي جعـل بكـير يقـوم بخلـع ولائـه لابـن خـازم والدعـوة

(1) فأرسـل سـليمان إلى ابـن خـازم بـأن العهـد الـذي معـك لـو اسـتطاع صاحبـه أن يقيـم بخراسـان لم يخـرج عنهـا ويوجهـك، وأقبـل سـليمان وابـن خـازم بمـرو، فاتفقـا أن يكتبـا إلى ابـن الزبـير فأيهـما أمـره فهـو الأمـير، ففعـلا، فـولى ابـن الزبـير ابـن خـازم، البـلاذري، فتـوح البلـدان، ض 511.

(2) البلاذري، نفسه، ص 511.

(3) خليفة ابن خياط، تاريخ خليفة بن خياط، ص 294

لأخـذ البيعـة لعبـد الملـك، فأجابـه كثـيرٌ مـن أهـل مـرو[1].

يتمـم اليعقـوبي الصـورة، بالقـول أن سـبب ميـل أهل خراسـان وخاصـة مـرو إلى عبـد الملـك بـن مـروان هـو أن أهـل خراسـان قـد يكونـوا ملُّـوا وشـقَّ الأمـر عليهـم مـن كثـرة الحـروب التـي خاضها ابـن خـازم، ولا سـيما حروبـه مـع بنـي تميـم[2].

في حـين يـرى ابـن الأثـير أن ابـن خـازم خـاف مـن اجتـماع بكـير وأهـل مـرو ونيسـابور عليـه، فأقبـل إلى مـرو محـاولًا استـمالة الانقـلاب ضـده واحتوائِـه[3].

في الواقـع يتضـح أن الصراعـات القبليـة كانـت قـد أنهكـت ابـن خـازم بالفعـل لاسـيما بعـد حربـه مـع بنـي تميـم.

ويـورد البـلاذري وصفًـا يَـشي بدرجـة عاليـة مـن العصبيـة القبيلـة التـي رافقـت مقتـل ابـن خـازم حيـث يصـف مشـاهدها بالقـول " إن بكـير لمـا خلـع ابـن خـازم. وكان قـد ولاة عـلى مـرو أخـذ السـلاح وبيـت المـال ودعـا أهـل مـرو إلى بيعـة عبـد الملـك. وهـو الأمـر الـذي دفـع ابـن خـازم إلى محاولـة الهـرب إلى ابنـه مـوسي بترمِـذ، فتبعـه بقـرب مـرو، ودعـا وكيـع بـن الدورقيـة القريعـي فحمـل عـلى ابـن خـازم، وقعـد عـلى صـدره قائـلًا: يـا لثـارات دويلـة[4]. فقـال ابـن خـازم أتقتـل كبـش مـضر بأخيـك[5].

---

(1)ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج2، ص 270.

(2)اليعقوبي،البلدان، ج1، ص 218.

(3)ابن الأثير، نفسه، ج2، ص 270.

(4)دويلة أخو وكيع لأمِّه. وكان مولى لبنى قريع، قتله ابن خازم.

(5)البلاذري، فتوح البلدان، ص 512.

وأيًّا كانت النتائج في هذا الأمر الذي انتهى بمقتل ابن خازم إلا إنَّه مشهدًا عصبيًّا بامتياز، مشهدًا لشخصية سياسية وقيادة طامحة فشلت في النهاية في الحفاظ على مكتسباتها ومنظومتها بعد الانغماس في صراعات قبلية في منطقة من أشد المناطق اضطرابًا واشتعالًا.

إذًا فالإرْث القبلي لم يكن غائبًا في المراحل التي كان يتحرك في فضائها عبدالله بن خازم والتي أسقطت مفاهيمها على الكثير من الصراعات التي كانت تدور وهو طرفٌ فيها، بل إن هذا الإرث لربما كان يوفر الأرضية الخصبة والمفيدة له في بعض أوقات الصراع، ناهيك عن بقية المحددات الأخرى لاسيما السياسية منها حيث كان لكلّ من هذه المدارات ثِقَلٌ ضاغطٌ عليه، لكن هل كان ذلك مقبول أخلاقيًّا بالنسبة لبعض المصادر التاريخية التي اعتبرت فقدان النمط الأخلاقي للشخصية في بعض جوانب تحركها - المقبول منطقيًّا وعقليًّا في كثير من الأحيان - مشهدًا مدانًا.

إننا وفي كل الأحوال لا ننكر قدرة ابن خازم الشخصية وتفرده في منطقة كانت من أصعب مناطق الحكم الإسلامي تسييرا. فابن خازم شخصية تنضح بالمشكلاتِ فعلًا، شخصية يصعب تصنيفها تصنيفًا واضحًا. لقد شارك في الفتوح، وخاض حروبًا فيها. قاتل مع معاوية وانقلب عليه، وهادن ابن الزبير، وانخرط في الصراعات القبلية التي كانت تجري. أما الدافع السياسي والعسكري فقد كان المساند والداعم الحاضر وبقوة في معظم أوقات التغيير والفعل، بل

إن الثقة التي كان يرى فيها ابن خازم نفسه ربما تستدعي منا بعض التوقف لما فيها من غرابة. هذا ما تعكسه لنا الرواية التي تشير أنه عندما حدث الخلاف بين عبد الملك بن مروان وبين ابن الزبير تساءل ابن خازم حين علم بخروج مصعب ابن الزبير لملاقاة عبد الملك بن مروان "أمعه عمر بن مَعْمَر أو المهلَّب بن أبي صُفْرة أو عَبَّاد بن الحُصَين" فلما أجيب بلا - قال "وأنا بخراسان".

تبقى النهاية التي آل لها ابن خازم لتؤكد أنه وعلى الرغم من تحركه في معظم المواقف الحاسمة من منطق براجماتي، إلا أنه لم يكن بعد تنصيبه كقيادة في خراسان ذا طرح سياسي مقبول يمكن أن يساعده على المواصلة. ففي الوقت الذي فقد فيه ابن خازم قدرته على احتواء الفتنة القبلية أو التعامل معها، أتى مقتله.

ومع ذلك واستنادًا لما أدرجناه من بعض المشاهد والأدوار المنتقاة لابن خازم مع السلطة نعتقد أننا نستطيع الدلالة على إدراكه في النهاية أن مفهوم أن السلطة تكون فعالة بدرجة أكبر عندما تصدر عن أشخاص شرعيين[1]" وهو ما حدث بالفعل حين تحولت وسحبت الخلافة اعترافها بأدواره في خراسان واتجهت لتنصيب قيادات وشخصيات أخرى بديلة، على الرغم من بقايا النفوذ الذي كان يتمتع به هناك والمستمد من تحالفاته وقبليته. بل المستغرب أن هذه الأدوات نفسها لطالما كانت بالنسبة لابن خازم أدوات أساسية اعتمد

(1)في هذا الإطار يمكن الرجوع لما تناوله دينكن ميتشل: معجم علم الاجتماع، ترجمة إحسان محمد الحسن، بغداد، 1967م.

عليها في ترقيه السلطوي واستخدمها.

لم يكن حضور ابن خازم التاريخي حضورًا باهتًا وإن تميز بالتقطع لأنه ارتبط بمراحل التأزم والصراعات التي كانت تجري في مناطق أخرى بكثافة واندفاع أشد. لكن - ورغم ذلك - بقي حضور ابن خازم فاعلًا سياسيًّا، فاعل كان قريبًا من تحقيق مشروعه السلطوي المنفرد في خراسان .

الشخصية لم تكن في يوم من الأيام رمزًا دينيًا، مثله في ذلك مثل الكثير من الشخصيات والقيادات. فابن خازم الذي حاولت المصادر إسناد الصدارة له في المشهد كأحد أبطال الفتوحات، (ودون أن نجرده عن مساقات الجهاد والفتوح)، كان في الواقع قيادة باحثة عن سلطة تُشبع طموحه (المقبول) والذي يرى نفسه جديرًا به في ظروف تنامت فيها الحاجات لإدارة السلطة من منطق واقعي بعد أن أصبحت أكبر حجمًا وأكثر اتساعًا.

إن مقارنة بسيطة بين ابن خازم وشبث بن ربعي وأبي الأعور السلمي والمهلب بن أبي صفرة (لاحقًا) تجعلنا نلاحظ مدى القرب والتشابه في الفعل والغاية، فعل تحركهم من منطلقات منطقية أو (نفعية) له ولمنظومته إذا أردنا تحرِّي الدقة. كان هذا السلوك منتقدًا مرة ومقبولًا مرة، ومرتبكًا في كثير من المرات. ابن خازم ليس سوى عينة أخرى من إرث تاريخيٍّ لتلك الشخصيات البراجماتية؛ إرث كاد أن يختفي بفعل ما أنجزته لاحقًا القراءة الإيديولوجية، والمغايرة لها ولأمثالها.

الفصل

الرابع

4

المُهلَّب بن أبي صُفْرة

"راح يكذب" [1]

(1) كان حي من الازد حين يخرج المهلب للقتال يقولون هذا القول - انظر، أحمد أمين، فجر الإسلام، ص 282.

لماذا أفلت المهلب

من سلطة الأوصياء[1]، ومقص الرقابة التاريخية؟

تاريخنا الإسلامي محصلة لمرتكزات وتفاعلات متشابكة سياسيًّا واقتصاديًّا واجتماعيًّا، وبغض النظر عن كثير من النظريات والتحليلات المغايرة، ستبقى الحاكمية الدينية، ودور العقيدة لها العامل الأهم في صنع ذلك التاريخ ما لم تظهر توجهات مغايرة تقودنا منهجيًّا لغير ذلك.

المهلب بن أبي صُفْرة نُخبوي آخر[2]، براجماتي أصيل

(1) سلطة الأوصياء؛ ونقصد بها هنا بعض الكتابات التي أفرغت النصوص المقدّسة والتجارب (البراجماتية أو المنطقية) من محتواها وحيويتها وجعلتها فقط منسوبة لسلطة المقدس والديني.

(2) ويبدو أن زعامة والد المهلب كانت المشهد الذي من خلفه تشكلت شخصية المهلب في المصادر التاريخية كونه سيكون لاحقًا معطى رئيسيًا في كثير من الصراعات السياسية، وهو أيضًا الزعيم =

لنمـوذج مـن نـماذج إسـلام الأصـول (القـرن الأول الهجـري)، شـخصية أخـرى مـن الشـخصيات المحوريـة التـي امتلكـت ميكانيزمـات السـلطة والنسـب والجـاه والمـال[1]، شـخصية تحرَّكـت في ظـروف تاريخيـة مـن منطلـق حسـابات دقيقـة، لم تخـل دوافعهـا مـن المصالـح والسياسـة والقبيلـة.

المهلـب الـذي لاحـت لـه فـرص إبـان عهـد الخليفـة عـلي فـكان الـولاء، وعندمـا اسـتقرت السـلطة لمعاويـة كان الـولاء أيضًـا. وبعـد يزيـد الخليفـة عندمـا لاحـت فرصـة أنسـب مـن

= السـياسي والعسـكري لهـذا التجمـع القبـلي مـن الأزد، لـذا فالتمهيـد لـه ضرورة تحتمهـا تلـك المشـاهد التـي سـتتعلق بـه لاحقًـا مـن آليـات وميكانيزمـات.

(1) إن المنطلـق الـذي كان عـلى مثـل هـذه الشـخصيات الاتـكال عـلى أنفسـها فيـه، ومـن ثـم كان عـلى المؤرخـين الانطـلاق مـن تفسـير المشـاهد والأحـداث مـن هـذا المنطلـق، تـم للأسـف تغييبـه.

قبـل المعارضـة (الزبيريـين) كان التقـاء المصالـح، وبعـد مقتـل مصعـب كانـت العـودة للأمويـين.

مـن الصعـب جـدًا، بـل مـن غـير الصحيـح تاريخيًـا، تفسـير الحـوادث التـي صنعهـا وشـارك فيهـا المهلـب بـن أبي صفـرة وكذلـك التغيـيرات التـي نتجـت عبرهـا مـن زاويـة (الدينـي والأخلاقـي) فقـط، هنـاك دوافـع أخـرى (ثانويـة – وربـما كانـت رئيسـة – أيضًـا) كانـت مـن ضمـن المحـركات، وكانـت بمثابـة التحـدي الـذي سـاعد عـلى تحريـك بقيـة العوامـل الأخـرى التـي كانـت في وضعيـة التهيـؤ والاسـتعداد. عمومًـا دراسـة مواقفـه في مختلـف الحـوادث التـي شـارك فيهـا تتيـح لنـا القـول أنهـا حكمـت بثلاثـة معطيـات.

- **أولًا**: الابتعـاد عـن القتـال أو الانخـراط في معـارك الفتـن (الجمـل–صفـين–معـارك عبـد الملـك ومصعـب في العـراق)
- **ثانيًـا**: أنـه سـيد قومـه[1] بـما يسـتدعيه ذلـك مـن الحفـاظ عـلى مرتكـزات هـذه السـيادة القبليـة، وطبيعـة الـصراع الأزدي المـضري وكذلـك القيـسي عمومًـا.
- **ثالثًـا**: مصالـح السـلطة يصـدق هـذا عـلى معظـم السـلطات التـي اسـتخدمت المهلـب (عـلي، معاويـة، يزيـد، الزبـير، عبـد الملـك بـن مـروان) كانـت تسـتميله وتتعهـد لـه بالحفـاظ عـلى مـا تحـت يـده مـن أمـوال وخـراج ومناطـق.

(1)(الأزد المهالبة).

المهلب نسبه وقبيلته:

....أنت الفتى كل الفتى.... لو كنت تصدق ما تقول[1]

"المبرد"[2]

قديماً لم تكن الأزد ببطونها وعشائرها وقبائلها منفصلة عن طبيعة الصراعات والتحالفات التي كانت تجري في الجزيرة العربية قبل الإسلام فمأرب وما حولها من بلاد اليمن كانت الموطن الأصلي للأزد، لكنهم تركوا اليمن ورحلوا (لأسباب تحتاج لمزيد من البحث والدقة) ، غير أن ما يعنينا وبشكل مباشر هنا أن نذكر أنه من الأزد من نزل مكة (خزاعة) ومنهم من نزل المدينة (الأوس والخزرج)، ومنهم من نزل الشام (آل جفنة) ومنهم من استوطن عمان وكان المهلب المنتمي لأزد (دبا) أحد أفراد تلك القبيلة الذين نزلو عمان وانتمو لها[3].

---

(1)يقال إن المهلب كان يضع الأحاديث المختلقة على الخوارج، لكي يقوي عزيمة جنده، وربما فسر البعض هذا العمل بأنه كان من ضروريات الحرب "فالحرب خدعه".

(2)المبرد، الكامل في الأدب، ج3، ص 318-319

(3)ومن المحقق أن جميع قبائل الأزد تنتسب إلى جدها الأكبر (الأزد)، واسمه دراء بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان. انظر: سيرة ابن هشام ج1، ص13، الهمداني، صفة جزيرة العرب ص328، 330، المسعودي، مروج الذهب ج2، ص 170-174، ياقوت الحموي، معجم البلدان ج5، ص 36-37، كذلك ابن حزم، جمهرة أنساب العرب،ص 330.

يذكر النيسابوري في رواية أنس بن مالك عن الرسول ﷺ قوله: الأزد أزد الله[1]، وفي رواية أخرى "الأزد أُسْدُ الله في الأرض"[2].

وكما هو الحال في الشخصيات التي تعرضنا لها سابقا، لانملك دراية كافية عن نشأة المهلب ومولده. لكن تؤكد المصادر أنه ينتسب إلى أزد دبا كما (ذكر سابقًا)، حيث يقول ياقوت الحموي: الأزد أربعة أقسام: شنوءة، السراة، وأزد عمان، وأزد غسان. وتعتبر الأزد عموما من القبائل العربية المهمة لاسيما أنها أنجبت مجموعة من الشخصيات البارزة التي لعبت أدوارًا في الجاهلية والإسلام. فمنهم مالك بن فهر وعمران بن عمر بن عامر ماء السماء وولداه: الحجر والأسود والنُّعْمَانُ بْنُ الزَّرَافَةِ اللهْبِي حامل راية الأزد في الجاهلية وجُعْثُمَةُ بن يَشْكُر وصُرَد بنِ عَبْدِ اللهَّ الْأَزْدِي وعَمْرو بن مَعَديَكْرِب. كذلك تنتسب إلى الأزد أم المؤمنيَن جويرية بنت الحارث، زوجُ النبي ﷺ وأم أبان زوجُ الخليفة عثمان بن عفان.

ويرى ابن خلكان أن مولد المهلب كان قبيل وفاة الرسول ﷺ بعامين أو ثلاثة أعوام[3].

في حين يروي البلاذري في "أنساب الأشراف" بيت شعر (يحتاج هو الآخر للتحقيق والتأمل) - ورد فيه:

(1) الخركوشي، شرف المصطفى، ج5، ص 265.

(2) الخركوشي، نفسه، ج5، ص 265.

(3) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج5، ص 351، كذلك انظر ابن حجر، الإصابة في تمييز الصحابة، ج3، ص 509.

ألم يكــن أبـــو صفــرة مجــوسيًّا

اسمه بسفروخ، فقلتم أبو صُفرة[1]

عمومًـا أول مـا يلحـظُ في عمليـة التوطئـة للمهلـب تاريخيـا إشـارات في المصـادر عـن دور أبيـه (أبـو صُفْـرة) في بعـض المشـاهد ومـن ثـم المهلـب نفسـه لاسـيما الغـزوات الإسـلامية في الجنـاح الشرقـي مـن دولـة الإسـلام. فابن خيـاط ذكـره في غزو سجسـتان[2]، في حـين أن أولى إشـارات الطـبري عنـه كانـت في حـوادث العـام 50 هــ "خـروج المهلـب مـع والي خراسـان الحكـم بـن عمروالغفـاري" والـذي لأسـباب لم يذكرهـا الطـبري[3]، تـرك القيـادة للمهلـب في هـذه الغـزوة التـي سـميت بغـزوة "جبـل الأشـل[4]".

أغلـب الـدلالات المبكـرة تفصـح أن المهلـب "هـو وحـده وريـث أبيـه في قيـادة قبيلتـه ، وأنـه لم يكـن شـخصًا مغمـورًا، حيـث مـارس دورًا قياديًـا مبكـرًا أهلـه ليكـون مـن قيـادات الصـف الأول المنفـردة في منطقـة تمـوج بالصراعـات والحـروب (خراسـان).

أيضًـا تجُمـع بعـض المصـادر أن والـد المهلـب (أبـو صُفْـرة) كان صحابيـا، قـدم عـلى النبـي ﷺ وأسـلم عنـده، غـير أن هنـاك

(1)البلاذري، أنساب الأشراف، ج 8، ص 292.

(2)تحـت إمـرة عبـد الرحمـن بـن سـمرة. انظـر: ابـن خيـاط، تاريـخ خليفـة، ص 205 – 206.

(3)إلا بالقول "فَعي بالَأمر".

(4)الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج3، ص 216.

مصادر أخرى تنفي ذلك وتستبعده، وترى أن (الوالد) أبو صفرة (قيل إن صفرة نسبة لابنة له)[1] قد أسْلم على عهد النبي ﷺ ولم يفد عليه.

عمومًا أثناء خلافة أبي بكر لعب (والد) المهلب دورًا ما، ولو على نحو غير مباشر، لأنه لم يخرج عن طاعة مُؤسَّسة الخلافة الإسلامية أثناء موجات الصدمة الطارئة على المجتمع الإسلامي المتمثلة في حركات "الردة" تلك الحركات التي لم تكن بالضرورة بسبب أوضاع متجانسة إلا أنها تضافرت فيما بينها لتتسبب في تفجير الوضع . ورغم قدرة الخليفة أبو بكر، محاصرة نتائج الردة بالسرعة القصوى، ونجاحه في إثبات قدرة مؤسسة الخلافة على تدمير وسحق هذه الانشقاقات بمساعدة من مثل هذه القيادات القبلية إلا أن هذه الحركات أحدثت انشقاقات قبلية واضحة في كثير من البنى التقليدية لدولة الإسلام، لاسيما من حيث تأثيرها على طبيعة الاحتشاد القبلي والعصبي منها، يذكر الواقدي أن أبا بَكْرٍ كتب إِلَى عَمْرِو بنِ الْعَاصِ، وَهُوَ بِعُمَانَ، أَقبل عَلَى أَهْلِ عُمَانَ حيث أقبل عمرو بن العاص وهو يقول: هَذَا كِتَابُهُ ويقصد الخليفة أبو بكر، يَأْمُرُنِي بِالْقُدُوم، فَمَا الَّذِي عِنْدَكُمْ مِنَ الرَّأْيِ؟، فَوَثَبَ إِلَيْهِ أَبُو صُفْرَةَ، فَقَالَ: يَا عَمْرُو، إِنَّا نُطِيعُكَ الْيَوْمَ بِطَاعَةِ أَمْسِ، وَنُطِيعُكَ غَدًا بِطَاعَةِ الْيَوْمَ، وَلا

---

(1) انظر: ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج7، ص 129-130 كذلك الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج5، ص 330.

عَصَيْنَـا مَـنْ أَرْسَـلَكَ إِلَيْنَـا. وَالسَّـلامُ"[1].

كان مـن الطبيعـي أن ترصـد لنـا المصـادر دورًا مـا للمهلـب، أو حتـى أبيـه في معـارك الـردة حيـث إن هـذا مـا عـبر عنـه النـص السـابق مـن قـول (أبي صفـرة) لعمـرو بـن العـاص، لكـن هـذا ممَّـا لم تـأت المصـادر التـي تحـت أيدينـا عـلى ذكـره.

وفي عهـد الخليفـة الثـاني عمـر بـن الخطـاب، وهـو المؤدلـج الأهـم لشـكل الدولـة الإسـلامية والمنظـم لأطرهـا المؤسسـية ، كان لأبي المهلـب دورًا حـين أوعـز عمـر لـوالي عـمان أن يـرى إن كان في مقـدور المسـلمين مهاجمـة فـارس عـن طريـق البحـر، وقـد كان الـوالي آنـذاك هـو عثـمان بـن أبي العـاص الـذي طلـب مـن العمانيـين المشـورة، واقترحـوا أن تتـم الاسـتعانة بزعيـم قومـه (أبي صفـرة)، كذلـك يذكـر الواقـدي في كتابـة الـردة[2]: أَنَّ عمـر بعدمـا انتهـت حـروب الـردة، وعـادت الكثـير مـن القبائـل قـال: مَـا كَانَ مِـنْ رَأْيٍ لأبي بكـر قـد كان، وَقَـدْ مَـاتَ أَبُـو بَكْـرٍ، وَقَـدْ أَفْـضَى الأَمْـرُ إِلَيَّ، فَانْطَلِقُـوا إِلَى أَيِّ بَلَـدٍ شِـئْتُمْ، فَأَنْتُـمْ أَحْـرَارٌ لِوَجْـهِ الله تَعَـالَى، فَـلا فِدْيَـةَ عَلَيْكُـمْ، فَمَـضَى الْقَـوْمُ عَـلَى وُجُوهِهِـمْ، فَمِنْهُـمْ مَـنْ صَـارَ إِلَى بِـلادِهِ، وَمِنْهُـمْ مَـنْ صَـارَ إِلَى الْبَـصْرَةِ بَعْـدَ عِمَارَتِهَـا فَنَزَلَهَـا، وَكَانَ أَبُـو صُفْـرَةَ (أَبُـو الْمُهَلَّـبِ) مِمَّـنْ نَـزَلَ الْبَـصْرَةَ بَعْـدَ عِمَارَتِهَـا".

---

(1)الواقـدي، الـردة مـع نبـذة مـن فتـوح العـراق وذكـر المثنـى بـن حارثـة الشـيباني، ص 55.

(2)ج1، ص 201.

ومـع تنامـي الفتوحـات والتوسـع في عهـد الخليفـة عثـمان بـن عفـان، وسـابقة انتقـال المهلـب وأبيـه مـع أهلـه وجنـده مـن الأزد إلى البـصرة التـي كان قـد تولاهـا عبـد الله بـن عامـر[1]. يـأتي ذكـر المهلـب بحملـة سجسـتان أواخـر العـام 37هــ. حيـث كان عمـره في هـذا الوقـت حـوالي العشريـن عامـا، وتؤكـد بعـض المصـادر أنـه اسـتطاع إصابـة ملـك (كابـل) في هـذه الحملـة[2] بالرغـم مـن قلـة خبرتـه العسـكرية وحداثـة سـنه (فهـل كان ذلـك مـن طبيعـة مثـل تلـك المشـاهد والروايـات التـي روجـت لاحقًـا عـن بعـض الشـخصيات وكفاءاتهـم الاسـتثنائية!

(1)عبـد الله بـن عامـر بـن كريـز بـن حبيـب ابـن خـال عثـمان بـن عفـان، إذ إن أم عثـمان أروى بنـت كريـز بـن حبيـب، وأم أروى البيضـاء أم حكيـم بنـت عبدالمطلـب، للمزيـد راجـع: الدينـوري، الأخبـار الطـوال، ج1، ص 139–217 ابـن سـعد، الطبقـات الكـبرى، ج5، ص 49؛ ابـن الأثـير، الكامـل في التاريـخ، ج1، ص487.

(2)ابن أعثم الكوفي، الفتوح، م1، ص 339–340.

مع الخليفة

ثمة جانب من المشهد لا يبدو أنه سيكون مريحًا بالنسبة لتصورات دور فعال أو إيجابي للمهلب وأبيه في عملية صراع الفتنة بين علي ومعاوية، فعلى خلفية الفتنة والصراعات التي كانت تجري لم يتحدَّد ظهورٌ واضحٌ للمهلب ولا أبيه في هذه المشاهد الدموية، خاصة مع غياب إثباتات ودلائل تشي بانخراط أيا منهما في هذا الصراع - وإن أرجعها البعض لسبب انشغالهم بالغزو في جيش عبدالرحمن بن سمرة عامل عثمان بن عفان على سجستان، في المقابل لا نستطيع الوصول لنصوص تفيد ميل المهلب ولا أبيه لأبي طرف قبل الاقتتال. ففي الجمل مثلًا لا نمتلك دليل أن المهلب وأبيه كانا مع طرف ضد طرف وإن صرح والد المهلب لاحقًا بغير ذلك، لكن نستطيع أن نستدل - على الأقل - أن والد المهلب وحينما تقابل مع علي - المنتصر- بعد الجمل أبدى ميلًا نحوه، برغم أن الأزد كانوا من أشد الناس دفاعًا عن عائشة وطلحة والزبير، وقتل منهم خلق كثير في هذه المعركة، إلا أن اللقاء الذي جمع الخليفة علي ووالد المهلب في البصرة في أعقاب الموقعة بثلاثة أيام يشي بهذا الميل، حيث يرد أن الخليفة علي قال له "يا أبا صفرة ما لقيت من أحد مثل الذي لقيت من قومك، فأجابه أبو صفرة، والله يا أمير المؤمنين لو كنت حاضرًا ما اختلف عليك منهم سيفان". في السياق نفسه يأتي تنصيب علي

لوالـد المهلـب رئاسـة الأزد كـما يذكـر الصحـاري في أنسـابه[1].

مـن هـذه المرحلـة تبـدأ مسـيرة المهلـب حيـث يـسرد الصحـاري أن الخليفـة عـلي قـال: " آتنـي بولـد لـك أعقـد لـه لواء يؤمـن بـه النـاس – ويقصـد – مـن الأزد– إذا خرجـوا، فانطلق أبو صفـرة بالمهلـب، وهـو يومئـذ ابـن سـبع وعشريـن سـنة، فأدخلـه عـلى عـليٍّ، فمسـح عـلي مقـدم رأسـه إلى قدميـه، وعقـد لـه الرايـة، وقـال اللهـم ارزقـه الشـجاعة والسَّـخاء والنهـى، وأمـره أن يسـير يـؤم النـاس، قائـلًا لـه: أخـرج في أثـر أهـل البـصرة نحـو الأهـواز والباديـة، فأمنهـم وأخبرهـم أن يرجعـوا إلى منازلهـم في ذمـة الله وذمـة نبيـه ﷺ[2]. وربـما تشـير هـذا المعطيـات هنـا لمجموعـه مـن الاعتبـارات المهمـة إذ تـشرح لنـا طبيعـة التركيبـة القبليـة القائمـة، وتعطينـا فكـرة عـن سـياق الفعـل بغـض النظـر انهـا تـأتي بسـياق (ترويجـي للشـخصية) ، فأبـو صفـرة (أبـو المهلـب) يشـير لعـلي ان غيابـه عـن الجمـل وقتـال الأزد سـببه الرئيـس غيـاب الوحـدة السياسـية داخـل منظومـة الأزد.

وكأنـه يبـين لـه عـلى نحـوٍ غـير مبـاشر أن غيـاب قيـادة (قبليـة) للقبيلـة هـو مـا أوجـد هـذا الخـلاف وأنـه لـو حضرهـا[3] لـكان الضامـن في عـدم قتـال قومـه لعـلي، كـما لم يكـن عـرض

---

(1)الصحـاري، الأنسـاب، المعـروف بتاريـخ العوتبـي، عوتـب الخيـام، ص 205.

(2)الصحاري، الأنساب، ص 2–3.

(3)معركة الجمل.

هذا الكلام فحسب من قبل والد المهلب (أبو صفرة) للرد على الخليفة أو لتوضيح موقفه فقط، بل لربما جاء أيضًا ليطرح طبيعة التشكيلة القبلية وفلسفتها من أنها تحتشد خلف القيادة القادرة على إدارتها بما يحقق المصالح ويحفظ الحقوق.

ولا نستطيع أن نحمل النص أكثر من ذلك، لكنه يبدو لنا أن هذا هو السبب الذي جعل الخليفة يعجل بتعيينه على رأس الأزد ويعقد له اللواء، حتى يجعل كل من ينضوي تحته في مأمن. وهي إشارة واضحة هي الأخرى من علي لأثر القيادة القبلية في صناعه القرار السياسي . وعليه فإن القيمة السياسية التي تفرضها الزعامة القبلية لأبي صفرة ومن بعده المهلب هي هذا الوزن والقدرة على التحشيد مع أو ضد. وهو ما فهمه الخليفة بكل تأكيد حيث جعله رئيس الأزد وعقد للمهلب اللواء[1].

كذلك سنجد من معطيات هذا اللقاء المهم بين علي ووالد المهلب، والمهلب الابن أنه لقاء توازنات ، فبعد انتصار علي لابد أن تقف المصلحة السياسية في الواجهة لأي مفاوضات قائمة، وبالنسبة لأبي صفرة والمهلب فإن الخيار المطروح هو ما ستناله القبيلة (الأزد) بعد خسارتها المعركة وانتصار علي – فهل المصلحة في الاستمرار في استنزاف مقدراتها واستهدافها من قبل المعسكر المنتصر، أم الخروج

(1)الذي يجعل كل من ينضوي تحته في مأمن.

بأيـة مكاسـب سياسـية، أو قبليـة تحفـظ كيانها وتؤمنهـا، وتعيـد إليهـا نفوذهـا السـياسي المفقـود؟

مُجمـل الخطـاب المسـتبطن هـو أنـه وبعـد انتصـار الخليفـة عـلي رفـع أشراف الأزد شـعار "نحـن معـك يـا أمـير المؤمنـين"، نقـول هـذا رغـم أن المصـادر تبقـي شـحيحة في وصـف ملابسـات هـذا الحلـف الجديـد.

براجماتية الخطاب السياسي وتعانق المعطى القبلي

اللواء... للمهلب

لا بد من الإشارة إلى أن الخليفة علي كان يضع الكثير من الشروط والمعايير عند اختيار ثقاته ورجالاته، لاسيما في هذه الظروف (والفتنة المستعرة)، والتي كانت تحتم أن تكون أي قيادة يختارها في هذا الوقت تمتلك القدرة السياسية والحشد القبلي. قد لا تبدو هذه المقاييس الدقيقة مطابقة لما توفره شخصية المهلب، لكن، في تصورنا كان المهلب أهم الشخصيات الواقعية بين إخوته، عُرف بقدرته على القيادة مباشرة، والتعاطي مع الأحداث بعد وفاة أبيه.

يقول الصحاري: كان النجف أسن أولاد أبي صفرة، وحين عرض عليه لواء الخليفة علي، قال: "يا أبت مالي آتي رجلًا جعل قومي أقل العرب وقتل منهم بالأمس ألفين وخمسمائة رجل، فتركه أبو صفرة وعدل عنه إلى أخيه المهلب". من الواضح أن المهلب كان له الاستعداد دون بقية إخوته لتولى الأمر، وليكون هو الوجهة السياسية ويقدم وجهًا جديدًا للأزد مع الخليفة المنتصر. يوحي الخبر المتعلق برفض أخيه هذه المهمة بأننا أمام شخصية منطقية جديدة مثلها هذا الشاب، شخصية أظهرت فاعليتها وتعاطيها بإيجابية مع طبيعة الأوضاع والصراع الدائر. فعقد اللواء للمهلب ورئاسة أبيه الأزد، حتمًا سيمكن قومهما من الاتساق مرة أخرى في منظومة السلطة تحت قيادة وسلطة تتمترس خلف منظومة قبلية بالأساس.

لا عداوة دائمة....لا صداقة دائمة

المهلب في خدمة الأمويين (معاوية ويزيد)؟

أغلب الظن أن المهلب فضَّل النأي عن معركة صفين، التي شاركت فيها عناصر كثيرة من الأزد، ما يعكس قناعة بأن الانخراط في هذا الصراع لا طائل منه. فالطرفان المتنازعان – وبنظرة معمقة – يقتربان من بعضهما في القوة وفي الاحتشاد القبلي.

يمتلك علي بن أبي طالب مقومات السلطة في مناطق ويفتقدها في أخرى، ومعاوية من ناحيته، وبعد معركة الجمل، نجح في الاستعداد الجيد والحشد والتسويق السياسي للقضية على نحو أكثر إثارة (في الشام).

فلئن كانت المصلحة تقتضي التواجد بمعسكر الخليفة إلا أن ذلك أصبح ومع تلاقي السيوف في المعركة أمرا مُكلفًا سياسيًّا، ومن شأنه أن يضر برصيد القوة لدى القبيلة ويلحق الضرر بشخصياتها القيادية. دون هذا لا يمكننا أن نفهم أسباب هذا الابتعاد.

لكن بعد صفين ونتيجة للواقع العسكري والمفاوضات فإن إعادة النظر لطبيعة التحالفات الجديدة صار أمرًا يحتمه الواقع والمنطق مع شخصية مثل المهلب. فبعد انخراط علي وصراعه مع الخوارج، وبعد تثبيت معاوية لأوضاعه (سياسيًّا وعسكريًّا) في الشام وربوعها ومصر، وبعد ذلك وفاة الخليفة علي أصبح

اللجـوء للسـلطة الجديـدة والانضـواء تحـت رايتهـا أمـرًا منطقيًّـا.

تعكــس المصــادر أنــه بعــد وفــاة الخليفــة عــلي كان المهلــب أكثـر حضـورًا، ويكثـر ذكـره في الناحيـة الشرقيـة وفتوحاتهـا، وقـد سـاعد عـلى ذلـك - دون شـك - مـا أظهـره المهلـب مـن قـدرة عـلى القيـادة مما كان دافعًـا لأغلـب الـولاة الذيـن تولـوا خراسـان ومـا حولهـا في عهـد معاويـة أن يجعلـوا المهلـب أحـد قادتهـم العسـكريين، ويسـتعينوا بـه. يـرد في للبـلاذري أن المهلـب، في عـام أربـع وأربعـين، (في خلافـة معاويـة) خـرج إلى الغـزو فأتـى بنـة والأهـواز[1]. ويقـول ابـن خيـاط:" سـنة 56هــ عـزل معاويـة عبيـد الله بـن زيـاد عـن خراسـان وولاهـا سـعيد بـن عثـمان بـن عفـان فغـزا ومعـه المهلـب بـن أبي صفـرة[2]، وهـو مـا يؤكـده ابـن عسـاكر[3] والبـلاذري حـين أوردو أنــه في هــذا العــام " فقئـت عـين المهلـب بـن أَبِي صفـرة" حـين غـزا سَـعِيد بـن عُثْـمَان سـمرقند[4]. وفي العـام 61 هــ وفي خلافـة يزيـد بـن معاويـة كان عـلى خراسـان وسجسـتان سـلم بـن زيـاد حيـث كان إلى جانبـه أيضًـا المهلـب بـن أبي صفـرة، أمـا خليفـة بـن خيـاط والطـبري فيذكـران أنـه في العـام 65 هــ كان المهلـب أحد قـواد سـعيد بـن عثـمان بـن عفـان حـين خـرج لولايـة خراسـان[5].

---

(1)البلاذري، فتوح البلدان، ص 417.

(2)خليفة بن خياط، تاريخ خليفة، ص 224.

(3)ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج21، ص 223.

(4)البلاذري، فتوح البلدان، ص 397.

(5)الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج5، ص 305.

إن الأمـر الأشـد إثـارة للانتبـاه هـو كيفيـة انتقـال شـخصية كالمهلـب بـكل هـذه السلاسـة في الـولاء القبـلي.

ففـي هـذه المشـاهد، وبغـض النظـر عـن غيـاب المهلـب عـن صفـين والتـي لا نمتلـك معطيـات متوافـرة عنـه فيهـا إلا الاسـتنتاج والتحليـل. مـن الناحيـة المنطقيـة لا يمكـن أن نـرى في انتقـال المهلـب إلى صـف معاويـة مـا يعيـب.

نذكـر أن فـترة خلافـة عـليٍّ كانـت أربـع سـنوات مـن الفتنـة والحـرب الأهليـة، انتهـت بمقتـل الرجـل نفسـه مغتـالا، كذلـك تمـت تصفيـة عـدد مـن الصحابـة واحـدًا إثـر الآخـر في اغتيـالات ومؤامـرات لم تنتـهِ حتـى بعـد أن انتهـت الخلافـة الراشـدة نفسـها.

إن تحـول الرجـل ليصبـح أحـد الفاعلـين في دولـة بنـي أميـة وأحـد الأطـر العسـكرية والسياسـية للأمويـين بالمنطقـة الشرقيـة، وإثبـات فاعليتـه وقدرتـه عـلى الفعـل السـياسي أمـر مفهـوم إذ يـرد في تاريـخ ابـن خيـاط روايـة أن المهلـب قـال:" وجهنـي سـلم بـن زيـاد إلى يزيـد بـن معاويـة بالشـام مـن خراسـان"[1] فقدمـت

(1)وهـي روايـة فيهـا سـبه الغيبيـة حيـث تسـتكمل الروايـة القـول " فقدمت عليـه فـوالله إني لقائـم إلى جنـب سريـره عنـد رأسـه ويـدي عـلى مرافقـه إذ جـاء الآذن فقـال لـه هـذا عبـد الملـك بـن مـروان يسـتأذن فقـال يزيـد بـن معاويـة أليـس قـد قضينـا حوائجـه أبيـه فقـال إنـما سـأل أن يكلمـك قائـمًا ولا يجلـس، قـال يزيـد فـأذن لـه، قـال المهلـب: فدخـل رجـل آدم أدعـج العينـين سـهل الوجـه جميـل عليـه عمامـة سـوداء قـد أرخاهـا من بـين يديـه ومـن خلفـه كمـا يفعـل القـراء فكلمه فقـال يزيـد نعم =

عليـه فـو الله إني لقائـم إلى جنـب سريـره عنـد رأسـه ويـدي عـلى مرافقـه"[1]. تكشـف الروايـة عـن مـدى مـا كان يتمتـع بـه المهلـب مـن مكانـة عنـد القيـادة السياسـية الممثلـة في يزيـد بـن معاويـة.

لكـن يحـق التسـاؤل هـل هـذه المكانـة التـي حظـي بهـا المهلـب مـع يزيـد وقبـل ذلـك مـع الخليفـة عـلي، وقدرتـه عـلى التعاطـي مـع النقيضـين، تحمـل في طياتهـا ازدواجيـة مـا؟ أم أن الأمـر يتعلـق بسـلوك سـياسي لا صلـة لـه بقناعـة دينيـة أو أخلاقيـة؟

إن اختيـار المهلـب لأن يكـون دائـمًا في صـف أحـد الأطـراف الفاعلـة سياسـيًّا مـا هـو في (نظرنـا) إلا موقـف منطقـي يخـدم مصلحـة النظـام الـذي ينتمـي لـه - هـذا مـن جهـة - ومـن جهـة أخـرى مصلحـة القبيلـة (الأزد). لذلـك لا عجـب أن تتبـدل الأدوار والمصالـح وأن ينضـم المهلـب لقيـادة سياسـية تؤمـن لـه المصالـح والمغانـم، ومـن غـير المفيـد الاسـتمرار في الوقـوف ضدهـا.

= وكرامـة. فلـما ولى أتبعـه يزيـد بـصره، ثـم أقبـل عـليّ فقـال يـا مهلـب، فقلـت لبيـك يـا أمـير المؤمنـين قـال زعـم أهـل الكتـب أن هـذا سـيملك، قـال: فقلـت الله أعلـم، والله لئـن ملـك إنـه لعفيـف في الإسـلام، واسـط في العشـيرة، قـال فبلغـت عبـد الملـك عـن المهلـب، فـكان يشـكرها لـه، حتـى كتـب إليـه بـما كتـب ثـم اسـتعمله بعـد ذلـك عـلى خراسـان. انظـر: ابـن خيـاط، تاريـخ خليفـة، ص 262.

(1) خليفة بن خياط، تاريخ خليفة، ص 262.

المهلب وموت يزيد

● البقاء بعيدًا عن الانهيار

كانت وفاة يزيد بن معاوية فاتحة لأزمة معقدة طالت معظم الأطراف الفاعلة سواء منها القيادات أو الحلفاء. في خراسان تأزمت أوضاع المقاطعة أمام الوالي سلم بن زياد، والي يزيد على خراسان، فاستخلف المهلب.

يقول الطبري: "لما اختلف الناس بخراسان ونكثوا بيعة سلم، خرج سلم عن خراسان وخلَّف عليها المهلب بن أبي صفرة"[1]. ويورد ابن الأعثم الكوفي في فتوحه: "علم سلم بن زياد أن يزيد بن معاوية قد مات، فتجهز وخرج يريد بلاد الشام، وخلّف المهلب بن أبي صفرة على بلاد خراسان[2]. يرد كذلك في تاريخ ابن عساكر:" لما مات يزيد استخلف سلم بن زياد المهلب بن أبي صفرة عليها ولحق بالشام[3]. لكن تتعمق المفارقة على نحو أكبر لأن المهلب رفض المنصب[4].

هل كان حافزه التهرب من احتلال موقع الصدارة في مرحلة اتسمت بالتشتت وغياب الرؤيا الواضحة؟ هل كان

---

(1)الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج5، ص 546.

(2)ابن أعثم الكوفي، الفتوح، ج5، ص 169.

(3)ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج28، ص 12.

(4)بطريقة ربما تقترب من شكل الاعتذار الدبلوماسي في وقتنا الحالي.

يدفعه إلى ذلك غموض صورة المستقبل؟. حيث يرد في تاريخ الطبري: "لما بلغ الخبر المهلب بن أبي صفرة، أقبل واستخلف رجلا من بني جشم بن سعد بن زيد مناة بن تميم"[1]. ويذكر ابن الاثير كذلك "بلغ خبره المهلب فأقبل واستخلف رجلًا من بني جشم بن سعد بن زيد مناة بن تميم[2].

أسباب هذا الرفض تبقى غامضة. لكن ربما يتكشَّف جزء من أسبابها إذا ما نظرنا لطبيعة خراسان في ذلك الوقت من حيث الصراعات وشدة تأثيرها، فمثله مثل كثير من القيادات، ومن بينها ابن خازم نفسه، كان يسعى من أجل مكانة له في خراسان، لذا فإن الأمر الأكثر إثارة هو لماذا تم استخلافه لرجل من خارج قبيلته الأزد.

إن رفض المهلب هذه الفرصة (النادرة) التي طالما كانت تراود قيادات عسكرية أخرى كانت تخرج للجهاد في المنطقة نفسها أمر لا يمكن فهمه إلا تحت ضوء الصراع القبلي المحتدم في خراسان، والصراع على السلطة بين ابن الزبير بمكة والأمويين في دمشق، وعلاقة كل ذلك بالعوامل والمعطيات السياسية والعسكرية المتغيرة دوما هناك. فموقف المهلب هو موقف منطقي إن قرأناه في سياقه العسكري، موقف محكوم بمجموعة من التناقضات، بحيث لا يمكن استيعابها وتأطيرها إلا وفق تصور المصلحة وأبجديات المغانم.

(1)الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج5، ص 546.

(2)ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج3، ص 246.

يشـكل كل ذلـك جـزءًا لا يتجـزأ مـن جدليـة العلاقـة بـين السـلطة والقبيلـة، لـذا إذا مـا حاولنـا تصـور أسـباب هـذا الرفض فيمكـن حـصره في الأتي:

أولًا – انقسـام المجـال السـياسي بين دمشـق عاصمـة الأمويين وبـين مكـة التـي يتمركـز فيهـا المعـارض القـوي ابـن الزبـير، ومـا أسْـفر عـن هـذا الوضـع مـن تكريـس للانفصـال و"القطيعـة" بين مجـالي القبيلـة والسـلطة في هـذه المرحلـة، واسـتحالة رجـوح كفـة أحدهمـا عـلى الآخـر. فعمليـة تـولي خراسـان بالنسـبة للمهلـب هـي إذا عمليـة محفوفـة بالمخاطـر لاسـيما في ظـل وجـود منافسـين أقويـاء مثـل ابـن خـازم.

ولقـد كنـا تطرقنـا لهـذا القضيـة في فقـرة سـابقة، ويمكننـا الآن أن نرسـم الفـرق فيهـا بـين أمريـن:

الأمـر الأول – أن ابـن خـازم تحفـز لهـذا المنصـب وعمـل عـلى الوصـول إليـه عـلى نحـو شـخصي، ومـن خـلال إبـراز قدراتـه السياسـية والعسـكرية، في حـين نـرى أن المهلـب، وعـلى النقيـض مـن ذلـك، يرفضـه بـل ويـترك الأمـر لقيـادة مـن غـير قبيلتـه الأزد. لا شـك أن الأخـير فهـم أن الـزج بـالأزد في صراع قبـلي تجعلـه وقبيلتـه هدفًـا للقمـع أو الطـرد في ظـل غيـاب أفـق واضـح للسـلطة (المركزيـة)، وهـو أمـر لا يمكـن المجازفـة معـه، فهـذه المخاطـرة ربـما تهـدد مجـال نفـوذ وبقـاء الأزد كقبيلـة مترابطة في خراسـان، يضـاف إلى هـذا أن معظـم القبائـل، وخاصة القيسـية منهـا، لم تكـن راضيـة عـن إسـناد ابـن زيـاد خراسـان للمهلـب.

يقول الطبري: "لقي سليمان بن مرثد أحد بني قيس بن ثعلبة سلم بن زياد، فقال له: من خلفت على خراسان؟ قال: المهلب، فقال: ضاقت عليك نزار حتى وليت رجلًا من أهل اليمن[1]".

 الأمر الثاني - قدرات الشخصيتين وطبيعتهما السياسية، وأولويات وتراتيب المصالح والرؤى التي حكمتهما. فالمهلب له رصيد قبلي ضخم اعتمد عليه في تحركه، وعليه فلو تولى هذا المنصب فإن ذلك سيجعل القبيلة مستهدفة وستُحسب توجهاته على كل الأزد. هذا ما لا يتوفر لابن خازم ولا يُثقل كاهله لأن قبيلة سليم لا تشكل ثقلًا قبليًّا وعسكريا كبيرا بالمنطقة في هذه الفترة. وعليه فابن خازم يعتبر أن قفزه لاستلام السلطة وإبرازه لقدراته وتشكيل وضعه، حتى وإن كان بثمن مرتفع لن يمس بقية الأوضاع القبلية المحيطة به.

لذلك، كان استخلاف المهلب لشخص من غير أهله بمثابة تخلص من هذا الوضع المعقد، وبقاء في إطار الشرعية السياسية المركزية نفسها، مما لا يشكل مجالًا واسعًا للجدل والاختلاف والاستقطاب، وربما للاتهام والاقتتال، ولن يُفهم منه أنه شق لعصا الطاعة. حيث يذكر ابن عساكر أن المهلب توجه إلى الشام وهي آنذاك معقل الأمويين وليس إلى الجزيرة التي بدأت تتشكل فيها معارضة حثيثة لحكم بني أمية.

(1)الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج5، ص 546.

في ضيافة الزبيريين... سيدًا لأهل العراق.

إن مسألة البيعة وما يخص الشرعية بعد مقتل يزيد بن معاوية تعاطت معها كثير من الشخصيات والقيادات الإسلامية في القرن الأول الهجري بنوع من التوجس والريبة من حيث رفضهم بيعة الأمويين أو قبولهم لها، ورفضهم كذلك بيعة ابن الزبير أو قبولها. غير أن ما يعنينا في هذه الإشكالية، هي أنه مع استمرار ضبابية المشهد في دمشق ومع تنازل معاوية الثاني عن الحكم والصراع على السلطة بين الأمويين أنفسهم، وانفراط عقد السلطة المركزية بدمشق، وظهور حالة من الفراغ السياسي، كوَّن كل هذا وضعًا مناسبًا لمراقبة كيفية التعاطي وتوجهات القيادات المختلفة لبيان الدوافع والأسباب لكل منها، واختيار كل قيادة لما يناسبها من الكتل السياسية المتشكلة.

هذا ما يقتضي النظر له بدقة وتسليط الضوء على جزئياته وتفكيك الصورة العامة له لمزيد من الفهم.

يكشف لنا الفحص عن مدى حاجة هذه السلطات والشرعيات المتشكلة لمثل تلك القيادات والشخصيات والزعامات القبلية والسياسية وغيرها من أصغرها إلى أكبرها. فالسلطة المركزية تحتاج عند تشكلها لمن يدعمها ويستكمل لها أدوات سيطرتها وتوفير التبرير الشرعي لوجودها.

كذلك القيادات والزعامات القبلية هي الأخرى، لئن كانت قادرة على التحرك بأشكال مختلفة، إلا أنها تظل محتاجة

لسلطة مركزية تضفي على تحركاتها الشرعية المطلوبة

فحين تصبح هذه القيادات والشخصيات والزعامات بدون سلطة مركزية قد تخسر قدرتها على الاستمرار والبقاء وعلى تمثيل الوسط القبلي التي تريد تمثيله (وهي نظرة ربما غابت عن ابن خازم وتعاطيه معها).

وعليه فان ما يبدو لبعض القيادات السلطوية من أن هناك رغبة لدى رجال القبائل في التخلص من السلطة المركزية أو العمل على زوالها هو في واقع الأمر بعيدًا عن المعقول (والمنطقي).

ففراغ عرش الخلافة بعد وفاة يزيد جعل كل قوة تبحث عن مظلة. حيث عزز هذا التمزق - على صعيد الاختيار السياسي أيضًا - التمزق على صعيد الولاءات القبلية بالنسبة لكثير من الزعامات، فحين أتى المهلب الشام واكتشف الفراغ السياسي فيه والتصارع كان حتمًا عليه التوجه للقوى الجديدة التي كانت تتشكل في مكة وهي قوى (المعارضة) المتمثلة في ابن الزبير. في هذا الإطار جاءت تلك الزيارة. يقول ابن عساكر[1] " وفد المهلب بن أبي صفرة على عبد الله بن الزبير فأطال الخلوة معه فجاء ابن صفوان فقال من هذا الذي قد شغلك منذ اليوم يا أمير المؤمنين، فقال هذا سيد العرب بالعراق" وكان يقصد المهلب.". إنها محاولة منطقية من المهلب لتعزيز صلاته

(1)ابن عساكر، تاريخ دمشق (29ج / ص 213).

بالقيـادات الفاعلـة، بـل هـي أنمـوذج حـي يحث باقـي الزعامـات علـى التسريـع بالاعـتراف بابـن الزبـير كسـلطة مركزيـة بديلـة بعـد وفـاة الخليفـة يزيـد، وتنـازل ابنـة معاويـة، وفي ذلـك مـا يدعـم نشـأة سـلطة مركزيـة جديـدة تخفـف مـن خطـر المواجهـات القبليـة. في ضـوء كل هـذه الأبعـاد يمكننـا أن نفهـم دلالات تبـدل الـولاء مـن قِبَـل المهلـب مـن الأمويـين إلى الزبيريـين.

ابـن الزبـير هـو أيضًـا وبفعـل الفـراغ السـياسي المتخلـف عـن عـدم اتضـاح الصـورة بعـد مـوت يزيـد، اسـتطاع التواصـل وخلـق نفـوذ قـوي لـه بمكـة والمدينـة وخراسـان وأجـزاء مـن العـراق واليمـن، كـما نجـحَ ابـن الزبـير كذلـك في اسـتقطاب عـدد مـن القيـادات البـارزة وبنـاء تحالفـات قويـة معهـم. في هـذا الإطـار، كانـت زيـارة المهلـب لابـن الزبـير بمثابة إعـادة تموقـع جديد بالنسـبة لـه، خاصـة وأن الزيـارة كانـت بمثابـة إعـلان الـولاء لدولـة ابـن الزبـير التـي تتشـكل، حيـث تبـع ذلـك إقـرار ابـن الزبـير للمهلـب بولايـة خراسـان.

حتـما لـن تتسـع هـذه الصفحـات التـي تعالـج طبيعـة شـخصية مواقـف المهلـب مـن الأحـداث وصناعتهـا لعـرض كل تفاصيـل الـصراع بـين السـلطة السياسـية للدولـة الإسـلامية في قرنهـا الهجـري الأول منـذ صفـين ومـا تلاهـا مـن اقتتـال مـع الخـوارج، صراعـات سـتبقى تشـكل للمؤرخـين والباحثـين في كل وقـت وحـين مجـالًا خصبًـا للتحليـلات والاسـتنتاجات والافتراضـات لكـن، قـد تكـون بعـض المحطـات القليلـة حـول بعـض النقـاط التـي تثيرهـا المصـادر

عـن صراع المهلـب مـع الأزارقـة، وإن كانـت في الواقـع اسـتقطاعًا مـن مشـاهد معقـدة ومتشـابكة.

إن السـلطة المركزيـة وعـلى أهميتهـا تظـل عاجـزة عـن ضـمان الاسـتقرار والأمـن اللازمـين؛ بـدون قيـادات قويـة تسـتطيع تنفيـذ سياسـاتها في بسـط سـيطرتها عـلى أرض الواقـع، في هـذا الإطـار تحديـدًا تشـكلت طبيعـة الـدور الجديـد للمهلـب مـع الزبـير. فمـع إحجـام الكثـير مـن المناطـق عـن مبايعـة ابـن الزبـير، ومـع الصراعـات القبليـة والدينيـة التـي بـدأت تنشـأ جـراء الفـراغ المركـزي لسـلطة دمشـق، انتـشر منـاخ مـن التوجـس والتحفـز نحـو أي سـلطة جديـدة حتـى ولـو كانـت سـلطة ابـن الزبـير بـكل مـا كان لـه كاريزمـا سياسـية ودينيـة؛ بحيـث أصبـح الخيـار الأبـرز المتـاح، وفـق ذات المنطـق القبـلي، هـو مـا يدفـع إليـه منطـق الحصـول عـلى المغانـم وتفـادي الخسـائر لـدى أي شـخصية قياديـة تتعامـل معـه.

يـرد في الأخبـار الطـوال للدينوري:"قـال الأحنـف بـن قيـس للحـارث بـن عبـد الله: أيهـا الأمـير، أكتـب إلى أمـير المؤمنـين عبـد الله بـن الزبـير، وسـله أن يكتـب إلى المهلـب بـأن يخلـف عـلى خراسـان رجـلًا، ويسـير إلى الخـوارج، فيتـولى محاربتهـم. فكتب.فلـما انتهـى كتابـه إلى عبـد الله بـن الزبـير كتـب إلى المهلـب: بسـم الله الرحمـن الرحيـم، مـن عبـدالله أمـير المؤمنـين إلى المهلـب بـن أبـى صفـرة، أمـا بعـد، فـان الحـارث بـن عبـد الله كتـب إلى يخـبرني أن الأزارقـة المارقـة قـد سـعرت نارهـا، وتفاقـم أمرهـا، فرأيـت أن أوليـك قتالهـم، لمـا رجـوت مـن قيامـك، فتكفـي أهـل مـصرك شرهـم، وتؤمـن

روعتهم، فخلِّف بخراسان من يقوم مقامك من أهل بيتك، وسر حتى توافى البصرة، فتستعد منها بأفضل عدتك، وتخرج إليهم، فأنى أرجو أن ينصرك الله عليهم، والسلام. فلما وصل كتابه إلى المهلب خلف على خراسان." ويرد في تاريخ الطبري أن المهلب " قال: فإني والله لا أسير إليهم إلا أن تجعلوا لي ما غلبت عليه، وتعطوني من بيت المال ما أقوِّي به من معي، وأنتخب من فرسان الناس ووجوههم وذوي الشرف من أحببت، فقال جميع أهل البصرة: ذلك لك[1]. يستكمل الدينوري صورة الأحداث فيقول: أقبل حتى وافى البصرة، فصعد على المنبر، وكان نزر الكلام وجيزه، فقال: أيها الناس، إنه قد غشيكم عدو جاحد، يسفك دماءكم، وينتهب أموالكم، فان أعطيتموني خصالًا أسألكموها قمت لكم بحربهم، واستعنت بالله عليهم، وإلا كنت كواحد منكم لمن تجتمعون عليه في أمركم. قالوا: وما الذي تريد؟ قال: أنتخب منكم أوساطكم، لا الغنى المثقل، ولا السبروت المخف، وعلى أن لي ما غلبت عليه من الأرض، وألا أُخالف فيما أُدبر من رأيي في حربهم، وأُترك ورأيي الذي أراه، وتدبيرى الذي أُدبره، فناداه الناس: لك ذلك[2].

والواضح أن العروض التي قدمتها السلطة للمهلب لم تكن بمستوى طموحه، فربما كان امتثال المهلب في البداية ووصوله البصرة شكلا من أشكال التعاطي المنطقي، فهو مكلف من

(1)الطبري، تاريخ الرسل والملوك، 5ج، ص 616.

(2)الدينوري، الأخبار الطوال، ج1، ص 271.

قبل قيادة شرعية، لكن عدم وضوح المكاسب المنتظرة استتبعه اشتراط المهلب على أهل البصرة عدة شروط يمكن للمتمعن فيها أن يكشف أنها لا تعكس غير مصلحية قبلية بحتة، بل ربما يمكن أن نرى فيها شروطًا شبيهة بما كانت القبائل تشترطه قبل الإسلام في (أحلافها وتحالفاتها)، ومنها أخذ ما يغلب عليه، وتوفير ما يقوي المجندين للحرب حتى يمكن انتخاب مَنْ يصلح من فرسان ووجوه الناس، في انتظار العوائد الأخرى المنتظرة. كل ما هناك من فرق هو أن هذه الشروط تمت مناقشتها تحت غطاء وبرضاء سلطة الخلافة التي تحاول أن تتشكل وأن تخلق لنفسها شرعية مستقرة (الزبيريين).

وربما جاء توجه المهلب بهذه الشروط لأهل البصرة مُفصِحًا عن قدرة على اختيار الأرض والمكان المناسب لعرض المطالب السياسية والمادية، وربما يعطينا ذلك إطلالة غير مباشرة على أسباب إحجام المهلب عن الخوض في صراعات الفتنة سابقًا، وقبوله في مرحلة لاحقة بالتوجه لقتال الأزارقة رغم ما اشتهروا به من القوة والاستبسال في القتال. فنرى المهلب يتوجه لقتالهم على ما اشترطه من دون أن يتبنَّى أو يعلن أي مطلب أيدلوجي آخر له علاقة بالمعتقدات الدينية أو الأخلاقية. كانت مطالبه فقط مطالب منطقية واقعية لدعم موقفه حين الخروج لقتال وتأمين الموارد المالية اللازمة له ولجيشه.

تشير المصادر أنه ومنذ العام الخامس والستين من الهجرة انخرط المهلب في قتال الأزارقة، وتوفر له ولقبيلته ورجاله

وضعًـا ماليًّـا جيـدًا، وأرسـلت لـه القيـادة السياسـية رسـالة تشـيد بـما يحققـه، يقـول ابـن أعثـم إن مصعـب ابـن الزبـير أرسـل للمهلـب برسـالة جـاء فيهـا: " بسـم الله الرحمـن الرحيـم، مـن مصعـب بـن الزبـير إلى المهلـب بـن أبي صفـرة؛ أمـا بعـد، فـإن النـاس لـو أعطـوا كل إنسـان عـلى قـدره لقدمـت في العـرب قاطبـة غـير مُدَافَـعٍ، لمـا قـد بقـي الله بـك العـدو، وغلـب بـك عـلى البـلاد، فـإن طاعتك وحسـن بلائـك قـد بلـغ بـك عندنـا كل الـذي تحـب"[1].

عبـارات مصعـب التـي اسـتخدمها في رسـالته تؤكـد بدورهـا أن السـلطة تلحظـه وتـرى أهميـة مـا يقـوم بـه، كذلـك تحمل الرسـالة معـاني الرضـا والاقتنـاع بمنطقيـة إدارتـه للـصراع، في المقابـل كان المهلـب يـدرك أن نجاحـه في القتـال يحقـق لـه عوائـد ماليـة مـن شـأنها أن تزيـد في نفـوذه وقدرتـه عـلى التحشـيد.

في هـذه الأثنـاء كان الأمويـون يحاولون إعـادة التوازن وتشـكيل خلافتهـم انطلاقًـا مـن سـيطرتهم عـلى الشـام ومـصر وبعـض ربـوع متفرقـة مـن العـراق. ومـع قـدرة مصعـب بـن الزبـير عـلى التخلـص مـن المختـار بـن عبيـد الثقفـي ومـع توليـة المهلـب الأقاليم التـي كان يسـيطر عليهـا الأشـتر في الموصـل والجزيـرة وأذربيجـان، جـاءَ عـزل المهلـب ومنعـه اسـتكمال قتـال الأزارقـة، حيـث يقـول ابـن أعثـم في ذلـك " لم يـزل المهلـب باقيًـا عـلى حـرب الأزارقـة حتـى قالـوا: أيهـا الأمـير! إن المهلـب رجـل يحـب مطاولـة العـدو، لمـا يجبـي مـن البلاد، ولـو عزلتـه ووليـت غـيره حـرب الأزارقـة لـكان في ذلـك هـلاك

(1)ابن أعثم الكوفي، الفتوح، ص 189.

العـدو وتوفـير المـال عـلى أمـير المؤمنـين، فعـزل مصعـب بـن الزبـير المهلـب عـن حـرب الأزارقـة، فرجـع المهلـب حتـى نـزل بموضـع يقـال لـه الزائـدان مـع بنيـه وعشـيرته. فهـل كان عـزل المهلـب عـن قتـال الأزارقـة هـو الآخـر تحـرك منطقـي مـن السـلطة لتحجيـم قيـادة أصبحـت تـرى فيهـا خطـورة عليهـا؟

يمثـل هـذا في كل الأحـوال توجهًـا جديـدًا للسـلطة وتراجعًـا عـن التعاطـي بإيجابيـة مـع مثـل هـذه الشـخصيات، وهـو مـا يدعـم تصورنـا عـن أن هـذا النـوع مـن القيـادات السياسـية كان لا يسـعى لأكثـر مـن تحقيـق مكتسـبات لـه ولمنظومتـة القبليـة. إن هـذا المنـاخ الجديـد هـو مـا أعطـى لبعـض مـن الوشـاة فرصـة النيـل منهـم عنـد السـلطة.

فـإذا كانـت قـوة المهلـب تتجسـد في جمعـه للعنـاصر القبليـة، فـإن ذلـك بالـذات تحـول إلى سـبب للريبـة في أعـيُن السـلطة. لذلـك أخـذت الاحتجاجـات والاتهامـات تصـل إلى مصعـب، اتهامـات للمهلـب بأنـه يتعمَّـد إطالَـة أمـد الحـرب ليتحصـل عـلى مزيـد مـن العوائـد والأمـوال، وهـي نفـس التهمـة التـي سيُتهم بهـا لاحقًـا في زمـن الحجـاج وعبـد الملـك بـن مـروان أيضًـا.

إلى هنـا تحركـت السـلطة تحـركًا منطقيًـا وعزلـت المهلـب ومنعتـه مـن الاسـتمرار في قتـال الأزارقـة، لكـن يبـدو أن النتائـج التـي حققهـا الأزارقـة سـاعدت عـلى عـودة المهلـب لحربهـم مـرة أخـرى، حيـث أعـاده مصعـب لقتالهـم في العـام الثامـن والسـتون واسـتمر في حربهـم حتـى العـام الواحـد والسـبعون هجريًّـا، وهـو

العـام الـذي تحـرك فيـه عبـد الملـك بـن مـروان واسـتطاع فيـه هزيمـة مصعـب.

وقبـل الحديـث عـن أسـباب التحـول للمهلـب نحـو الخليفـة الجديـد لابـد أن نشـير أنـه كان هنـاك صراع قـوي بـين عبـد الملـك بـن مـروان وبـين الزبيريـين، غـاب عنـه المهلـب، مثلـما غـاب سـابقًا عـن الجمـل وصفـين. إن هـذا المُعطـى يدعـم بشـكل كبـير تصورنـا السـابق. ففـي الفتـن تكـون المغانـم قليلـة، وهـذا لا يخفـى عـلى شـخصية كشـخصية المهلـب. لذلـك كان الاسـتقلال لـه أنسـب. لكـن هـذه الفرضيـة ربـما كانـت هـي الأخـرى فرضيـة مرفوضـة، لأن الأطـراف المتصارعـة قويـة ولابـد مـن تـرك البـاب أمـام أي فرصـة مناسـبة تلـوح في الأفـق.

لا تمنحنـا المصـادر فرصـة مؤكـدة للدلالـة عـلى معرفـة مـا قـد يكـون المهلـب خاضـه مـن نقاشـات ليـبرر أسـباب غيابـه عـن الفتـن، سـواء لتواجـده في أماكـن أخـرى أو لانشـغاله بحـروب الأزارقـة. يبقـى الـدور الـذي لعبـه المهلـب بالنسـبة لمعالجتنـا يمثـل لنـا تعاطيًـا إيجابيًّـا مـع الحـوادث وبقـدرة عاليـة. لكـن قـد لا يمثـل الصنـف الوحيـد مـن البراجماتيـين الذيـن كانـت الفتـن والمصـارع أحيانًـا بابًـا مـن أبـواب الارتقـاء في السـلم السـياسي والاجتماعـي والقبـلي لهـم.

عودة الولاء

عقب مقتل مصعب ابن الزبير وسيطرة عبد الملك بن مروان على العراق في العام 71م بايع المهلب الخليفة الجديد عبد الملك بن مروان، على الرغم من أن ابن الزبير كان لا يزال بمكة إذ لم يُقتل إلا في سنة 73هـ.

يقول الطبري: "أن الأزارقة والمهلب بعدما اقتتلوا بسولاف ثمانية أشهر أشد القتال أتاهم أن مصعب بن الزبير قد قتل فبلغ ذلك الخوارج قبل أن يبلغ المهلب وأصحابه فناداهم الخوارج ألا تخبرونا ما قولكم في مصعب، قالوا إمام هدى، قالوا فهو وليكم في الدنيا والآخرة، قالوا نعم قالوا وأنتم أولياؤه أحياءً وأمواتًا قالوا ونحن أولياؤه أحياءً وأمواتًا. قالوا فما قولكم في عبد الملك بن مروان قالوا: ذلك ابن اللعين، نحن إلى الله منه براء، هو عندنا أحل دمًا منكم، قالوا: فأنتم منه براء في الدنيا والآخرة قالوا نعم، كبراءتنا منكم قالوا وأنتم له أعداء أحياءً وأمواتًا، قالوا نعم، نحن له أعداء كعداوتنا لكم، قالوا فإن إمامكم مصعبًا قد قتله عبد الملك بن مروان ونراكم ستجعلون غدًا عبد الملك إمامكم وأنتم الآن تتبرؤون منه وتلعنون أباه. قالوا كذبتم يا أعداء الله. فلما كان من الغد تبين لهم قتل مصعب فبايع المهلب الناس لعبد الملك بن مروان".

وفي رواية للطبري أرسل عبد الملك بن مروان إلى المهلب يقول له " الناس مجتمعون على بيعتي فإن دخلت

عرفنـا لـك منزلتـك... وإن لم تفعـل اسـتعنا بـالله عليـك[1]".

هكـذا ينتقـل الـولاء للأمويـين ومـن جديـد، فعلى مسـتوى المنطـق والواقعـي - كان زوال سـلطة مصعـب المسـتمدة مـن سـلطة أخيـه في مكـة وعجـزه عـن مواجهـة عبـد الملـك بـن مـروان السـلطة المركزيـة الجديـدة الأقـوى والأكثـر تجـذرًا واندماجًـا. بـدأت ومـن خـلال التحالفـات ومـع الزمـن تكتسي طابعًـا سياسـيًّا وشرعيًّـا -. فـكان هـذا التحـول، تحـولًا بقـي محكومًـا بمجموعـة العوامـل والمعطيـات الماثلـة.

المهلـب نمـوذج براجمـاتي، شـخصية تتحـرك في ضـوءِ معطيـات ومحـركات الفعـل السـياسي وفي جوهـره مـن منطلـق المصالـح وضـمان اسـتمراريتها

ليـس الأيديولوجـي أو الدينـي إذًا هـو الـذي يحـدد هـذه التحـركات ويعطيهـا مبرراتهـا، إنهـا المصالـح وطبيعـة المكتسـبات التـي تضمنهـا، هـذا هـو محـور الـدور الـذي يتقاطـع فيـه خـط القبيلـة مـع خـطِّ السـلطة ومـع المصلحـة والمكتسـبات. هـذا لا ينفـي بطبيعـة الحـال غيـاب الدوافـع الأخـرى، لكـن الارتبـاط الدائـم بـما هـو واقعـي ومنطقـي وسياسـيي وقبـلي.

يبقـى القـول أنـه مـن غـير الممكـن فهْـم هـذه التحـركات، إلا إذا أخذنـا بعـين الاعتبـار واقـع الاسـتقلالية النسـبية التـي ميَّـزت هـذه الشـخصيات كقيـادات وزعامـات قبليـة.

(1)الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج7، ص 198-199.

نجحت هذه الشخصيات وإلى حد بعيد في ضبط التوازنات، ليس لصالحها فقط وإنما لصالح السلطة أيًّا كانت. كان ذلك حتى في أشد فترات ضعف الخلافة أو غيابها تمامًا، حيث بقيت هذه القيادات والشخصيات الضامن الرَّئيس لتشكل أية سلطات جديدة.

عمليًّا كان المهلب – وبعد مبايعة عبد الملك خليفة – قد تم تعيينه من جديد واليًا بنواحي خراسان، بل وشكر عبد الملك بن مروان للمهلب موقفه. وفي العام 74 هـ عندما وصل خبر هزيمة جيش الأمويين على يد الأزارقة[1] قرر والي البصرة آنذاك خالد بن عبد الله بن أسيد تنحية المهلب عن حربهم وعهَد إلى أخيه عبد العزيز بقيادة الحرب على الأزارقة، إلا أن الأخير هُزم، وعليه في ظل الانتكاسات المتوالية في الحرب مع الأزارقة، يكتب الخليفة عبد الملك إلى خالد بكتاب يلومه جاء فيه:" قبح الله رأيك حين تبعث أخاك عبد العزيز أعرابيًّا من أهل مكة على القتال، وتدع المهلب، وهو الميمون النقيبة، الحسن السياسة، البصير بالحرب، المقاسي لها وابن أبنائها".

(1) يقول الدينوري "سموا أزارقة برئيسهم نافع بن الأزرق". انظر: الأخبار الطوال، تحقيق عبد المنعم عامر، مراجعة جمال الدين الشيال، دار إحياء الكتب العربي – القاهرة ط1، 1960م "ويورد البلاذري" منهم الأزرق الذي نسبت الأزارقة إليه. كان عبدًا روميًّا حدادًا وهو أبو نافع بن الأزرق الخارجي. انظر: البلاذري، فتوح البلدان، دار ومكتبة الهلال، 1988م.

هكـذا إذن تُقـر رسـالة الخليفـة بـأن المهلـب قيـادة عضويـة فاعلـة، بـل ذهبـت الرسـالة لأبعـد مـن ذلـك حـين جعلتـه ابنًـا مـن أبنـاء الحـرب بـكل مـا تحملـه العبـارة مـن دلالات ملحميـة ترتقـي لتلـك التـي تقـرأ في ملاحـم الإغريـق القديمـة، هـذا الإقـرار الـذي يحمـل في طياتـه كذلـك معطيـات ربـما تشـير إلى واقـع مـا قبـل الإسـلام، ولا غـرو أن الحجـاج نفسـه – بـكل مالـه مـن (كاريزمـا) وحضـور تاريخـي (هـو الآخـر) – أقـر للمهلـب بـما كان اشـترطه مـن قبـل عـلى أهـل البـصرة إبـان حـرب الأزارقـة.

وفي عهـد ابـن الزبـير كذلـك يقـول ابـن أعثـم أن الحجـاج الـذي تـولى أمـر العـراق في العـام الخامـس والسـبعين مـن الهجـرة، كتـب ليعلـم المهلـب أنـه قـد جعـل لـه الـشرط الأول، وأن لـه خـراج مـا غلـب عليـه مـن البـلاد إلى أن يقـضي حـرب الأزارقـة، فكانـت الأمـوال تنتقـل إليـه مـن أرض فـارس إلى أرض البـصرة، مكتـوب عليهـا: (هـذا مـا أطعـم الله المهلـب بـن أبي صفـرة ممـا غلـب عليـه مـن بـلاد الله يحملـه إلى قومـه، لا يعـترض عليـه معـترض)[1].

روايـة أخـرى تؤسـس بطبيعة الحـال لشـكل وصـورة الخلفية التاريخيـة لهـذه الشـخصية وتمكـن مـن الإجابـة عـلى بعـض الاسـتفهامات لاسـيما الخاصـة بطبيعـة المصالـح والمكتسـبات عـلى وجـه التحديـد.

---

(1)ابن أعثم الكوفي – الفتوح،ج،7، ص 13.

بإزاء هذا، ربما شعر الخليفة عبد الملك ببوادر صراع وتنافس مبكر بين المهلب والحجاج حيث يقول الطبري إن فارس صارت في يدي المهلب، فبعث الحجاج، عليها عماله وأخذها من المهلب، فبلغ ذلك عبد الملك، فكتب إلى الحجاج دع بيد المهلب خراج جبال فارس، فإنه لا بد للجيش من قوة، ولصاحب الجيش من معونة، ودع له كورة فسا ودرابجرد، وكورة إصطخر، فتركها الحجاج.

من الواضح أن الخليفة عبد الملك كان يدرك أن الصراع بين المهلب والحجاج، إن تطور (والحال أنه منخرط في قتال شرس مع الأزارقة) سيكون مهددًا الخلافة نفسها بالاختناق، ولعل هذا ما دفعه لسرعة استقراء طبيعة الوضع بشكل أكثر حذر بإزاء هذا التهديد (الماثل)، وعليه تم الإيعاز وبشكل سريع للحجاج بترك المهلب وما تحت يده من أموال أو خراج، وعدم المساس بأية مزايا حالية يتمتع بها .

لكن ومع ما يحققه المهلب من مكاسب، ومع تصاعد العصبية القبلية في نفس الحجاج ونفوره من المهلب، يكتب الأول للثاني رسالة تقريع فيها " بلغني أنك قد أقبلت على جباية الخراج وتركت قتال العدو وإني وليتك... واخترتك وأنت من أهل عمان ثم رجل من الأزد " ليرد المهلب هو الآخر بالقول: "من يعجز عن جباية الخراج فهو عن قتال العدو أعجز، وزعمت أنك اخترتني وأنا رجل من الأزد ولعمري إن شرًّا من الأزد لقبيلة تنازعتها ثلاث قبائل

لم تستقر في واحدة منهن (ويقصد بذلك قبيلة ثقيف). يتلو ذلك كتاب على لسان رسول الحجاج نفسه فيه " العجب أن يكون الرأي لمن يملكه دون من يبصره"، وعندما وقع الخلاف بين الأزارقة وطلب الحجاج من المهلب مجددا سرعة إنهاء الأمر وقتالهم بعث المهلب برسالة جاء فيها "لست أرى قتالهم مادام يقتل بعضهم بعضًا". في نهاية الأمر استطاع المهلب الانتصار على الأزارقة واستئصال شافتهم وأن يكتب له الحجاج بالقدوم عليه وقال: "يا أهل العراق أنتم عبيد المهلب"، بل وتقديرًا لجهوده في حروب الأزارقة، تولى المهلب ولاية خراسان من جديد في العام 78هـ.

في هذه الأثناء حاول ابن الأشعث استمالة المهلب ضد الحجاج ومع الصراع الذي دار بين الحجاج وابن الأشعث يقول البلاذري أن المهلب كتب إلى ابن الأشعث حين بلغه خلعه: "إنك يا بن محمد قد وضعت رجلك في غرز طويل الغي، فالله الله يا بن أخي انظر لنفسك ولا تهلكها"[1]. رافضا الانجرار في خضم هذا الصراع.

توفى المهلب بمرو الروذ في العام 82هـ وهو قول الذهبي[2] وقيل عام 83هـ وهو قول الطبري[3]. إذن مات

(1)البلاذري، أنساب الأشراف، 319.

(2)الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج5، ص 331.

(3)الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج7، ص 297.

المهلب بعد أن عاش حياته منغمسًا في الصراعات والحروب والسياسية، لكن بقيت مشاهدة التاريخية في مجملها تعبر عن تصورات منطقية واقعية.

وربما يُساعد تحليل مضامين بعض هذه المراسلات على فهم طبيعة المهلب وطريقة تحركه، إذ توحي في مجملها بقدرته على احترام التوازنات القائمة، مثل تلك التي كانت قائمة في فترة الحجاج. لقد كان يُدرك أن التضحية بعلاقة سلمية وطيبة معه، ولو كان ذلك مع ضمان الطاعة للخليفة عبد الملك، يمثل مجازفة قد تقضي على كل طموحه السياسي وتحرمه مكاسبه ومكاسب قبيلته.

يدل مضمون بعض هذه المراسلات أيضًا على تحوله التدريجي بفعل الواقع، وما تفرضه الأحداث إلى التصرف بتأنٍّ شديد حتى في المسائل الجزئية.

إن هذه الصورة التي تتشكل لنا بالنسبة للمهلب، تشي كذلك أن تحركاتها كانت معزولة عن المستويات الدينية والمعتقدية والروحية، تحركات متجذرة داخل مجالها القبلي وتعمل على هذا الأساس.

شخصية تجاوزت كذلك في تحركاتها ونشاطاتها السياسية والعسكرية (الجهادية)- بفعل هذه الحدود إلى ما هو واقعي ومنطقي إلى ما نجمعه في مصطلح (البراجماتية). على ضوء هذه المعطيات إذن، يمكن تفكيك ما أحاط بالمهلب من روايات ونصوص وأخبار مشابهة، تشكلت من خلالها

صورتـه في مصـادر التاريـخ الإسـلامي. نأخـذ بعـين الاعتبـار كذلـك تجربتـه الغنيـة بتاريـخ قبـلي.

أخـيرًا، بقـي أن نثـير الانتبـاه إلى إحـدى المفارقـات، التـي شـكَّلت خصوصيـة بـارزة بالنسـبة إلى هـذه الشـخصية وهـي أن المصـادر تبـدو لدرجـة كبـيرة متفهمـة ومسـايرة لطبيعـة المصالـح التـي كان يريـد المهلـب أن يضمنهـا، في حـين أن نفـس هـذه المصـادر ترفـض ذلـك وتنتقـده في حـالات شـخصيات أخـرى مثـل أبـو الأعـور السـلمي وشـبث بـن ربعـي. لا شـك في أن السـبب في ذلـك هـو مجموعـة معطيـات سـاهت في تلطيـف صـورة هـذه الشـخصية، مـن أبرزهـا كفـاح هـذا القائـد وتصادمـه مـع مـا هـو مُعتـبر مـن ضمـن منظومـة الـشر والتمـرد مثـل صراعـه مـع الأزارقـة، ووقوفـه في وجـه جـبروت الحجـاج ومهادنتـه، وقربـه في فـترة مـن الفـترات مـن الخليفـة عـلي.

ربـما حمتـه هـذه المعطيـات مـن هجـوم (الـرواة والمؤرخـين) ولـو أنهـا لم تكـن كافيـة لتحويلـه إلى شـخصية مقدسـة أو رمْـز دينـيٍّ.

ولعـل مـن النقـاط المهمـة التـي يمكـن لنـا أن نختـم بهـا معالجتنـا لهـذه الشـخصية التـي جعلناهـا خاتمـة الشـخصيات المدروسـة في الكتـاب، هـي أن المهلـب وسـيرته تعطينـا عينـة حيـة مـن طبيعـة الفعـل السـياسي مـن قبـل قيـادات القـرن الإسـلامي الأول. فـكل السـلطات التـي تعامـل معهـا المهلـب تعاملـت

معه بإيجابية كبيرة (نظريًّا وعمليًّا)، تعامل بعيد عن الرمزي والملحمي الذي تراكم عليه، تعامل اصطدم في مرات عدة مع قيم العدل والحق والحرية والمساواة!

لم تكتسي شخصية المهلب في مختلف تحركاته بأي كساء أيديولوجي أو قداسة خاصة، فالكل تعاطى واصطنع رجلًا سياسيًّا وقائدًا عسكريًّا يحقق مصالح النظام أو الخلافة دون أن يضفي على فِعله مبررات دينية أو أخلاقية أو مثالية، تحركات كانت تبحث عن الانجاز المنطقي على أرض الواقع. فسواء في عهد الخلافة أو دولة الأمويين أو معارضة ابن الزبير في مكة، قبلت السلطة بالشروط التي كان يشترطها المهلب، في مقابل تحقيقه لمصالح هذه المنظومات.

ما يمكن أن نختم به هو التساؤل حول ما إذا كان سلوك السياسيين هذا قد ارتبط أيضًا بطبيعة الفعل السياسي سواء في هذه الفترة من تاريخ الدولة الإسلامية أم في غيرها، فبِمَ كان يرتبط؟

الأصل عند جميع السياسيين في كل فترات التجربة الإنسانية هو الانطلاق من نقطة الإنجاز وتحقيق المصالح الواقعية التي تؤمن لهم المزايا والمكتسبات التي من أجلها يعملون (سواء تحت ظل منظومة الدولة) التي استخدمتهم أو جندتهم لصالحها أو حتى تحت عباءة تطلعاتهم وطاقاتهم الشخصية.

والنتيجة أن (براجماتية هذه النماذج) مثلت فضاء العرض والاستثنائي، فضاء الممكن والمحتمل والمعقول، بل وفضاء النسبي أيضًا، فضاء لصفة متجذرة في طبيعة التفكير السياسي القبلي في الجزيرة العربية، وربما ظل ذلك حتى اليوم.

الفصل الخامس

5

الاحتماء بالتاريخ

ما سبق عرضه يأتي في سياق محاولات جدية للقيام بالرصد التاريخي غير المؤدلج لنماذج فاعلة ومحركة لأحداث القرن الأول الهجري، ومنابع صناعة التغيير فيه.

كان دافعنا الأصلي حين البحث في ميكانيزمات حركة وتطور صورة الشخصيات الأربع (شبث، وأبي الأعور، وابن خازم، والمهلب)، منطلقًا من النتائج التي حازتها هذه الشخصيات، وما ترتب عليه من مشاهد تاريخية لاحقة، ومحاولة جعل هذه المشاهد في النهاية تشكل نتاجًا تاريخيًا قابلًا للتصديق أو الرفض، يبقى أنه ما كان من الممكن الوصول إلى تحديد طبيعة هذه الأدوار دون اختراق ما نسجه المؤرخون والرواة حولهم من أخبار.

أما عن نقطة التشابه بين الشخصيات وبين نظيراتها الأخرى في نفس الفترة، فتتمثَّل في أن هذه الشخصيات إضافة إلى أنها امتلكت سلطة (فاعلة) وقدرة على إحداث تغييرات منطقية على أرض الواقع، إلا أنها ارتبطت في جزء كبير من تحركاتها وأفعالها، بأهم

الرمـوز الدينيـة في وقتهـا وكانـت ضمـن منظومتهـا سـواء (في السـلطة أو المعارضـة)[1].

تؤكـد هـذه الشـخصيات أنهـا رغـم مـا امتلكتـه مـن أدوات التغيـير والفاعليـة بالنسـبة لأحـداث القـرن الأول الهجـري إلا أنـه – ولأسـباب مختلفـة – تـم وضعهـا بعيـدًا عـن مسـار التاريـخ التمجيـدي النموذجـي أو المثـالي الـذي حازتـه رموز وشـخصيات أخـرى، شـخصيات تُثبـت حقيقـة يُتغافـل عنهـا (ربـما بسـبب الخـوف مـن التصـادم مـع التقليـدي والدينـي، أو خوفًـا مـن الاتهـام بالتطـاول والتمـرد عـلى تاريـخ الأمـة في شـكله المُثبـت والراسـخ منـذ قـرون) وهـي أن تاريـخ القـرن الأول الهجـري لم

(1) فمنهـم مـن عمـل مـع الخليفـة عـلي ومنهـم مـن عمـل مـع الخليفـة معاويـة ومنهـم مـن عمـل مـع ابـن الزبـير ومنهـم مـن كان طرفًـا (أصيـلًا) في صراعـات مفصليـة كان الرمـزي والدينـي والمقـدس حـاضرًا فيهـا وبقـوة، بـل وتشـاركوا مـن خلالهـا جوانـب التحصـين تـارة والاحتـماء بفاعليـة التقديـس أو رمزيـة المضامـين (الخـير والـشر) تـارة أخـرى.

يكـن مثاليًّـا عـلى طـول الخـط وأن الديـنـي لم يكـن وحـدة الفاعـل الأبـرز.

إن النظـر لمسـببات المشـاركة الفاعلـة تاريخيًّـا للشـخصيات الأربـع، وممارسـاتها، ودرجـة ارتباطهـا بالقـدرة عـلى التغيـير والفاعليـة التاريخيـة لهـذه الفـترة تؤكـد إن هـذه القيـادات البراجماتيـة عملـت داخـل دائـرة دولـة الإسـلام وشـاركت في الجهـاد وسـاهمت في الفتوحـات وتثبيـت الأمـن، منهـا مـن عمـل في الـشرق مثـل ابـن خـازم بخراسـان ومنهـا مـن عمـل في الغـرب كأبي الأعـور السـلمي.

هـذه الشـخصيات كانـت مؤثـرة بدرجـة كبـيرة في معظـم مراحـل الفتـوح وأسـبابها، تولـت أمـر المسـلمين وحكمـت باسـم الخلافـة وأكـدت مـن خـلال سـلوكها الملمـوس أن الواقـع السـياسي واقـع يكـذب فرضيـة نموذجيـة النظـرة المثاليـة لصـدر الإسـلام، بـل يثبـت الإخبـار التاريخـي التقليـدي عـن شـبث وأبي الأعـور وابـن خـازم والمهلـب أن هنـاك أحـداث تاريخيـة تبلـورت في حيـز رؤيـة أيديولوجيـة جعلـت التاريـخ بمثابـة اسـتمرار لقضيـة الـصراع بـين الخـير والـشر الحـق والباطـل فحسـب.

شـخصيات احتـاج تاريخهـا إلى صياغـة خاصـة، صياغـة بـدا مـن المقبـول فيهـا تشـويه مطالبهـا السياسـية والقبليـة وإلباسـها رداء القبـح والـذم، رغـم أن هـذه الشـخصيات كانـت منخرطـة في أعـمال الجهـاد والفتـوح وفـرض العـدل وإقـرار الأمـن ضمـن منظومـة السـلطة تـارة، أو المعارضـة تـراه أخـرى.

رأينـا كيـف أنـه إن كانـت هـذه الشـخصيات في خضـم الانخـراط في الخـط التقليـدي للمثاليـة الإسـلامية، ومـع ذلك فإن التاريـخ في هـذه الحالـة كان حـاضرًا لإعـادة إنتاجهـا عـلى نحـو معقـول للقـارئ وإلباسـها وتحركاتهـا لبـاس القبـول والرضـا.

رأينـا أيضًـا كيـف أن مثـل هـذه الشـخصيات كانـت تمثـل الجانـب غـير المحبـب أو قـوى الظـل المرفوضـة المخالفـة لنظريات المؤرخـين حـول فضيلـة التاريـخ الإسـلامي ونموذجيتـه، ممـا جعلهـا تسـتحضر أو تُسـتجلب في كثـير مـن الأوقـات لأجـل قضايـا وأهـداف معينـة ومنتقـاه ومـن ثـمَّ باختفـاء أو انتهـاء هـذه لأحـداث تعـود هـي الأخـرى لتختفـي مجـددًا في ثنايـا كتـب التاريـخ.

إن هـذا المعطـى بالنسـبة لهـذه الشـخصيات تـم الإصرار عـلى تجاهلـه خوفًـا مـن أن يـضر بصـورة التغـير الإبسـتيمولوجي والأخلاقـي الـذي أحدثـه الإسـلام.

إن مصطلـح "البراجماتيـة" الـذي اسـتخدمناه في وسـم هـذه الشـخصيات بـه وعـلى الرغـم مـن حداثتـه، بـدا لنـا أكثـر ملائمـة وقربًـا.

شـبث بـن ربعـي مثـلًا مثـل نموذجًـا مُربـكًا للصناعـة المثالية للمؤرخـين الذيـن فقـدوا القـدرة عـلى تحديـد تصنيفهـا، وفشـلوا في مـرات كثـيرة في التعامـل مـع النصـوص والروايـات المتعلقـه بـه.

لا يمكــن القــول كذلــك بــأن شــبث وأبــا الأعــور وابــن خــازم والمهلــب غابــوا مــن دائــرة الروايــة أو تــم تجاهلهــم فيهــا، عــلى العكــس فرضــوا حضورهــم مــن خــلال الوقائــع والأحــداث التــي تحركــوا داخلهــا، وكانــت الصناعــة التاريخية تنطلق في شــأنهم مــن مجموعــة معطيــات عامــة، معطيــات مرتبطــة بتاريــخ الأمــة / تاريــخ الديــن الإســلامي / تاريــخ العــرب، هــذه المعطيــات التــي كانــت تنظــر لمثــل هــذه الشــخصيات مــن منطلقــات فضيلــة دينيــة تحتــم قراءتهــا قــراءة ذات منتــج إيجــابي وبدرجــة عاليــة[1].

لا شــك أن البعــض ســيرى في طريقــة عرضنــا واســتعراضنا لهــذه الشــخصيات اســتفزازًا أو تشــكيكًا في قيمــة شــخصيات القــرن الأول مــن تاريخنــا الإســلامي، وربــما يــرون فيهــا تعارضًــا مــع التصــورات الدينيــة نفســها لاســيما أفضليــة القــرون الأولى (إســلام الأصــول) ورجالــه[2]. وهــذا مــردود عليــه بأننــا لا نــبرأ ولا نديــن، بــل نحــاول فقــط فهــم المنطقيــة والمعقوليــة وأســباب

(1) فرغــم أن هــذا بحــد ذاتــه كان محــل خــلاف وتصــادم بــين غايــات المؤرخــين ومعطيــات الإخباريــين إلا أن المحــور الرئيــس الــذي أردنــا أن يكــون محــل نظــر تمثــل في خطــورة طغيــان المثاليــة كنمــط أســاسي للشــخصيات والحــوادث للقــرن الأول الهجــري، عــلى اعتبــار أنهــا منتــج الديــن وفضيلتــه

(2) ومــع حديــث الرســول ﷺ (خَــيْرُ النَّــاسِ قَــرْنِي، ثُــمَّ الَّذِيــنَ يَلُونَهُــمْ، ثُــمَّ الَّذِيــنَ يَلُونَهُــمْ).
فحتــى هــذه القــراءة مــن البعــض ســتكون قــراءة مرتبطــة هــي الأخــرى بالتســليم بالقديــم وبعصمتــه دون محاولــة فهــم دوافعــه وأســبابه.

الفعـل التاريخـي الـذي تـم وحقيقتـه.

أيضًـا قـد يثـير سـعينا اعتراضًـا (مهـمًّا) يتمثـل في أن هـذه المراجعـة لا يمكـن أن تكـون عـبر نـماذج وشـخصيات أو وقائـع وأحـداث (منتقـاة)، لكـن في واقـع الحـال، نحـن لا نسـعى إلى إدانـة ولا إلى تمجيـد بقـدر مـا نسـعى إلى معرفـة أعمـق لأصـول الفعـل التاريخـي المحـرك في ذلـك الوقـت، ندعـو إلى عمليـة نقـض لـركام مـا علـق بكثـير مـن النصـوص وقراءتهـا قـراءة منطقيـة خـارج دائـرة المقـدس والمثـالي، قـراءة تسـتطيع الإجابـة عـلى تسـاؤلات تاريخيـة مقبولـة " كيـف حدث....مـاذا حـدث".

النظـر بعمـق إلى الكثـير مـن الروايـات والنصـوص التـي تحـرك فيهـا شـبث وأبـو الأعـور وابـن خـازم والمهلـب في ثنايـا المصـادر الإسـلامية، ومـا اعتراهـا مـن التشـويه والارتبـاك والتجريـح، والقـدح والـذم الـذي طـال بالإضافـة لهـم زوجاتهم، كـما هو الحـال بالنسـبة لشـبث وأبي الأعـور، فضـلًا عـن التعريض بـالأم كـما هـو الحـال مـع ابـن خـازم عـلى سـبيل المثـال.

كل ذلـك يثـير ويضعنـا أمـام ملابسـات وتسـاؤلات مقبولـة، فحتـى نسـتطيع أن نُمسـك بالشـكل الـذي جـرى فيـه العمـل التاريخـي لا يمكننـا أن نسـتبعد منهـا - أو نفصـل عنهـا - أي دافـع، لا المصالـح والمغانـم ولا الطمـوح ولا الـصراع.

أن محاولـة جعـل البراجماتيـين في شـكل اسـتثناء مـن قاعـدة الفضيلـة في تاريخنـا الإسـلامي هـو أصـل الوهـم، خاصـة وأن مجمـل الفعـل السـياسي جـرى مـن خـلال شـخصيات مـن هـذا

الصنف، كانت تتحرك من منطلقات براجماتية وواقعية حقيقيَّة. في المقابل، لا نجزم بعدم وجود شخصيات استدعت طبيعتها وظروف تحركها مثالية عالية. فقيادات دينية كعلي ومعاوية مثلًا، في مستوى تعاملهم مع مثل هذه الشخصيات (البراجماتية)، كانت تدرك تمام الإدراك المطالب القبلية والطموح الشخصي لبعضهم، تعاملت الرموز الدينية معهم في مشاهد موسعة على هذا الأساس. فهذا شبث - كما رأينا - وبعد الخروج على الخليفة علي وقتاله يعود مجددًا بطلب من علي (نفسه) لينضم تحت لوائه ويصبح في مركز قيادي أعلى.

وهذا معاوية يقر ابن خازم على ما تحت يده في خراسان حتى ولو كان ذلك عن طريق الخدعة.

عمل المؤرخون على صناعة المبررات والمسوغات لكل الشخصيات المثالية في التاريخ الإسلامي لأنه كان عليهم حماية هذه الرموز من الانتقاد، ثم تم استهداف هذه القيادات (مثل ابن خازم وشبث وأبي الأعور والمهلب) وتحويلها إلى متاريس تتمترس خلفها الرموز الدينة وتتلقى تاريخيًّا بدلا منها التجريح أو اللوم.

ومن المؤكد أننا نتفهم أن الفعل التاريخي، والدوافع التي تشكلت (لاحقًا) كان عليها تقديم "حماية " للشخصيات الرمزية لتكون نماذج الخير المطلق والفضيلة، لكن هذه القدرة عجزت عن تغييب آثار السياسة الحقيقة التي كانت

تنطلق من مصالح القوى السياسية. وحاولت حصرها في صيغة ضيقة داخل جدران (الديني والمقدس)

فمن ولوا شبث بن ربعي في صفين، يقابلهم من اختاروا أبا الأعور أيضًا في صفين!

ومن قاتل الخوارج وزعيمهم شبث بعد صفين هو نفسه من اختار شبث لمحاربة الخوارج في النهروان[1]! ومن قاتل الحسين في كربلاء هو نفسه من دعم وانضم لدولة المختار لأجل المطالبة بدم الحسين!

فكل من شبث وأبي الأعور وابن خازم والمهلب كانوا يمثلون المنطق الواقعي أو البراجماتي، تقابلهم الرموز والشخصيات المحمية التي تمثل (النموذجي أو المثالي)، وبهذا يصبح التشويش على أي رمز من الرموز والقيادات الدينية الكبرى (الخليفة علي أو معاوية مثلًا) أمرا غير مقبول تاريخيًّا، بل اعتبره البعض خطرًا يهدد الصورة التقليدية والمثالية لدولة الإسلام.

(1) "النهروان" معركة جرت في شعبان سنة 38 هـ، ودارت رحاها بين علي والخوارج، حيث انتصر فيها علي وسار بعدها بالناس بالنخيلة تمهيدا لمواصلة المسير إلى أهل الشام حيث فوجئ بعدها علي بتسرب كثير من الجند وانسلالهم نحو الكوفة، يقول خليفة بن خياط "وقتل من أصحاب علي اثنا عشر رجلًا أو ثلاثة عشر رجلًا" انظر تاريخ خليفة، تحقيق أكرم ضياء العمري، دار القلم، بيروت، ط2،ص197.

فعلى سبيل المثال، هل كان من المقبول عند المؤرخين، حين خرج شبث عن معسكر الخليفة علي، الحديث عن واقعية هذا الفعل وتبرير أسبابه؟

إن رأيًا من هذا الصنف يقود إلى مجموعة من النتائج أولها وأبرزها فقدان الخليفة علي لجزء من شرعيته تاريخيًّا، إثر خروج جزء كبير من جيشة ورفضهم عملية التحكيم.

عملية التحكيم نفسها التي جرت بعد صفين ورفع المصاحف، تتهم المصادر أبا الأعور بأنه هو من قام بذلك، وربما لا يكون هذا الصنف من الروايات سوى إنتاج لاحق تمت بلورته لكي يكون ترسًا يحمي الشخصيات المقدسة من اللوم بعد هذا الاقتتال الأهلي الأكبر والأشد دموية في تاريخ المسلمين الأوائل، والذي راح ضحيته عدد كبير من الصحابة والتابعين.

تخوض المصادر كذلك في عملية الخداع التي قام بها ابن خازم لتولى الحكم، وسرعان ما تُلحقها بقصص انتصاراته على قارن النهاوندي وهو على رأس أربعة آلاف في حين كان خصمه يقود أربعين ألفًا. هكذا إذًا تختفي آثار الخدعة، ويرتسم مشهد الانتصار لقيادة إسلامية تُرسخ بعملها الحكم الإسلامي وتُثبت أركانه.

القرن الأول بين الانتصار للديني والبعد السياسي

قلـمَّا تجـد إجابـة عـن التسـاؤل "مـن كان يحـرك الحـوادث التاريخيـة ذات الطبيعـة البعيـدة عـن الديـن والأخـلاق والرمزيـة والمقـدس في القـرن الأول؟".

فبعـد مـضي أربعـة عـشر قرنًـا مـن الزمـان يتجـدد التسـاؤل عـن الأسـباب التـي جعلـت التاريـخ الإسـلامي مفتقـدًا في كثـيرًا مـن الحـوادث التـي أنتجهـا للترابـط المنطقـي بـين مـا هـو دينـي ومـا هـو سـياسي.

إن "الأوديسـا" الدينيـة التـي خلقتهـا المصـادر لمنابـع الفعـل والتغيـير بـات مـن المحتـم أن يرافقهـا قـراءة أكثـر مرونـة وواقعية، قـراءة تسـتطيع جعـل التطـور التاريخـي لهـذه الأفعـال والأحـداث مفهومًـا ومقبـولًا.

بعيـدًا عـن سـلطة الأوصيـاء؛ التـي لم تعالـج القضايـا الرئيسـة، ولم تتطـرَّق إلى المسـكوت عنـه بـل والتـي زادت في حيِّـز التَّماهـي وخلـق جدليـات وقطيعـة. يكـون الابتعـاد عـن القـراءة التقليديـة الانتقائيـة والتقديسـية المنسـوجة حـول شـخصيات القـرن الأول الهجـري (تحديـدًا) لـه أهميـة في زيـادة القـدرة عـلى فهـم مـا حـدث بقصـد اسـتئناف المسـار، وفتـح آفـاق القـراءة النقديـة للمـوروث الدينـي.

التاريخ لم يكن يومًا حكرًا على الديني والمقدس، والرمز أو تجسيدًا لصراع الحق والباطل و(القيم النبيلة ومضاداتها)[1].

تغييب... أم... استذكار منقوص

تغييب جزء من الممارسة التاريخية الواسعة لشخصيات وقيادات حققت حضورًا ملموسًا، واستطاعت أن تكون منابع للتغير وللفعل السياسي الإسلامي وأحد أهم محركاته لصالح من؟!!

نتفهم أن تطورات التأليف التاريخي دفعت نحو بلورة بُعد مثالي وتدوين تاريخ الأمة من منطلق مثالي كان استجابة لاحتياجات المجتمع. لكن ذلك لم يستطيع أن يغيب حقيقة وجود هذه الشخصيات، ولم يكن في النهاية سوى كتابة لتاريخ الإسلام ذاته وليس تاريخ المجتمع، الأمر الذي أنتج تاريخًا أشبه ما يكون بما أسميناه "أوديسا دينية" يصعب المساس بها. ومن هنا تحديدًا يمكننا أن نفهم كيف عمل المؤرخون على توظيف هذه الشخصيات من خلال الروايات

(1) إن القدرة على فهم التحركات والتغييرات التي صنعتها مثل هذه الشخصيات بعيدًا عن ثنائية الخير والشر، هي وحدها القادرة على تحرير تاريخنا، وانعتاقه من الصورة المثالية التقليدية. إن هيمنة النظرة المثالية المطلقة للتاريخ جعلنا في وضع مثالي استثنائي يخالف كل التجارب التاريخية الإنسانية، لكن هذا الأنموذج المثالي يلبي فقط احتياجات الرواة المسلمين التقليديين، وبلا شك لا يعكس حقيقة ما كان.

والنصـوص التـي تناسـب الأيديولوجيـا[1] الدينيـة/ السياسـية.

إن هـذا الكتـاب بـما فيـه مـن تأكيـد عـلى أن الخسـائر التـي خلفهـا التصـور التاريخـي المغيـب لحقائـق الفعـل البراجمـاتي والاكتفـاء بالـسرد المثـالي للتاريـخ الإسـلامي عـلى الوعـي الجمعـي هـو في الحقيقـة ردة فعـل عـلى القلـق مـن الاسـتمرار في الـسرد المثـالي للتاريـخ.

الاسـتمرار في إنتـاج المثاليـة التقليديـة، خصوصًـا في تاريـخ القـرن الأول الهجـري سـيقود للمزيـد مـن الـضرر والضبابيـة.

إن الاسـتمرار في ترديـد تاريـخ اسـتعراضي ومواصلـة الاعتقـاد أن التاريـخ الإسـلامي إنجـاز ثقـافي لا يوازيـه إنجـاز لاحـق في التجربـة البشريـة الإنسـانية هـو أمـر مـن شـأنه أن يتحـول إلى ثقافـة تجمـد[2] المجتمعـات وتفقدهـا القـدرة السياسـية مقابـل السـلطة والحكـم.

فالمُحقـق أن المجتمعـات الإسـلامية، ومنـذ سـقوط الخلافـة الإسـلامية في بغـداد، اسـتيقظت لتجـد نفسـها أهـم الخاسريـن أمام تاريـخ موظَّـف، تاريـخ ليـس بمقـدوره أن يضيـف لهـا، تاريـخ فقـدت أيضًـا معـه القـدرة عـلى مجـاراة التاريـخ القديـم نفسـه.

---

(1) يـرى Karl Mannheim عـالم الاجتـماع ان المجتمـع السـياسي ميـدان للدعـوة مـن أجـل المصالـح، ولكـي تكتسـب أي أدلجـة أتباعًـا فـلا بـد أن تنظـر إلى المنافسـين باعتبارهـم أطـراف وقـوى تمـارس التزويـر والخـداع.

(2) تركـي عـلي الربيعـو، الحـركات الإسـلامية في منظـور الخطـاب العـربي المعـاصر، المركـز الثقـافي العـربي، ط1، 2006.

لقـد قُـدِّم أبطـال هـذا التاريـخ في أدوار جعلتهـم أبعـد مـا يكونـون عـن الفعـل البـشري الطبيعـي. بالَـغ المؤرخـون وجـردوا الحـوادث مـن مسـبباتها الطبيعيـة وربطوهـا بمسـببات ميتافيزيقيـة حينًـا وأخلاقيـة حينًـا آخـر، ووزعوهـا عـلى مقيـاس الخـير والـشر والحـق والباطـل، وقدمـوا الفاعلـين عـلى أنهـم أشـخاصًا تنطلـق تحركاتهـم مـن منطلـق الخـير لكـي تحـارب الـشر، وتراكمـت هـذه الصـور لتشـكل عبئًـا وتحديًّـا عـبر الزمـن لـكل العنـاصر الحقيقيـة السَّـاعية لتوجيـه التاريـخ.

ففـي البدايـة كانـت الشـخوص أداة للضغـط عـلى السياسـيين، فبالمقارنـة مثـلًا مـع أبي بكـر/ عمـر/ عثـمان/ وعـلي، سـيثبت فشـل السياسـيين، وسـيثبت كذلـك أن الحنـق عليهـم أمـر مـبرر، وكان ذلـك مطلوبًـا وأداة اجتماعيـة مفهومـة تسـمح للمجتمـع بممارسـة دور فاعـل وضاغـط عـلى السـلطات بمثاليـة هـذه النـماذج.

لكـن، اسـتطاعت السـلطة فيـما بعـد تجـاوز هـذا المنظـور، وإعـادة صياغتـه وتوظيفـه لصالـح مزيـد مـن القـدرة عـلى الفعـل والتحـرر مـن الالتزامـات والإصلاحـات[1]. وُظفـت الروايـة

(1) "ولأن السـلاطين تخلـو عـن الأيديولوجيـا والثقافـة مرغمـين فـإن رجـال الحديـث والفقهـاء ملكـوا هـذا الجانـب، فالصـورة التاريخيـة عـن أمتنـا والتـي نمتلكهـا اليـوم بوجهيهـا الثقـافي والسـياسي هـي الصـورة التـي رسـمها هـؤلاء الفقهـاء والمحدثـين الذيـن كتبـوا كتـب التاريـخ والفقـه والتراجـم وغيرهـا مـن أصـول المعرفـة التاريخيـة الإسـلامية" انظـر: رضـوان السـيد، الجماعـة والمجتمـع والدولـة، المرجـع السـابق، ص 363.

المثاليـة المسـتندة إلى الجـذر الأيديولوجـي الأول (النـص وتأويلاتـه ولواحقـه[1] لصالـح السـلطة وليـس ضدهـا. ولنسـتعرض ما روي عـن أن رجُـلًا مـن الخـوارج جـاء إلى عـلي بـن أبي طالـب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قائـلًا: "يـا عـلي مـا بـال النـاس انتقـدوا عليـك ولم ينتقـدوا عـلى أبي بكـر وعمـر؟ فقـال لـه عـلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إن رجـال أبي بكـر وعمـر كنـت أنـا وأمثـالي، أمـا رجـالي فكنـت أنـت وأمثالـك!!". وهنـا يتضـح أن جـواب السـلطة عـاد بالمسـئولية عـلى المجتمـع.

تـأتي الحجـة مـرة أخـرى عـلى لسـان عبـد الملـك بـن مـروان. حـين سـمع أن أناسًـا يتكلمـون فيـه وفي خلافتـه، فجمـع أشراف النـاس ووجهاءهـم وتكلـم قائـلًا:" إنكـم تريـدون منَّـا أن نكـون مثـل أبي بكـر وعمـر؟ قالـوا: نعـم أنـت خليفـة وهـم خلفـاء!. قـال: كونـوا أنتـم مثـل رجـال أبي بكـر وعمـر "نكـن نحـن مثـل أبي بكـر وعمـر".

هـذه هـي القاعـدة التـي سـوقت والتـي اسـتطاعت بهـا السـلطة تحويـر إشـكالية مثاليـة النمـوذج، وبهـذا يصبـح تكـرار أو إعـادة إنتـاج حلـم الخلافـة الراشـدة أو الحكـم الصَّالـح لا يتحقـق إلا في ظـل وجـود شـعوب لابـد أن تكـون هـي الأخـرى مثلـما كان عليـه المحكومـين أيـام أبي بكـر وعمـر.

بهـذا، لم يكـن السـرد التاريخـي للصـورة المثاليـة سردًا ضاغطًـا عـلى السـلطة (كـما يفـترض) بـل في حقيقـة الأمـر كان ضغطًـا

---

(1) رضوان السيد، الجماعة والمجتمع والدولة، مرجع سابق، ص 364.

على المجتمع ذاته، فإن فضُل ذلك الجيل من الحكام فذلك بفضل المحكومين الذين عاشوا في ذلك الجيل، هنا تحديدًا يكون الانحراف، انحراف وأزمة خلقها تصدير مشهد النموذج المثالي الذي كان إحدى أدوات الضغط في مرحلة، ومن ثم تحول لإحدى أدوات السلطة في ضغطها على الشعوب في مرحلة لاحقة.

إن ثمة نقاط عديدة أخرى في هذه الإشكالية. إحدى هذه النقاط هي عقيدة المثالية التي يجب أن يرجع لها المجتمع، حيث تم توظيفها لصالح السلطة فأصبحت أكثر امتلاكًا لأدوات الصراع وأكثر قدرة على إدارة الحوادث وخلط الأوراق وفق مصالحها ووفق ما يخدم تكريس (طغيانها) في كثير من الأحيان. هكذا أصبح النموذج المثالي أداة لرفع الحرج عن السلطة، فالصورة المثالية تقدمها السلطات كصورة ممتنعة لأن الشعب هو المناقض لها.

نكتشف كذلك أن السلطة بتصدير هذا النموذج (المثالي) تحررت من قيودها، واستطاعت التخلص من تبعات ما يخصها، بل وألزمت المجتمع بالتغير، وجعلت الإصلاح رهين عودة المجتمع نفسه للعصر المثالي.

لم يكن من المستغرب إذًا أن نشاهد الفقهاء يطالبون المجتمعات الإسلامية بالرجوع لما كان عليه المجتمع الإسلامي في بداياته الأولى، أو قرنه الأول تحديدًا تحقيقًا لمتطلبات عودة السلطة للنَّسق نفسه.

إشكالية أخرى تضاف لوهم المثالية التقليدية التي ترى أن محاولات الإصلاح منطقها استلهام النموذج (الراشدي)، وليس في الأمر مفاجأة حين نجد أن معظم أو أغلب الأنظمة اللاحقة - استنادًا لهذا الواقع - حصلت على حصانة تاريخية أنتجها لها دعاة وفقهاء ومنظومة (انتمت للتاريخ) مستفيدة من تصدير المشهد المثالي لشخصيات وأحداث القرن الأول الهجري.

وعليه، يظل السؤال (الأنسب) متعلقًا بالأسباب التي منعت الأمة من مشاريع إصلاحية تحمل معها الحد من طغيان وتغول السلطة على المجتمع وإرغامها على القبول بمشاريع إصلاحية وتنظيرية فكرية للمجتمعات.

فكيف إن المجتمعات الإسلامية التي زخرت بكم هائل من الفقهاء والعلماء والمبدعين في كل المجالات بل كانت قلب الحضارة الإنسانية في فترة من الفترات، وقفت عاجزة عن إبداع منظومة ذات مؤسسات تقييميه أو إصلاحية مستسلمة لقيود (الحلم) بإعادة العصر الرَّاشدي - ويوتوبيا إعادة الأمة - لما كانت عليه إبان قرنها الأول الهجري، الذي كان التسارع على تحميله كل أدوات السرد المثالي، والاستسلام لواقع السلطة المفترضة وهي سلطة الخلافة الراشدة.

كذلك العجز عن تقبل فكرة أن أدوات (الفعل) ومسببات ومنابع (التغيير)، في القرن الأول الهجري، لم تكن مثالية على طول الخط، بل المستغرب إننا لا نستطيع أن نجد نصوصًا إصلاحيةً (منطقيةً) نستطيع من خلالها أن نقيم تجربة قُدِّمت

للسـلطة أو الخلافـة للمشـاركة دون ربـط بنودهـا أو مـا تضمنتـه بالدينـي ودلالاتـه.

فأغلـب مـن كان يقـدم النصـح والمشـورة للحـكام والخلفـاء كانـوا (الفقهـاء والعلـماء) الذيـن اعتـبرت هـذه القـدرة منهـم أعـلى صـور الشـجاعة والإيثـار بالنفـس والجـرأة. هـذه المحـاولات نفسـها كانـت تتـم عـبر مـشروع الديـن والدينـي، ومـا يرتبـط بهـما مـن قضايـا أخلاقيـة (رفـع الظلـم، تطبيـق الشريعـة، العـدل، الحـدود، وغيرهـا مـن هـذه الأدوات). إذًا لم يتـم تقديـم مـشروع حقيقـي لمنظومـة سياسـية تصلـح الواقـع السـياسي بنـاء عـلى متطلبـات الواقـع والمنطـق الموجـود، والسـبب أن الصـورة المثاليـة المرتبطـة بالمخيـال الجمعـي اسـتندت بشـكل مبـاشر لصـورة الخليفـة الإمـام العـادل الراشـد، ومنظومـة الحـق والباطـل الخـير والـشر.

حتـى الشـخوص التاريخيـة والرمـوز الدينية، كانت تسـتحضر فقـط بـدون صلاحيـات جديـدة (المثاليـة التخديريـة) أو (المثاليـة الطقوسـية)، دون صلاحيـات ودون أدوات منطقيـة قـادرة عـلى الفعـل وتغيـير الواقـع المختلـف كليًّـا.

هـذا مـا أسـهم في جعـل التجربـة التاريخيـة الإسـلامية[1] تخسر إمكانيـات الفعـل والتغيـير والإصـلاح المنطقـي والواقعـي

(1) المصرة على الاستمرار في حالـة تشـتت (تاريخي) بمـزج أنسـاق متباينـة في أصـول الاعتقـاد وأحـكام التشريـع بـالآراء والمواقـف السياسـية.

مقارنــة بتجــارب بشريــة وإنســانية أخــرى، الخســارة إذًا لم تكــن لصالــح المــشروع المثــالي أو المــشروع الخــيري، بــل لغــيره.

لا ندعــي أن التاريــخ الإســلامي يخلــو مــن بعــض المحــاولات الجــادة التــي تصــب في هــذا الســياق، لكننــا نقــول أن التصــور ظــلَّ في معــزل عــن الواقــع والحقيقيــة، ظــل ســجينًا لوهــم (مثاليــة تاريخيــة) والاســتمرار في التقليــد.

وعــلى الرغــم مــن تطــور القــوى والمضامــين الثقافيــة والفكرية في العلــوم الإســلامية، إلا أن ذلــك التطــور في مقابلــة ظــل هنــاك قصــور في إنتــاج تصــور واقعــي أو حتــى (مثــالي عقــلاني) يتيــح القــدرة عــلى تطبيقــه.

الواقــع أنــه كان مــن المفــترض أن تتطــور الرؤيــة المثاليــة (التــي لا يمكننــا أن نفهــم التجربــة الإســلامية عــلى حقيقتهــا اعتــمادًا عليهــا فقــط) لكــن هــذا لم يحــدث.

مــا الفائــدة إذن التــي عــادت عــلى التاريخ وعــلى تجربــة الأمة حين غُيِّبَــت مثــل هــذه النــماذج وطوتهــا ثنايــا النصــوص بعيــدًا عــن الأطــر الحقيقيــة التــي كانــت تتحــرك مــن خلالهــا، ومــا نتجــت في ظلهــا أو تحــت تأثيرهــا مــن تطــورات سياســية وعســكرية بــل ومجتمعيــة.

إن إبعــاد مثــل تلــك الشــخصيات مــن الســياق التاريخــي المنطقــي الــذي تحركــت فيــه لصالــح مشــاهد معينــة أخــرى[1]،

---

(1) مرتبطــة بشــكل مبــاشر بالدينــي والعقائــدي، فالمســار الــذي تشــكلت فيــه كثــير مــن مثــل هــذه النــماذج لم يكــن ليســمح لهــا أن تتجــاوز هــذا الإطــار.

أمـر يزيـد في الإيهـام الأيديولوجـي، ويسـهم في ابتعادنـا عـن المسـار الحضـاري العقـلاني الـذي مـن خلالـه تقدمـت بقيـة التجـارب وأثمـرت.

تحميـل النمـوذج المثـالي أكثـر مما يتحمـل مـن شروط زمـان غـير زمانـه، ومـكان غـير مكانـه، سـبَّب للتاريـخ الإسـلامي نفسـه عزلـة حضاريـة. فـلا اسـتطاع مـن خـلال مثاليتـه أن يثبـت خصوصيـة حضاريـة تسـمح لـه بمواجهـة التحديـات القائمـة وفهـم حيثيـات الوقائـع التاريخيـة التـي جـرت وتقييمهـا عـلى نحـو موضوعـي واقعـي، ولا اسـتطاعت المثاليـة أن تقـدم للتاريـخ مشـهدًا منفتحًـا عـلى مجريـات ومنجـزات بقيـة الحضـارات يسـتطيع بواسـطته الاسـتمرار في وَهْـم تفـرد منجزاتـه الغيبيَّـة.

إن تأويـل المشـهد التاريخـي انطلاقًـا مـن المقاييـس الدينيـة والفكريـة والأيديولوجيـة، والبحـث عـن دوافـع الفعـل السـياسي في مسـتوى العقيـدة فقـط، يُهمـل حقيقـة أن الفاعلـين الأساسـيين في تاريـخ القـرن الأول الهجـري هـم في الواقـع أبنـاء (الجزيـرة العربيـة) الذيـن تحرَّكـوا وفـق وعـي مرتبـط بمكونـات الثقافـة والـتراث المحـلي المرتبـط والمتجـذِّر مـع القبيلـة ومقوماتهـا، التـي تمتلـك خصائـص معينـة لطبيعـة الفعـل التاريخـي

إن مفـردات هـذا الحـراك والفاعليـة المنتجـة يمكـن أن تفسر أصـول هـذه (البراجماتيـة) التـي ميـزت تلـك الشـخصيات وكانـت عنوانًـا لكثـير مـن ممارسـاتها.

المصادر والمراجع

- ابـن اعثـم الكـوفي، الفتـوح، تحقيـق عـلى شـيري، بـيروت، دار الأضواء، 1991م
- ابـن الاثـير، الكامـل في التاريـخ، تحقيـق عمـر عبـد السـلام تدمـري، بـيروت، دار الكتـاب العـربي مـج3، 1997م
- ابـن الجـوزي، المنتظـم في تاريـخ الأمـم والملـوك، تحقيـق حمـد عبـد القـادر عطـا، مصطفـى عبـد القـادر عطـا، بـيروت، دار الكتـب العلميـة، 1992م
- ابـن حبـان، السـيرة النبويـة وأخبـار الخلفـاء، ج2، النـاشر: الكتـب الثقافيـة – بـيروت الطبعـة: الثانيـة، 1417 هـ
- ابـن حجـر العسـقلاني، الإصابـة في تمييـز الصحابـة، تحقيـق عـادل أحمـد عبـد الموجـود وعـلى محمـد معـوض، دار الكتـب العلميـة، بـيروت، 1991
- ابـن حجـر العسـقلاني، تقريـب التهذيـب، تحقيـق، محمـد عوامـة، دار الرشـيد – ط1، 1986

- ابـن خلـدون، ديـوان المبتـدأ والخـبر في تاريـخ العـرب والبربـر ومـن عاصرهـم مـن ذوي الشـأن الأكـبر، خليـل شـحادة، سـهيل زكار، دار الفكـر، 2000م
- ابـن خلـكان، وفيـات الأعيـان وأنبـاء أبنـاء الزمـان، تحقيـق إحسـان عبـاس، دار صـادر، بـيروت، 1976
- ابـن سـعد، الطبقـات الكـبرى، تحقيـق محمـد عبـد القـادر عطـا، بيروت، دار الكتـب العلمية، 1990م
- ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، دار الكتب العلمية، بيروت، 1984م
- ابـن عسـاكر، تاريـخ دمشـق، تحقيـق عمـرو بـن غرامـة العمـروي، دار الفكـر للطباعـة والنـشر، بـيروت، 1995 م،
- ابن كثير، البداية والنهاية، دار المعرفة، بيروت، 2003 م
- ابن منظور الإفريقى، لسان العرب، دار صادر، بيروت، 1993م
- ابـن هشـام، السـيرة النبويـة، عمـر عبـد السـلام تدمـري النـاشر: دار الكتـاب العـربي 1990م

- أبـو الحجـاج مجاهـد بـن جـبر التابعـي المكـي القـرشي المخزومـي، تفسـير مجاهـد، تحقيـق، محمـد عبـد السـلام أبـو النيـل، دار الفكـر الإسـلامي الحديثـة بـيروت، 1989 م
- أبـو العـرب التميمـي، المحـن، تحقيـق عمـر سـليمان العقيـلي، ج1، دار العلـوم، الريـاض، 1984م
- أبـو المعـالي، بهـاء الديـن البغـدادي، التذكـرة الحمدونيـة، دار صـادر، بـيروت، د.ت
- أبـو جعفـر البغـدادي، المحـبر، ج1، تحقيـق إيلـزة ليختـن شـتيتر، دار الافـاق الجديـدة، بـيروت، د. ت
- أبـو عبـد الله نعيـم بـن حمـاد المـروزي، الفتـن، تحقيـق سـمير أمـين الزهـيري النـاشر مكتبـة التوحيـد، القاهـرة ط1، 1991م
- أحمـد ابراهيـم الشريـف، مكـة والمدينـة في الجاهليـة وعهـد الرسـول صـلى الله عليـه وسـلم، دار الفكـر العـربي، ط2، د.ت
- أحمد أمين، فجر الإسلام، مؤسسة هنداوي للنشر، مصر، 2011م
- أحمـد زكـي بـدوي: معجـم مصطلحـات العلـوم الاجتماعيـة، مكتبـة لبنـان، بـيروت، 1978م
- أحمد زكي صفوت، جمهرة رسائل العرب، العصر الأموي، طبعة مصر، 1933م
- الأصبهـاني، سـير السـلف الصالحـين، تحقيـق كـرم بـن حلمـي بـن فرحـات بـن أحمـد، النـاشر دار الرايـة للنـشر والتوزيـع، الريـاض، د.ت.
- الـبُرِّي، الجوهـرة في نسـب النبـي وأصحابـه العـشرة، تعليـق محمـد التونجـي، النـاشر دار الرفاعـي للنـشر والطباعـة والتوزيـع – الريـاض الطبعـة، 1983 م
- البغـوي، معجـم الصحابـة، تحقيـق محمـد الأمـين بـن محمـد الجكنـي، مكتبـة دار البيـان، الكويـت، 2000م

- البلاذري، جمل من أنساب الأشراف، دار الفكر - بيروت، الطبعة: الأولى، 1996 م .
- البلاذري، فتوح البلدان، تحقيق وشرح عبد الله أنيس الطباع، عمر أنيس الطباع، بيروت، منشورات مؤسسة المعارف، 1987م
- تركي علي الربيعو، الحركات الإسلامية في منظور الخطاب العربي المعاصر، المركز الثقافي العربي، ط1، 2006م
- جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار الساقي، بيروت، 2001م
- حمدي شاهين، الدولة الاموية المفترى عليها، دراسة الشبهات ورد المفتريات، ط1، دار القاهرة للكتاب، 2001 م
- حياة عمامو (ماهية المصادر الإسلامية المبكرة واختلاف آراء الباحثين في أهميتها التاريخية)، مجلة أسطورة، عدد6، 2017م
- خالد كشك The Historians› Muawiya: The Depiction of Muawiya in the Early Islamic Sources- VDM Verlag Dr. Müller (2008)
- الخركوشي، أبو سعد، شرف المصطفي، شرف المصطفى حققه أبو عاصم نبيل بن هاشم الغمري الحسيني وسماه "مناحل الشفا ومناهل الصفا " بتحقيق كتاب (شرف المصطفى صلى الله عليه وسلم) حققه على ثلاث نسخ خطية، وطبع في ستة أجزاء في بيروت عن دار البشائر الإسلامية 2003م
- الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، بيروت، دار الغرب الاسلامي، 2002م
- خليفة بن خياط، تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق أكرم ضياء العمري، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1977م
- الدينوري، الأخبار الطوال، تحقيق عبد المنعم عامر، دار إحياء الكتب العربي - عيسى البابي الحلبي وشركاه / القاهرة الطبعة: الأولى، 1960 م

- الدينـوري، المعـارف، تحقيـق ثـروت عكاشـة النـاشر: الهيئـة المصريـة العامـة للكتـاب، القاهـرة الطبعـة: الثانيـة، 1992م
- الذهبـي، تاريـخ الإسـلام ووفيـات المشـاهير والأعـلام، تحقيـق عمـر عبـد السـلام تدمـري، د.ط، دار الكتـاب العـربي، بـيروت، 1990م .
- الذهبـي، تذكـرة الحفـاظ، وضـع حواشـيه الشـيخ زكريـا عمـيرات، أربعـه أجـزاء، الطبعـة الأولي، دار الكتـب العلمية، بـيروت، 1998م.
- الذهبـي، سـير أعـلام النبـلاء، تحقيـق مجموعـة مـن المحققـين بـإشراف شـعيب الأرنـاؤوط، بـيروت، ط3، مؤسسـة الرسـالة، 1985م
- الذهبـي، ميـزان الاعتـدال في نقـد الرجـال، تحقيـق عـلي محمـد البجاوي، الطبعـة الأولي، مطبعة عيسـى الحلبي، القاهـرة، 1963م
- رضـوان السـيد الجماعـة والمجتمـع والدولـة، سـلطة الايديولوجيـا في المجـال السـياسي العـربي الإسـلامي، دار الكتـاب العـربي، ط2، 2007م
- رفيـق العظـم، أشـهر مشـاهير الإسـلام في الحـرب والسياسـة، المكتبـة المسـتنصرية، ج1، ط2، د.ت
- رفيـق المهاينـي، تاريـخ الدولـة الأمويـة والعباسـية والدول الإسـلامية والعصور الوسـطى في أوربـا، دار اليقظة العربية، دمشـق، 1946م
- رواد الفلسـفة البراجماتيـة، تشـارلز موريـس، ترجمـة ابرهيـم مصطفـى ابراهيـم، 2011م.
- ريـاض عيسـى الحزبيـة السياسـية منـذ قيـام الاسـلام حتـى سـقوط الدولـة الامويـة، تقديـم سـهيل زكار، دمشـق، 1992م
- سـيف بـن عمـر الأسـدي التَّمِيمـي، الفتنـة ووقعـة الجمـل، المحقـق أحمـد راتـب عرمـوش النـاشر: دار النفائـس، 1993م

- السـيوطي، تاريـخ الخلفـاء، تحقيـق حمـدي الدمـرداش النـاشر، مكتبـة نـزار مصطفـى البـاز، ط 1، 2004م
- شاكر مصطفى، التاريخ العربي والمؤرخون، طـ1، 1978م
- شكري محمد عياد، البطل في الآدب والاساطير، دار المعرفة، القاهرة، 1959م
- شـمس الديـن الكيـلاني، مـن العـود الأدبي إلى الوعـي التاريخـي. الكنوزالأدبيـة. بـيروت. 1998م
- صلاح طهبوب، العصر الأموي، دار أسامة للنشر، عمان، ط1، 2004م.
- الطبري، تاريخ الرسل والملوك، دار المعارف، 1967م.
- عبـد الجـواد ياسـين، السـلطة في الإسـلام العقـل الفقهـي السـلفي بـين النـص والتاريـخ، المركـز الثقـافي العـربي، ط2، سـنة 2000م
- عبـد الحكيـم الكعبـي، الدولـة العربيـة في صـدر الإسـلام 12 قبـل الهجـرة – 40 هـ/ 610 – 660 م، صفحـات للدراسـات والنـشر، 2012م
- عبـد اللطيـف محفـوظ، الروايـة التاريخيـة وتمثـل الواقـع، مجلـة الموقـف الأدبي، اتحـاد الكتـاب العـرب، دمشـق، العـدد438، السـنة السـابعة والثلاثـون، 2007م.
- عبـد الهـادي العجمـي، "صفـين والتحكيـم بـين الأيديولوجيـة المذهبيـة والواقعيـة التاريخيـة"، حوليـة التاريـخ الإسـلامي الوسـيط، دار الفكـر العـربي، المجلـد العـاشر 2015–2016م
- عبدالله العروي، مفهوم الدولة، بيروت، المركز الثقافي، 1980م
- عـروسي لسـمر، العنـف والمقـدس في الإسـلام (كتـاب المحـن) لأبي العـرب التميمـي أنموذجـا، الـدار التونسـية للكتـاب، 2012م
- عـلا عبـد العزيـز أبـو زيـد، الدولـة الأمويـة دولـة الفتوحـات (41هــ – 132هــ / 661–750م)، ط1، المعهـد العالمي للفكـر الإسـلامي، القاهـرة، 1996م

- علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي، جوامع السيرة النبوية، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ن، د.ت
- القاضي محمد بن عبد الله أبو بكر بن العربي المعافري الاشبيلي المالكي، علق عليه محب الدين الخطيب، الناشر وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، السعودية، 1998م
- القزويني، أخبار البلاد وأثار العباد، ج1، دار صادر، بيروت، د، ت.
- الكلاعي، الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله – صلى الله عليه وسلم، ج2، دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة: الأولى، 1999 م.
- محمد الحسيني، تاريخ الصراع على السلطة، مكتبة وهبة – القاهرة ط 2010م.
- محمد بن يوسف الصالحي الشامي الصالحي، سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، وذكر فضائله وأعلام نبوته وأفعاله وأحواله في المبدأ والمعاد تحقيق وتعليق : عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، 1999م.
- محمد شوقي بن إبراهيم مكي، أطلس المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، 1985م.
- محمد مجيد بلال، الإسلام المبكر في التواريخ السريانية: دراسة مقارنة بين تاريخ الطبري وتاريخ ميخائيل الكبير، ميخائيل الكبير (595 هجرية – 1199م)، تاريخ ميخائيل الكبير، ترجمه من السريانية الى العربية في أقدم الترجمات (شمعون صليبا)، ط1، دار الرافدين – بيروت، 2015م .

- المدخـل في الأيديولوجيـا والحضـارة، عبـد الرحمـن خليفـة – فضـل الله محمـد اسـماعيل، مكتبـة بسـتان المعرفـة، الاسـكندرية، 2006م
- المـزي، تهذيـب الكـمال في أسـماء الرجـال، المحقـق، بشـار عـواد معـروف، النـاشر: مؤسسـة الرسـالة – بـيروت الطبعـة: الأولى، 1980م.
- مسـلم بـن الحجـاج النيسـابوري، المسـند الصحيـح المختـصر بنقـل العـدل عـن العـدل إلى رسـول الله صـلى الله عليـه وسـلم(صحيح مسـلم)، تحقيـق محمـد فـؤاد عبـد الباقـي، بـيروت، دار إحيـاء الـتراث العـربي، د.ت
- المقدسي، البدء والتاريخ، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد، د.ن، د.ت
- هشـام جعيـط، (الفتنـة)، جدليـة الديـن والسياسـة في الإسـلام المبكـر، ترجمـة خليـل أحمـد خليـل، بـيروت دار الطليعـة 1991م.
- الواقـدي، الـردة، الـردة مـع نبـذة مـن فتـوح العـراق وذكـر المثنـى بـن حارثـة الشـيباني، تحقيـق، يحيـى الجبـوري، بـيروت، دار الغـرب الاسـلامي، 1990م.
- وجـدان جميـل عـلي جابـر– الـردة/ دراسـة تاريخيـة في مرويـات محمـد بـن اسـحاق (151 هــ/ 768 م) و(سـيف بـن عمـر 180 هــ/ 796 م) و(محمـد بـن عمـر الواقدي 207 هــ/ 822 م) جامعـة النجـاح الوطنيـة، نابلـس، فلسـطين، 2013م.
- وداد القـاضي، نحـو منهـج سـليم في قضيـة موثوقيـة الرسـائل العربيـة الإسـلامية المبكـرة، في موافقـات تونـس الـدار التونسـية للنـشر، 1989م .
- وداد القــاضي Population census and land surveys under the der Islam. Umayyads (41-132/661-750) 2006. Vol.83

- ياقوت الحموي، معجم الأدباء، د.ط، مطبعة دار الفكر، بيروت، 1980م.
- يعقوب بن سفيان بن جوان الفارسي الفسوي، أبو يوسف، المعرفة والتاريخ، تحقيق أكرم ضياء العمري، مؤسسة الرسالة، بيروت ط2، 1981م.
- اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح، تاريخ اليعقوبي، د.ط، المجلد الثاني، دار بيروت للطباعة، بيروت، 1970م.
- يوسف العش، الدولة الاموية، ط2، دار الفكر، دمشق 1985م.



